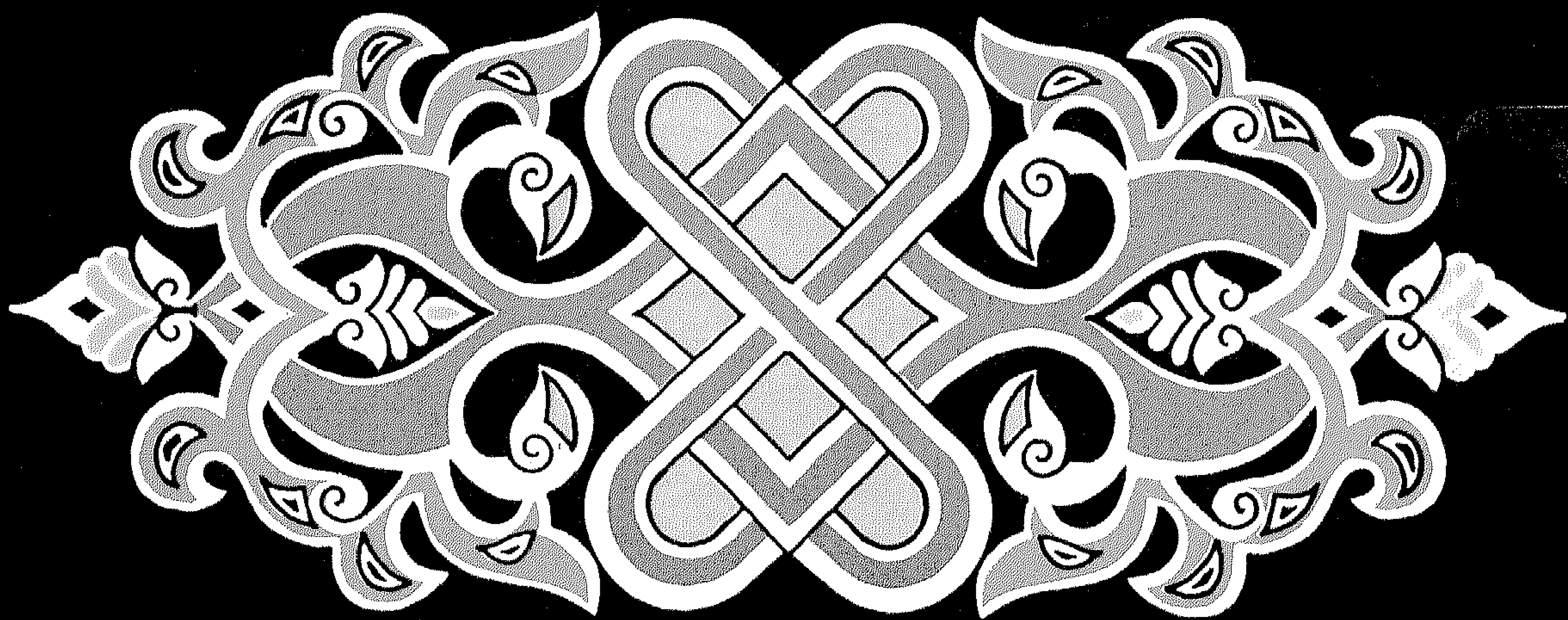
ظلام من الغرب

محمد الغزالي



دار القلم
دمشق

ظلام من الغرب

الطّبْعَة الأولىٰ
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

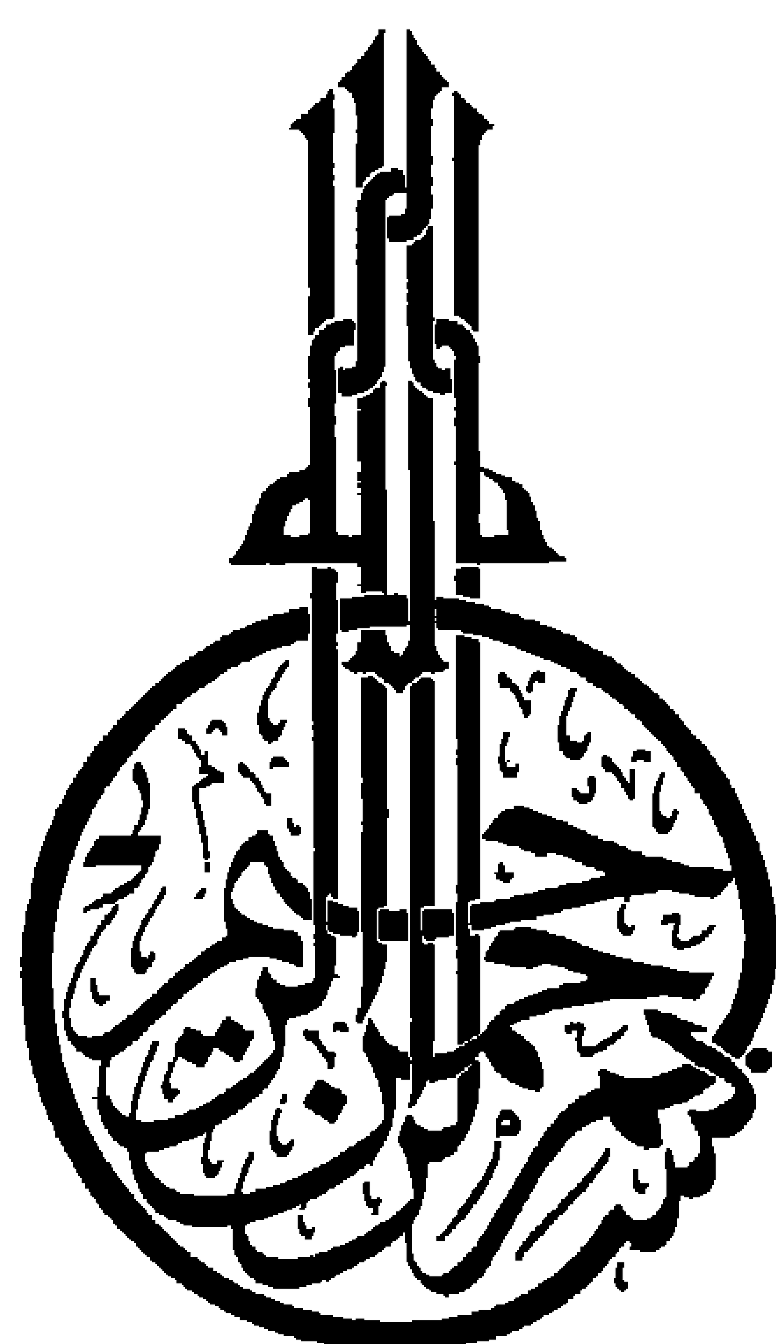
تُطلبُ جميعُ كتُبنا مِنْ :
دَارُ القَلَمِ - دمَشْق : صَ.بُ : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيرُوت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
صَ.بُ : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عَن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - صَ.بُ : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

ظلام من الغرب

محمد الغزالي

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هناك مستشرقون مصريون!! ولدوا في بلادنا هذه، ولكن عقولهم وقلوبهم تربَّتْ في الغرب، ونمت أعوادهم مائلة إليه، فهم أبداً تَبَعٌ لما جاء به!!

إنهم من جِلْدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، بَيْد أنهم خطر على كياننا!

لأنهم كفار بالعروبة والإسلام، أعوان ـ عن اقتناع أو مصلحة ـ للحرب الباردة التي يشنها الاستعمار علينا، بعد الحرب التي مزَّق بها أمتنا الكبيرة خلال قرن مضى.

وهم سفراء فوق العادة لـ «إنجلترا، وفرنسا، وأمريكا» دول التصريح الثلاثي الذي صنع إسرائيل وحماها.

والفرق بينهم وبين السفراء الرسميين أن هؤلاء لهم تقاليد تفرض عليهم الصمت، وتصبغ حركاتهم بالأدب.. أما أولئك المستشرقون السفراء فوظيفتهم الأولى أن يثرثروا في الصحف وفي المجالس، وأن يختلقوا كل يوم مشكلة موهومة ليسقطوا من بناء الإسلام لبنة، وليذهبوا بجزء من مهابته في النفوس.

وبذلك يحققون الغاية الكبرى من الزحف المشترك الذي تكاتفت فيه: «الصهيونية» و«الصليبية» في العصر الحديث.

التحرير الكامل أن نُجليَ هذا الصنف من المستشرقين عن الحياة العامة كما أجلينا عن ضفاف القناة جيوش إنجلترا، وكما سنجلي عصابات اليهود عن أرض فلسطين ـ بعون الحق ـ جل شأنه.

إن هذا النفر من حَمَلَة الأقلام المُلَوَّثَة أخطر على مستقبلنا من الأعداء السافرين، فإن النفاق الذي برعوا فيه يخدع الأغرار بالأخذ عنهم.

وقد يقولون كلمات من الحق تمهيداً لألف كلمة من الباطل تجيء عقيبها. فلنحذر هذا العدو المقنَّع، ولنؤمِّن طريق نهضتنا بتجلية هذا الظلام الوافد من الغرب(١).

ونحن في هذا الكتاب نتتبع :

* الحركات العليلة.

* والنيات المدخولة.

* والمحاولات المستمرة للنيل من مكانة الدين وإظلام مستقبله.

. . . لقد انفجرت بغتةً أحقاد بعض الناس على الإسلام، وبَدَت سرائرهم مُسَوَّدة تجاه عقائده وشرائعه.

لقد خُيِّل إلى هذا النفر الواهم أنَّ الأوان قد حلَّ للتخلص من وصايا الإيمان، وأعباء الفضيلة، وأوامر الله جملة. . . ولكن خاب فَأْلَهُمْ.

* إنهم يكذبون على الحرية حين يجعلونها تُرادف الفوضى.

* ويكذبون على الحضارة حين يحسبونها تقارن الميوعة.

* ويغدرون بأنفسهم وأمتهم وتاريخهم حين يُمَكِّنون لسماسرة الغرب الناقم علينا أن ينالوا مأربهم ويبلغوا ما يشتهون.

التحريرالكامل أن ننظف الجو العام من أولئك الذين فقدوا كل شيء. . إلا النقل الأعمى عن أوروبا دون مَيْز بين خبيث وطيب، ونافع وضار.

إما عن فساد في عقولهم أو فساد في ضمائرهم. . وذاك ما أثرناه في هذا الكتاب لنصدَّ الجاهلية الحديثة عن اجتياح ديننا وأمتنا.

محمد الغزالي

---

(١) كلمة الغرب هنا تعني أوروبا وأمريكا، وتتناول جميع التيارات الوافدة منهما، ماديةً أو غير مادية.

مَنَابِعُ الإِثْمِ

الأفكار الحائمة حول الإسلام ـ عند الجاهلين به ـ تُصوِّره ديناً غريباً عما قبله، محصوراً في نطاق قائم بذاته، وتُصوِّر أهله أتباع رجل ادَّعى النبوة ـ إنْ صدقاً وإنْ كذبا ـ فهو يربطهم بشخصه فحسب، ويكره أن يأنسوا بغيره من النبيين الأولين، أو يعترفوا بما جاء على أيديهم من هِدايات!!

وهذا تصور باطل.

ربما وقف اليهودي في إيمانه عند «موسى»، وجحد مَنْ بعده، وقال فيهم السوء.

وربما وقف النصراني في إيمانه عند «عيسى»، وكذب مَنْ بعده، ورفض الأخذ عنه.

أما الإسلام فهو دين شامل، يأمر أهله أن يؤمنوا بـ «موسى» و «عيسى» و«محمد» -عليهم الصلاة والسلام- على سواء، وأن يوثِّقوا أواصر القُربى بينهم وبين سائر المرسلين، وأن يجعلوا ولاءهم لموسى وعيسى من ولائهم لمحمد نفسه، فلا تفرقة بين نبي ونبي.

الكل ينقل عن الله، ويجتهد في نفع عباده.

والكل أدَّى واجبه في إنقاذ البشرية من أهوائهم وقيادتهم إلى الخير والحق والمعروف.

والله سبحانه وتعالى بعد أن عدَّ جملة من أسماء النبيين الأكرمين قال لرسوله محمد ﷺ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذه الآية من القرآن العزيز تفيد أنَّ الطريق واحدة، سبق فيها من

الهداة مَنْ سبق، ثم جاء النبي الصالح «محمد بن عبد الله» مجدِّداً مابَلِيَ ـ على الزمن ـ من أعلامها ومؤكداً ما بقي من حقائقها، ومتجرداً في دعواته لا يطلب عليها أجراً، ولا يبغي بها مجادةً أو فخراً. . .

إنَّه مذكِّر فحسب يوقظ النيام، وينبه الغافلين.

وقد كره محمد رسول الله ﷺ أن يُفضَّل على أحد من إخوته المرسلين.

روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنِّي خير من يونس بن مَتَّى ـ ونَسَبَه إلى أبيه ـ».

وفي رواية: «من قال: أنا خير من يونس بن متىٰ فقد كذب».

وقال عن يونس: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي».

هذا وصف العلاقة بينهما دون تزيُّد، وقد يحمق بعض الأتباع فيدخل في مفاضلة بين الأنبياء لا نتيجة لها إلا إثارة الفتن، والمسلم الصالح يدع هذا الميدان، ويُقبل على خاصة نفسه يتعهدها بما يؤهلها لرضوان الله، فذلك أجدى.

* * *

رُوي أن يهودياً عرض سِلعة له في السوق، فساومه رجل على شرائها بثمن بخس. فقال اليهودي: لا أبيعها به والذي اصطفى موسى على البشر!.

وكان رسول الله ﷺ قد هاجر إلى المدينة وأقام بها، فتغيَّظ أحد الأنصار من هذه اليمين وظنها تعريضاً بمحمد، فأقبل على اليهودي فلطمه، وقال له: تقول هذا ومحمد بين أظهرنا؟!

فشكا اليهودي ما نزل به إلى رسول الله، وقال: يا أبا القاسم إنَّ لي ذمة وعهداً. فغضب رسول الله من الأنصاري حتى عُرِفَ الغضب في وجهه ثم قال: «لا تفضِّلوا بين أنبياء الله»، وذكر كليم الله موسى بخير، وأثنى عليه بما هو أهله.

إن الإسلام أرحب أفقاً، وأوسع دائرة، وأجمع لأطراف الزمن، وأوعب لأشتات الناس مما يتوهم الكثيرون القاصرون.

وإذا كان الشمول عيباً والمرونة قدحاً فإن الإسلام يُؤتىٰ من هذه الناحية.

وما ينقم الإسلام على فرد أو جماعة من أهل الكتاب الأولين إلا أن تسوء صلتهم بربهم وأنبيائهم، ويتحوَّلوا عن قواعدهم المحترمة إلى مسلك تنكره السماء وتفسد به الأرض.

ما العمل إذا تحوَّلت اليهودية إلى صهيونية آثمة تَلِغُ في الدماء والأعراض وتبني وجودها على الفتك والغَصْب!؟

إنَّ موسى أول الناس براءة من هذه العَربدة السياسية.

والمسلمون إذا انتصبوا لمقاومتها، ومخاصمة أهل الأرض طرّاً في سبيل القضاء عليها فهم مُقدَّرون مشكورون، وليس ينكر عليهم عملهم هذا إلا سياسي أفَّاك، أو مُغْرِض مفضوح الدخيلة.

لقد كنت ـ كأيٍّ مسلم ـ أُشيِّع موسى بقلبي وهو هارب من بطش فرعون، وأصحبه بمشاعر متوجِّسة قلقة وقد خرج خائفاً يترقَّب يقول:

﴿. . . رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]. ﴿. . . رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

فانظر إلى أتباع النبيِّ الفار من الظلم، والممدود اليد إلى خير الله يستنزله في ضراعة وخشوع.. إنَّ هؤلاء الأتباع يقترفون اليوم أبشع مَظْلَمة في العالم، ويتنادون في صفاقة لا نظير لها: أن اقتلوا العرب واستولوا على ديارهم وحقوقهم، ودعوهم يهيمون في الصحراء الموحشة ليهلكوا من الانقطاع والضياع.

إنَّ هؤلاء الأتباع تحوَّلوا إلى عصابات خليقتها الغدر، وراحتها البغي، وطعامها الربا، وريُّها عبُّ الدماء من أجساد الضحايا، وأملها أن تُشْبِعَ

أَثَرَتَها أو ترى المدائن والقرى خرائب وأطلالاً ينعق فوقها البوم!!

أهذا ميراث موسى؟ كَذَبوا. ما أبعد البَوْن بينه وبينهم.

إنَّ حَصْدَ هؤلاء الطاغين قربانٌ إلى موسى، وإلى سَلَفِه إسرائيل، وإلى ربهما ورب العالمين..!!

وما يُقال في تحويل اليهودية إلى صهيونية، يقال في تحول النصرانية إلى استعمار همجي لا ضمير له، وفي تحالفها مع اليهودية بغية استئصال شأفتنا واجتياح بَقِيَّتِنا.

هكذا يحلم بنو إسرائيل، وهكذا تشدُّ أزرهم دول الاستعمار الغربي.

ونتساءل: أليس الإسلام هو الذي حادَّ اليهود وأعلن أن غَضْبته عليهم ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ... ﴾ [النساء: ١٥٦-١٥٧] بلى! ولكن الاستعمار الصليبي لا يكترث بشيء قدر ما يكترث لتدويخ المسلمين وإيرادهم موارد البوار.

أما صلتهم بعيسى وإنجيله فقد حوَّرتها الليالي التي تلد العجائب!

كان عيسى رجلاً رقيقاً عامر الفؤاد جَيَّاش العاطفة.

وكان ينكر على المتاجرين بالأديان غِلْظة وجفاف الرحمة من قلوبهم واليوم تتفرس في فِعَال المنتسبين لاسمه، ومَبْلَغ ما تذوق الشعوب من ويلاتهم، فلا ترى في وجوههم إلا ملامح «تيمورلنك» و «هولاكو» وجحافل التتار وهي تنساب في الدنيا لتعز من أذل الله وتذل من أعزَّ الله.

إنَّ الطريقة التي أُطفئت بها ثورات العرب في فلسطين وفي طرابلس، وفي أقطار المغرب، قد تُطْوَى صحائفها حيناً حتى لا تتقزز النفوس من أنبائها.

ولكن الجراح تَنْكَأُ الجراح، ومآسي اليوم تُذَكِّر بمآسي الأمس.

وهذه وتلك سوف يقدم الحساب عنها يوماً.

قال «حافظ إبراهيم» يصف ما فعله «الطليان» بالمسلمين في جرابلس:

كَبَّلـوهـم، قَتَّلـوهـم، مثَّلـوا . . . بذوات الخِدْر، طاحوا باليتامى!
ذَبَّحـوا الأشيـاخ والـزَّمْنَـىٰ ولـم يرحموا طفلاً، ولم يُبقوا غلاما!
أَحْـرَقـوا الـدُّورَ، استحلُّـوا كـل مـا حرَّمت «لاهايُ» في العهد احتراما!
بـارك المُطْـران فـي أعمـالهـم فسلـوه: بـاركَ القـومَ عـلامـا؟
أبهـذا جـاءهـم إنجيلهُـم آمـراً يلقـي علـى الأرض سـلامـا؟

وقال «أحمد شوقي» يصف جيوش الاستعمار:

تمشـي المنـاكـرُ بيـن أيـدي خَيْلـه أنَّـى مشـى، والبَغْـيُ والإجـرام!
ويحثُّـه بـاسـم الكتـاب أقِسَّـة نشطـوا لمـا هـو فـي الكتـاب حـرام!
ومُسيطرون على الممالك سُخِّرت لهـم الشعـوب كـأنهـا أنعـام!
مـن كـل جـزَّار يـروم الصـدر فـي نـادي الملـوك، وجـدُّه غنـام!
سكينـه، ويمينـه، وحـزامـه، والصـولجـان، جميعهـا آثـام!
يـا حـامـل الآلام عـن هـذا الـورى كثـرت عليـه بـاسمـك الآلام
خلطوا صليبك بالخناجر والمُدى كـل أداة لـلأذى وحِمـام!

وقد تعقَّبَ الكتَّاب والشعراء حملات هـذا الاستعمار، وكشفوا الغطاء عن مقاصده ومفاسده، ومنذ سبعين سنة وهم يلفتون أمتهم إلى طبيعة هذه الحملات، والروح التي تُملي بشنّها، وفي ذلك يقول «الكاشف»:

صليبيَّـةٌ يـا قـومُ؟ أم عنصـريـة حروبكم؟ والدينُ هذا أم الشِّرْكُ؟

أجل إنَّ الأحقاد التي اكتنفت الغزو الجديد، وقرنت بين الاستعمار والتبشير في جبهة واحدة لم تَخْفَ على أحد، وبيت «الكاشف» الأخير قيل قبل خمسين سنة مما ذكره محرر «المصور» عن سياسة الإنجليز لتنصير جنوب السودان وهذه كلمته[1] التي نشرها بعنوان:

(هل قرأ الأزهري ـ رئيس الحكومة ـ هذا المنشور؟)

---

(١) في ١٥ / ١٢ / ١٩٤٥.

«لماذا يحب كثير من الناس أن يعتنقوا الإسلام؟»

«لأنه عقيدة سهلة، تسمح للناس بارتكاب خطايا كثيرة تلذُّ لهم، وتعلمهم احتقار الآخرين».

ذلك السؤال وهذا الجواب، هما ترجمة المنشور المكتوب بلغة جنوب السودان (بحروف لاتينية) مع ترجمة بالإنكليزية.

وليس هذا المنشور إلا واحداً من عدة منشورات يوزعها الإنكليز في جنوب السودان، باسم التبشير، أما الغاية الكامنة وراء هذه الحَمْلَة التبشيرية، فهي التفرقة بين شمال السودان الإسلامي، وجنوبه الذي تسرح فيه جماعة المبشرين وتمرح، حتى ينفصل الشمال عن الجنوب من الناحية الروحية، فيتاح للمستعمر أن يحقق أحلامه في الجنوب، ويضمه إلى امبراطوريته السوداء.

قال المحرر: «وقد عاد مندوبنا من رحلته الأخيرة في السودان يحمل هذه المنشورات المسمومة، المليئة بالطعن في الإسلام والقرآن، وإليك ترجمة منشور آخر منها:

«كيف نستطيع أن نعرف أن الإسلام ليس ديناً صحيحاً؟»

«لأنه ليس لهذا الدين (مخلِّص) يروي عنه، ثم إنه لا يمنح الناس قوة تقودهم إلى حياة جديدة، والقرآن ليس من عند الله»!

وهذا منشور ثالث:

«كيف يُعرَف أنَّ القرآن ليس من عند الله!».

«لأنه يقصد أن يحلَّ محل الإنجيل، ولأننا نجد فيه أشياء نعرف أنها غير صحيحة».

إنَّ هذه المنشورات تحت يدي وأنا أكتب هذه الكلمة.

ولا أحسب أن السيد «إسماعيل الأزهري»[1] لم يرها ولم يسمع بها.

---

(١) إسماعيل الأزهري: من رؤساء الوزارات السودانية بعد استقلال السودان.

فماذا فعل بإزائها؟

وإذا لم يكن قد فعل شيئاً. . . فماذا هو فاعل؟ .

* * *

والحق أن الغزو الذي انسابت جيوشه في بلاد الإسلام مَطْلع هذا القرن الهجري أرخصَ كل شيء في سبيل ترسيخ أقدامه.

والغريب أن الخسائر التي أصابت المسلمين في مقاومته بعد ما احتل ديارهم أضعاف ما فقدوا إبان مواجهتهم هذا الغزو يوم بدأ.

ولنعترف ـ كارهين أو طائعين ـ أن أمتنا الكبيرة كانت قد انتهت إلى حالٍ من الفوضى والتفسخ أغرى بها العدو وأضعف أمل الصديق.

وجعل أوروبا تقتسم بينها الأسلاب وكأنها تستولي على ميراث ليس له صاحب.

ثم إن الفاتح الجديد لم يُضِعْ وقته سدى.

لقد رَسَمَ سياسة دقيقة بعيدة المدى لتفتيت الكيان الذي سقط في يده، وإماتة خصائص الحياة والإباء فيه.

فرمى بأوزاره كلها على البلاد يحاول محق عروبتها، وطمس تاريخها، وتلويث ينابيعها الفكرية والعاطفية، حتى تنشأ الأجيال الحديثة عليلة المزاج سقيمة التفكير.

وأعانه على المضي في خطته تلك ما أحرزه من سبق هائل في العلوم والكشوف وآفاق الحياة الأخرى.

وليس بعزيز أن يعثر كل غالب منتصر على أصناف من الناس تسايره في رأيه وتتابعه على هواه.

إما عن ذوبانٍ وإعجاب، وإما عن ضعفٍ وخيانة.

والإلحاد والفساد والتخبُّط الذي مرضت به أكثر بلاد الإسلام جاء نتيجةً محتومة لسياسة الغزو الاستعماري الأخير.

والحياة في أوروبا تمتاز بأنها مادية مغرقة، وأنَّ صلتها بالله واهية أو صورية أو مبتوتة، والإنسان في الغرب يعبد الحياة وينحصر في مطالبها.

وقد تقول: لكنهم نصارى متمسكون بمذاهبهم، ومتعلقون بكنائسهم؟ والجواب أن التديُّن المنحرف المشوب يحتل من النفس الإنسانية جانباً منزوياً مهملاً، لا يصدُّها عن شر، ولا يحضُّها على خير.

وهو إن اختلط بالسلوك العام فلتسويغ خطيئة، أو لتسلية كربة.

وقد ينتفع به ـ كأيِّ تدين مصنوع ـ في إلباس الجرائم ثوب الأعمال الصالحة. أو قد ينتفع به كعصبية عمياء تهيج بها الأحقاد ويُكاد بها للخصوم.

والاستعمار الغربي يرتبط بالنصرانية لتخدم أغراضه فحسب.

أما أوروبا وأمريكا بعد تعريتها من التزاويق والتهاويل التي تظهران بها، فقِطْعان من البشر لا تَعرف لها رَبّاً، ولا ترجو ثواباً، ولا تخشى عقاباً.

كتب الأستاذ توفيق الحكيم يصف الفراغ الروحي في الحضارة الغربية فقال[1]: «هل الإنسان وحده في هذا الكون؟. لقد أجاب العصر الحديث فعلاً بأنَّ الإنسان وحده لا شريك له في هذا الكون، وأنه إله هذا الوجود، وأنه حرٌّ تمام الحرية.

وبهذا الجواب ـ الذي قضىٰ على تعاليم الأديان ـ ختم العصر الحديث على نفسه بطابع المادية.

وعلى الرغم من بقاء الدين في كثير من البلاد المتحضرة ماضياً في دعوته، محافظاً على مظاهر قوته، إلا أن الناس جميعاً حتى المتمسكين بالطقوس وروح النصوص قد سيطرت عليهم النزعة المادية، ودون إدراك منهم لأن جوَّ العصر كله قد تشبَّع بها تشبُّعاً لا تجدي في صده النوافذ المغلقة، ولا الأبواب الموصدة، فهواؤه يتسرب إلى النفوس وهي لا تفطن».

(١) من كتابه «التعادلية».

. . تلك هي علاقة الحضارة الحديثة بالله، وذلك مبلغ توجيه النصرانية لها، ولا عجب فهذه الديانة ـ ولو بقيت على أصولها الأولى ـ خُلقت لعصر غير العصر وجو غير الجو.

وما تلام السيارة الفارهة إذا عجزت عن جرٍّ سبعين عربة من عربات القطار السريع. . . !!.

إنَّ العصر للإسلام وحده لو كان له رجال ولو كان له دعاة.

ويلاحظ على حضارة الغرب أيضاً أنها أجابت رغبات النفوس، ويسَّرت منالها لعامة الناس وزادت شراهة الشهوات ـ الحرام والحلال معاً.

فالزنا لا يحرِّمه قانون، وكذلك الخمر.

ومتى يُسّر هذا وتلك، وقُرِّبا للطالبين بالمجّان أو بالثمن الزهيد فإن الدخول في مساخط الله ـ إن ذَكَرَه أحد ـ أمسى يشبه الدخول في الحدائق العامة، متعة مبذولة للراغبين.

وأحسب أن اللذائذ التي حظي بها الملوك الأقدمون، وانفردت بها قصورهم قد دخلت الآن أغلب البيوت.

والعامل بأجر يومي يمكنه أن يدخل صالات الرقص ليخاصر النساء، ويسمع الموسيقى والغناء، ويسكر ويضحك دون مبالاة.

وعندما استعمرت أوروبا بلادنا، وهي متحللة من قيود الإيمان كما ترى؛ اجتهدت أن تنقل إلينا صورة من حياتها هذه.

فلما اصطدمت بتعاليم الإسلام الموروثة، وتقاليده الباقية بين أهله، عملت على إماتة هذا الدين بإبعاد شرائعه، واحتقار تقاليده.

والقانون الوضعي المنقول عن الغرب، والمطبَّق الآن في أكثر بقاع الإسلام يبيح الزنا ما دام الرضا متبادلاً بين الطرفين، فإذا زَنَت زوجةٌ ورغب زوجها في ابتلاع فعلتها فليس للمجتمع حق قِبَله، ولا للقانون سلطان عليها.

وانظر بُعد البَوْن بين بيتٍ يقع في الزنا فيتغاضى المجتمع عنه، وبين بيت

يقع فيه شقاق فيتدخل الإسلام لإعادة الوئام إليه ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ . . . ﴾ [النساء : ٣٥].

الشقاق رذيلة يخشاها المجتمع المسلم على الأسرة.

أما الزنا فجريمة، لا ، بل فعلة يسكت عنها القانون الأوروبي لأنها شأن لا يعنيه.

وأما حق الله ـ من قَبْل ومن بَعْد ـ في تطهير النفوس من الدنايا، وإقامة الحدود لفطام المجتمعات عن المحرَّمات، فأمر غير معترف به.

وقد فَشَت المناكر في بيئتنا عن طريقين:

– تأثير الاستعمار الغربي في الحياة العامة.

– ومواريث الانحلال التي لحقتنا بعد تفكك الأمة الإسلامية أيام الأتراك.

والبصر الناقد الحصيف لا يُعوزه أن يرد عللنا الحاضرة إلى مصادرها التي أتت منها، وأن ينقذ أمته المتعبة من ازدواج هذه النكبة.

والعلاج أن:

ـ يُحارب الاستعمار، وما اقترن به، وما اختفى وراءه.

ـ وأن نَرُدَّ لديننا رُواءه الأول، وننفي عنه ما شانه من فساد في عهود البِلى والاضمحلال.

وبذلك ننقذ الشرق من ظلمات الغرب.

وننقذ أنفسنا من مهاوي التحلُّل والعصيان.

بَيْنَ العَاطِفَةِ وَالعَقْل

ربمـا قَبِلْـتَ بعـض الآراء، والأوضـاع، والأشخـاص، علـى إغمـاض ومُساهلة، فلستَ تريدُ التقصّي في التمحيص أو التثبُّت من الحكم.

لقد قبلتَ ما قبلت لأنك راغبٌ عن الرفض، أو لأن ثمَّتَ مصلحة أرجح لديك، أو لأن سآمةً غلبتْ عليك، أو لأنَّ الإلفَ أنام تفكيرك، أو لعلل أخرى.

وكثير من الناس يعيش في الدنيا أسير ظنون غالبة، أو في نطاق مذاهب موروثة.

وقد تُومض في عقله لحظات شك سريع، ما إن تبرق حتى تنطفي، ثم يعاود معيشته الساهية، ويأخذ الحياة كما هي.

والقرآن الكريم لم يعرِّض باتصال مواكب الجهل خَلَفاً بعد سَلَف إذ يقول في عَبَدة الأوثان: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

والمرء إذا كان يقبل أمراً ما دون مبالاة وتدقيق، وإذا كان يسمح بمرور أشياء كثيرة في «حاشية الشعور» أو «شبه الشعور»؛ فإنه لا محيص أمامه من أن يوقظ انتباهه كله وما أوتي من ذكاء عندما يتعلق البحث بحاضره في هذه الدنيا، ومستقبله في الدار الأخرى.

أي عندما يتعلَّق بدينه، ونفسه، وماله، وما عليه لله رب العالمين.

إنَّ الأمر ـ والحالة هذه ـ أخطر من أن يُنظر في ظلال الغفلة، وقلة الاكتراث.

وليس يُستكثَر عليه إدمان النظر، وإنعام الفكر آماداً طويلة، حتى يستقر المرء على نهايةٍ هي ثمرة ما لديه من وعي وحسّ، وإرادة وإخلاص...

وتوجد جماهير غفيرة تحيا على ما تلقَّت من إيمان.

بعضه خرافي، وبعضه حق، وبعضه مزيج من الحق والخرافة..

هؤلاء وجدوا قلوبهم ـ على حين غفلة ـ ملآى، شحنها السابقون قبل أن يذهبوا.

فهم مع مواريث التديُّن التي آلت إليهم، لا يحبون أن يغيِّروا منها شيئاً.

وإذا حدث أن نقص هذا الإيمان أو ضاع فإنَّ القلوب الفارغة تملأ مرة أخرى من النوع نفسه، دون خلجةٍ من تفكير أو يقظةٍ من وعي.

روى «ديل كارينجي» عن «وليم جيمس»: «كانت مشيئة والدتي أن أكرِّس حياتي لخدمة الدين، وكثيراً ما فكرت أن أصبح مبشراً في بلد أجنبي.

ولكني حين ذهبت إلى الجامعة طرأ عليَّ تغير كبير.

فقد درست علم الأحياء والعلوم المختلفة، والفلسفة والأديان المقارنة.

وقرأت كتباً كثيرة في تفسير الكتاب المقدس، فبدأت أشك في الكثير مما أكده الإنجيل، ورحت أرتاب في العقائد المتزمّتة التي يلقيها علينا وعّاظ الريف، وتنازعتني الحَيْرة، وأصبحت شغوفاً بالتقصِّي والاستطلاع، تتزاحم داخلي أسئلة لا حصر لها...

لم أدرِ ما أصدِّق؟ ولا بأي شيء أُؤمِن؟!

وكَفَفْت عن الصلاة والعبادة، وأوشكت أن أكون ملحداً..».

هذا رجل ورث النصرانية عن ذويه وأوشك أن يكون من دُعاتها.

ثم تفتَّح عقله على علوم الكون والحياة، واشتبك مع معضلات الفلسفة والديانات الأخرى، فإذا نافذة من الريبة تنفتح على نفسه، وإذا هو يكفر بدينه أو يقترب من الكفر.

إنَّ الأسئلة المنبعثة من أعماق نفسه بعد استيقاظ فكره وحسِّه لا يجد لها جواباً.

ولكنه عطشان إلى اليقين والاستقرار فما عساه يفعل؟

ليتجاهل هذه الأسئلة كلها، وليهمل ما قبلها وما بعدها.

فهذا طريق الإيمان والراحة.

وهنا نجد خلطاً بين نوعين من الأسئلة متباينين أشد التباين.

أحدهما ناشىء عن نَهَم العقل في طلب المعرفة ـ القريبة والبعيدة ـ نَهَماً قد يعيبه إذ يكلفه فوق طاقته.

والآخر ناشىء عن حق العقل في طلب الحقيقة، وكشف الشُّبَهِ المحيطة بها وتخليص جوهرها من كل شائبةٍ تَعْلَقُ به.

الأسئلة الأولى يجب استبعادها، ويستطيع المرء ـ عقلاً ـ أن يكفَّ عنها.

أما الأخرى فإنَّ تجاهلها طلباً للراحة جهلٌ كثيف لا يُقبل من إنسان، ولا يسوغ عليه إيمان. . .

قد يعجز الكاهل أن يحمل ثقلاً ما، ولكن العجز عن حمله لا يعني عدمه.

وقد يعجز العقل عن تفسير كائن ما، ولكن العجز عن تفسيره لا يُبطل وجوده.

أما أن يحكم العقل باستحالة صورة من الصور أو قضية من القضايا بطرقه العتيدة في البحث والاستدلال فهذا ما لا يمكن تجاهله، ولا يقبل غضُّ الطرف عنه، ولا يمكن سَوقه في صعيد واحد مع النوع الأول.

والذين يخلطون بين النوعين وهم يؤمنون أو وهم يكفرون. . قوم جائرون.

و «وليم جيمس» ينبئنا بأنه أهمل الأسئلة التي عرضت له كلها، وأسكت الشكوك التي جاشت في نفسه، ورجع بعد رحلة طويلة من الريبة والقلق إلى نصرانيته الأولى.

ثم قال يشرح نفسه وهو آيب إلى دينه: «أفتراني توصلت الآن إلى حلول لتلك الأسئلة؟ وشفاء لتلك الريب والشكوك التي تنازعتني في صباي؟ كلا.

فما من أحد وَسِعَه أن يفسر لغز الكون وسرَّ الحياة! . .

إنَّنا محاطون بالألغاز والأسرار من كل جانب، فآلية جسدك سرٌّ من الأسرار، وكذلك الكهرباء التي تستضيء بها في بيتك، والأزهار التي تزيّن حديقتك، والخُضرة التي تتطلع عليها من نافذتك.

بل لقد رصد «شارلس كزنج» المهندس العبقري المشرف على معامل أبحاث شركة «جنرال موتورز» ثلاثين ألف دولار سنوياً من جيبه الخاص لكلية «أنطاكية» عساها أن توفَّق إلى معرفة سر اخضرار الزرع.

وصرح بقوله: إننا إذا عرفنا كيف يستطيع الزرع تحويل ضوء الشمس والماء والكربون إلى سُكَّر يتغذى به لوسعنا أن نغيِّر وجه المدنية تغييراً شاملاً.

غير أن جهلنا بأسرار أجسامنا، ومظاهر الكون حولنا لايمنعنا من استخدامها والاستمتاع به.

ولن يكون جهلي بأسرار الدين مانعاً لي من الاستمتاع بالحياة الروحية السامية التي يهيئها لي.

لقد وعيت آخر الأمر الحكمة البليغة القائلة: «لم يُخلق الإنسان في الحياة ليفهمها، وإنما خُلق ليحياها»[1].

ونحن نؤيد هذا المفكر الباحث فيما ساق من أمثلة وفيما استخلص من نتائج.

فإن:

* إدراك كنه المادة صعب.

* وإدراك كنه الروح أصعب.

* وإدراك كنه الذات العُليا خلاَّقة المواد والأرواح جيمعاً أَوْغَلُ في الصعوبة والامتناع.

---

(١) عن كتاب «دع القلق وابدأ الحياة». تعريب عبد المنعم الزيادي.

* والوقوف عند الصفات الظاهرة فحسب، لا يخدشُ اليقين.

* وإسكات الأسئلة التي تهجس في النفس من هذا القبيل بعض ما أوصى به الدين، بل هو بعض ما يُوصي به العقل الرصين.

غير أن ما ذكره «وليم جيمس» هو نصف الحقيقة، ولا يمكن أن نغفل عن النصف الآخر، فقد نُسيغ السكوت على الأسئلة التي تتحدى قدرة الفكر البشري.

ولكن هناك أسئلة أخرى يجب أن تثور وأن نجيب نحن عنها.

وذلك عندما تحتوي العقائد المتلقاة على التواءات يأباها الفكر المستقيم، أو على متناقضات يخرج العقل على نفسه لو سلَّم بها..!

* وإكراه امرىء ما على «إمرار» هذه الأخطاء بحجة أنَّ العقل لا يدرك كل شيء هو مغالطة واضحة.

* والقول بعد ذلك بأنَّ «الدين» شيء و«العقل» شيء آخر هو مضيٌّ في هذه المغالطة يُتذرَّع به إلى ترويج الخرافات وإقرار الأباطيل.

إنَّ الشباب الذين فرُّوا إلى الكهف كانوا معقولين عندما خرجوا على دين قومهم، وعندما احترموا الأسئلة التي تردَّدت في ضمائرهم، وعندما طلبوا الدليل الصحيح على ما كُلِّفوا به من اعتقاد ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف].

السلطان البيِّن هو الحجة المقبولة التي يعنو الفكر لقوتها ونصاعتها.

وقد نظر أولئك الفتيان فيما وصل إليهم من دين، وعرضوه على عقول نيِّرة متحررة، فوجدوه خرافة لا يساندها منطق. فرفضوا الأخذ به، وولوا وجوههم شطر الحق حيث كان، وقبلوا في سبيله المطاردة والاغتراب.

* * *

إنَّه لا ارتباط بين الصحة العقلية لفكرة من الفِكَر أو مذهب من المذاهب، وبين الراحة النفسية لدى المؤمنين بهذه الفكرة أو المتشيِّعين لهذا المذهب.

إن لدى الهندوس معابدَ مهولة تخشع القلوب في رحابها وهي تقدِّس الهراء!

وقد يبتهج الفاكهي من أولئك الهنود المؤمنين وهو يرى عجلاً مقدَّساً يَدْلِفُ إلى محلِّه ليقضم الثمار المعروضة ويلتهم منها ما يشاء. . !!

إنَّ العواطف كثيراً جداً ما تندُّ عن ضوابط المنطق المحكم.

ومن ثم قال علماؤنا: إنَّ الانفعالات الوجدانية لا تدل على صدق حكم أو بطلانه، بل إن هذه الانفعالات نفسها هي التي يعرض عليها الحكم بالخطأ أو الصواب.

واتجاهات القلوب لا تساوي في ميزان الحقيقة شيئاً ما لم يؤيدها عقل منصف ونظر ثاقب.

إنَّ الوثنيين يعيشون بقلوب تنعقد على مشاعر عميقة، فهل نسوِّي بين الإيمان بالباطل والإيمان بالحق، من أجل أن الإيمان المطلق يهب صاحبه قلباً مستقراً وفؤاداً راضياً؟

هذا ما نسأله «وليم جيمس» وهو يحدثنا عن متعته بالحياة الروحية التي أتاحها له الإيمان، بعدما أسكت الأسئلة الشاكَّة التي هجست في نفسه قديماً وأَوْهَتْ صلته بالكتاب المقدس.

ومن حق الرجل على كل حال أن يحدِّث الناس عن علاقته بديانته الأثيرة. فلنستمع له وهو يقول:

«لقد عُدْت الآن. . كنت على وشك أن أقول: عدت إلى الدين. . .

ولكن هذا التعبير لا ينطبق في الواقع على حقيقةِ ما حدث. الأصح أن أقول: إنني اتخذت نظرة جديدة إلى الدين. فلم تعد تهمني الخلافات التي تفرِّق المسيحيين شيعاً ومذاهب: وإنما يهمني الآن ما يُسديه إليَّ الدين من

نعَم. كما تهمني النعم التي تسديها إليَّ الكهرباء والأغذية الجيدة، والمياه النقية.

بل إن هذه تعينني أن أحيا حياةً رغدة، أما الدين فهو يمدني بدافع قوي لمواصلة الحياة . .

. . الحياة الحافلة الرحبة السعيدة، إنه يمدني بالإيمان والأمل والشجاعة، ويقصي عني المخاوف والقلق والاكتئاب، ويزوّدني بأهداف وغايات في الوجود، ويعينني على خَلْق واحة خصبة وسط صحراء حياتي . . ».

هذه لا ريب بعض آثار الثقة في الله والتوكل عليه، وهي ما يَنْشُدُهُ الرجل من الدين.

أما الخلافات في أصول العقيدة بين فِرَق النصارى، أو بين النصارى جميعاً وبين غيرهم من أصحاب الملل الأخرى فذلك ما لا يأبه له.

إنه يبغي الوداعة في ظلِّ إيمانٍ ما.

ومثل هذه الرغبة يتطلَّع لها ويصل إليها ألوف من سكان القارات الخمس، من أتباع «بوذا» و «براهما»، ومن أتباع «موسى» و «عيسى» و «محمد»، ومن أتباع الطلاسم الغامضة في البقاع المجهولة والأوطان المتخلفة، ومن أتباع الفلسفات التقدمية في أوروبا وأمريكا.

ولكن يبقى قبل ذلك حَقُّ العقل الإنساني الواعي في أن يُحِقَّ الحق ويبطل الباطل، وحقُّ النفس الإنسانية في أن تتساءل: هل آوت إلى ركن شديد، أم رَكَنَتْ إلى وَهْم فارغ؟

ثم حق الإنسان نفسه: هل سَلَكَ إلى ربه صراطاً مستقيما أم سار في عكس الاتجاه؟

وترك هذه الأسئلة بلا جواب، على أساس أن العقل لا مجال له في شؤون الدين ـ على التعميم الذي يُفهم من كلام «وليم جيمس» ـ لا يقبل ألبتة.

إنَّ كل كلام في فصل العقل عن الدين ـ مثل الطريقة التي رأيت ـ ليس إلا محاولة متعمَّدة لحماية العقائد الباطلة، وإلقاء ستار من المهابة المكذوبة يمنع الفكر الحر من هتك شناعتها وكشف جهالتها.

ثم هو تغطية للميزة الأولى في الإسلام أو إرخاصٌ لقيمتها.

فإن الإسلام يجعل العقل أساس رسالته، ومناط تعاليمه، وحارس دعوته.

والصيحة الأولى للفت النظر إليه قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وأسلوبه في مجادلة خصومه أن يبسط لهم أدلته ثم يطالبهم بالرد عليها ـ إن أمكنهم ـ.

شريطة أن يكون الرد مقروناً بالحجة والمعرفة، لا بالدعوى والإعراض ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وأمام العقل، لكي يعرف ربَّه، مَجالي الحياة في أنحاء الأرض والسماء، يجب أن يُروىٰ من علومها، وأن يتابع التأمل فيها!

ومن المصادر الأصيلة يتكون الإيمان ويربو، يكوِّنه بصرٌ مفتوح لبصيرة واعية ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

أجل ما تغني هذه وتلك؟ وما تجدي على الأغبياء والمغفلين؟ نعم، ومن قبل ذلك يقول ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

إنَّ أعداء الإسلام الألدَّاء هم أولئك الذين آتاهم الله الحواس والمواهب لتصلهم بالكون وتنفذ بهم إلى أسراره، فإذا هم مطموررون ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولننقل هنا نبذة من كتابنا «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» تَقِفُكَ على مكانة العقل في الإسلام:

«إنَّ حدَّة الذكاء، ويقظة الفكر، واستنارة الرأي: عناصر لا بد منها في تكوين الإيمان الصحيح. فإنَّ الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة ـ وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع.

ولا يحسب أحد أننا بذلك نظلم البُلهاء، أو نغمط الحَمقىٰ حقهم ـ إن صحت لهم حقوق ـ بل إننا نستوحي هذا الحكم من نصوص القرآن الكريم نفسه. فالعقول الذكية وحدها هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في شتى الأمكنة والأزمنة!

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

والعقول الذكية وحدها.. هي التي تميِّز الحق من الباطل، وتعرف حقائق الوحي من نزغات الهوى وتلفيق الضلال:

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩].

والعقول الذكية وحدها هي التي تستفيد من عِبَر الماضي وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل، وقصص الأبطال أو الأنذال من المصلحين أو المفسدين:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور، والدقة في الحكم على الأشخاص والمسائل، والبصر بالمقدمات والنتائج، إلا لأصحاب العقول الراجحة، والمدارك الواسعة، والمواهب الرائعة: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وتربية العقول، وإذكاء المواهب، وتفتيق الملكات الإنسانية ليس أمراً هيّناً.

فمراحل التعليم في المدرسة، ومراحل التجريب في الحياة، واستيراد الأفكار البعيدة، وضم ما لا تعرف إلى ما تعرف، والنظر في الجديد نظرة تلطُّف وإيلاف . . لا نظرة جمود واعتساف، والتطوُّف في آفاق العوالم المادية والأدبية، هذه جميعاً وسائل لترقية الإنسان، ثم هي بعدُ وسائل العقل السليم لمعرفة الله وحسن الإيمان به والإفادة من دينه. إنَّ عمل العقول العليلة في آيات الوحي، هو عينه عمل الحشرات القارضة في أوراقه، عندما يدبُّ فيها البِلَى، تتلفها ولا تعرفها، وتظلمها ولا تنصفها.

وذاك سرُّ التدهور الاجتماعي بين جماهير الأميين من المسلمين وغيرهم.

وإذا ذهبنا نستقصي الدلائل على مكانة العقل في الإسلام فسنضطر إلى استعراض الإسلام كله».

غير أن الغزو الثقافي الحديث لبلادنا هجم علينا بأفكار مستغربة قد تكون مألوفة في البيئات التي وفد منها، ولكنها منكورة أشد النكر بالنسبة لما نعرف من طبيعة ديننا.

إن هذا الغزو أطلق ألوفاً من الألسنة تصيح بأن العقل شيء والدين شيء آخر.

وبديهي أن الذين يحترمون أنفسهم لن يُصيخوا إلا إلى صوت العقل، فإذا انعطفوا إلى الدين في لحظة ضعف أو فراغ فهي زَوْرة عابرة.

وانظر ما يقول أديب مشهور في صلة العقل بالدين . . وانظر أي بُعْد بين هذا الكلام وبين ما قرأت من تعاليم الإسلام.

يقول الأستاذ توفيق الحكيم[1]: «أنا أحسُّ بشعوري الداخلي أن الإنسان ليس وحده في هذا الكون، وليس من حق أحد أن يطلب إلى الإيمان تعليلاً أو دليلاً. فإما أن نشعر أو لا نشعر، وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئاً».

---

(١) أديب مصري مشهور.

«إن الذين يلجؤون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الإيمان إنما يسيئون إلى الإيمان نفسه: فالإيمان لا برهان له من خارجه».

«لكني من جهة أخرى أفكر بعقلي لا لدعم إيماني بأني لست وحدي، بل لأعرض المسألة أمام تفكيري بعيداً عن الإيمان».

هل طالعت أيها المسلم هذا اللون من الأدب أو هذا اللغو من الحديث؟

هذا أثر الغزو الصليبي لأفكارنا في هذا العصر الهازل.

وهذا كلام منقول بحروفه عن الأدب الكَنَسي المليء بالاعتذارات عما في النصرانية من نقائض ترفضها العقول.

ومثل هذا الكلام يُعلَّم للأولاد الصغار في المدارس الأجنبية بين ظهرانينا، ويُعلَّم للمبعوثين في جامعات الغرب كي يجهلوا دينهم ويقبلوا غيره!!

ويمضي الأستاذ «الحكيم» في فلسفته فيقول: «قد يقتنع العقل، وحتى إذا لم يقتنع فهو سيمضي يتصيَّد الأدلة والبراهين في نطاق عالمه المعهود».

«أما القلب فهو مقتنع بغير دليل، ولا حاجة إلى الأدلة في عالم القلب والإيمان لأن الدليل هنا مفسد للإقناع! بل إنَّ الاقتناع نفسه ليس من وظيفة القلب، لأن معناه أنه جاء بعد شك. والقلب لا يشك لأنه لا يفكر..».

لا أدري كيف أصف هذا الكلام، وكيف لم يستحِ صاحبه من نشره على القُرَّاء؟؟

إنَّ أبا الأنبياء إبراهيم طلب من ربِّه أدلة على بعث الموتى بعد أن تَبلى جسومهم وترمَّ عظامهم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فهل كان شيخ الأنبياء شاذاً حين علَّق طمأنينة قلبه على شواهد من قدرة ربه؟

ثم ما معنى أن يقول إنسان يحترم تفكيره: إنَّ الدليل يفسد الإقناع؟

وقَلْبُ مَنْ هذا الذي يقتنع بغير دليل؟ أو يجب عليه أن يقتنع بغير دليل؟ قلب عابد العجل؟ أو كاهن الخرافة؟ أو سادِن القرابين؟

اللهم إنَّ معرفتك ـ وأنتَ الفردُ الصمد ـ لا تنقدح في قلبٍ ما، إلا إذا كان قلب رجل عميق الفكرة، حصيف النظرة، يجيل عقله هنا وهناك ثم يهتف مع الذين ﴿ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

بَيْد أن أدباءنا الذين نوَّمهم الغزو الحديث لا يستحقون أن يردِّدوا هراء لا يُقصد منه هدم الإسلام فحسب، بل هدم «الإنسان» من حيث هو كائن راقٍ، كرَّمه الله في الدنيا بألوان من المشاعر والمواهب ليستفتح بها طريقاً إلى الله، وليكتنز بها زاداً إلى أُخراه.

لقد عرف العالم أنَّ الحضارة التي قادها الغرب ذات طابع خاص.

إنها لا تؤمن بالله، ولا تتبع هداه، ولا تثق في حياة أخرى؛ وهي لا تقيم العلائق بين الناس، ولا ترسم لهم أهداف الكفاح على ظهر الأرض إلا على أسس مادية محضة.

وعلَّة الزيغ الذي أصاب هذه الحضارة، أنها قامت أول أمرها في بيئة تفصل بين العقل والدين، أو بتعبير أدق في بيئة يعلن الدين فيها حرباً على العقل.

فلما انتصر العقل في هذا الكفاح نشأت مع الحضارة التي كوَّنها عقدة الزراية على الأديان جملة، والركض في أنحاء الدنيا دون تزوُّد بوحي أو احترام لإيمان.

وإذا بدا للنظر المجرد أنَّ في الغرب معابد يتردَّد عليها حيناً، فهو تردد لا يحيا به قلب، ولا تهتز به عاطفة، ولا يستقيم به سلوك.

نعم، ولكن ما سبب هذا؟

هل سببه أنَّ نشاط الدين يجب قصره على إصلاح القلب الإنساني والابتعاد به عن المجال العقلي كما يفهم السيد توفيق الحكيم؟ كلا.

إنَّ العقائد التي تخلق الفضائل الكبرى والأعمال الرفيعة يستحيل أن تولد وتترعرع بعيداً عن العقل.

وما طفحت بلاد الغرب بالشهوات المادية إلا لعجز الدين عن المواءمة بين أصوله وبديهيات الفكر الإنساني.

وإذا وَهيَ الأصل فهيهات أن يقوم فوقه بناء.

كيف يستنير القلب إذا لم يوقده شعاع من النظر الصائب والعقل السليم؟

كيف يمتلىء الصدر بالهواء إذا أغلق الأنف والفم؟

إنني أفكر أولاً في الحقائق التي تعرض عليَّ، فإذا صحَّت عندي آمنت بها. وإذا آمنت بها تحرَّك القلب بمشاعر الخشية والإجلال.

وإذا نبض القلب بروح هذا الإيمان الوافد عليه من نظر سليم، توقعتُ منه الإخلاص والتقوى والإيثار وسائر ما يَفتقر إليه عصرنا من فضائل.

أما أن تَعرض عليَّ الإيمان بشَرِكَة من الآلهة مثلاً ثم تقول لي: أغلق عينيك وعقلك وازدرد هذه الجرعة المرَّة فإنَّ الإيمان محله القلب لا العقل.

فهذه هي الخدعة الباردة مهما روَّج لها المروّجون!

ولن يكون لمثل هذا الإيمان أثر كبير في إصلاح فرد أو جماعة..

وهذا الذي تحدث عنه الأديب المشهور «توفيق الحكيم» إنما تأثر فيه خُطا صديقه الدكتور «طه حسين»[1] الذي ردَّد في بلادنا مفتريات المستشرقين على ديننا وتراثنا.

فإنَّ الدكتور ساعد في نشر الفِرْية القائلة بأنَّ الدين شيء، والعلم شيء آخر!.. واستمات في إقناع الأجيال الناشئة بهذه الخرافة «الكنسية» حتى يفقد الإسلام بهذا أبرز ما ينضِّر وجهه، ويسند حقائقه.

قال الدكتور في دفاعه عن نفسه وهو ينكر بناء إبراهيم، وإسماعيل للكعبة[2]: «فكل امرىء منا يستطيع إذا فكر قليلاً أن يجد في نفسه شخصيتين

---

(١) طه حسين: أديب مصري مشهور.

(٢) أي ينكر النصوص القاطعة الناطقة بهذا القرآن الكريم.

ممتازتين، إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلِّل وتغيِّر اليوم ما ذهبت إليه أمس، وتهدم اليوم ما بنته أمس، والأخرى شاعرة تلذّ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب، وترهب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل، وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا لا نستطيع أن نتخلص من إحداهما، فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة، وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى؟».

وقد رد الأستاذ «محمد نور» رئيس النيابة العامة مفنداً هذه المزاعم فقال: «الحقيقة أنه لا يمكن الجمع بين النقيضين في شخص واحد، في وقت واحد. . بل لا بد من أن تتخلَّى إحدى الحالتين عن الأخرى. . .».

وقد أشار الدكتور طه حسين نفسه في موضع آخر من كلامه إلى الخلاف بين العلم والدين فقال: «ليسا متفقين. . ولا سبيل إلى أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما لصاحبه عن شخصيته كلها!».

قال الأستاذ «محمد نور»: «أما توزيع الاختصاص الذي أجراه الدكتور يجعله العلم من اختصاص القوة العاقلة، والدين من اختصاص القوة الشاعرة فلسنا ندركه، والذي نفهمه أن العقل هو الأساس في العلم والدين معاً».

ونعود نحن إلى ما أكَّدناه من أن الخلاف بين العلم والدين خرافة انتقلت إلينا من أوروبا، وأن تطبيقها على الإسلام لون من السخف البالغ.

وما يُتَّهم به الدين في الشرق الأقصى، أو عواصم أوروبا وأمريكا لا يجوز نقله إلى بلادنا التي تعرف الإسلام وحده ديناً يقوم على البرهان، والتي تعرف أن ما ينكره العقل يستحيل أن يكون ديناً يأمر الله به عباده.

* * *

والقارىء المسلم يجب أن يحذر هذه الكتابات، فإن جُلَّة أدبائنا يقلدون الغرب في أفكاره، وأحكامه دون نقد أو احتياط.

ولو أنهم درسوا الإسلام بالحفاوة التي يدرسون بها أموراً أخرى لكان لهم معه شأن أكرم.

ولكنهم زاهدون في الدين الذي دَرَجوا في أمته المهزومة فهان عليهم.

على حين مُلئت قلوبهم إعجاباً بالحضارة المنتصرة، والتقاليد التي تسير في ركابها، ولو كانت هذه التقاليد أتفه ما احتوته هذه الحضارة.

بل لو كانت آفتها التي تجرُّها إلى الهاوية.

ولا يفهمن أحد أن تنويه الإسلام بالعقل وإعلاءه لقدره، يعنيان أن الإنسان ليس إلا عقلاً، يسمو فيسمو المرء به، ويخبو فيخبو معه. كلا.

إنَّ في الإنسان خليطاً ضخماً من عواطف فوَّارة لها أثر خطير في توجيه سلوكه وتوجيه حياته.

والمشاعر الوجدانية فيه تشبه أن تكون قسيماً لمشاعره العقلية.

فإذا ضبط هذه المشاعر كلها قلبٌ حيٌّ ـ أو بتعبير الأخلاقيين المحدثين ـ ضميرٌ يقظ فقد استوى على قمة الكمال.

والنبيُّ الكريم يُنَبِّه إلى هذه الحقيقة حين يقول: «التقوى ها هنا. التقوى ها هنا. التقوى ها هنا» ـ مشيراً إلى قلبه ـ.

وقال رسول الله ﷺ لوابصة بن معبد: جئتَ تسأل عن البر والإثم؟ قلت: نعم! فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري ويقول: «يا وابصة استفتِ قلبك، البرُّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب، وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

ولما كان بعض الناس يستغل علمه في الإفساد، ويعرف شناعة الإثم ومع ذلك يواقعه.

ولما كانت شهوات الغي والكبرياء قد تزيّن الإعراض عن الآيات الواضحات لمن استبانت لهم، لا لشيء إلا لأنهم جحدوا بها وقد استيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً.

لذلك حقر الإسلام العلم الذي لا ضمير معه، والعقل الذي لا يصحبه قلب سليم وعمل حكيم..

ويظهر أن هناك انفصالاً نفسياً أو ارتباكاً مرضياً في نفوس هؤلاء الذين لديهم أكوام من العلوم المخزونة ثم هم لا يفيدون منها.

رأيت مرَّة سيارة فارهة تلمع أبوابها وعجلاتها، ولكنها توقفت في الطريق لخلل في الجهاز الذي يمدها بالوقود مع كثرة البنزين فيها. فكان أن جرَّتها دابة قوية إلى حين. . !!

ذكرت مع هذا المنظر أولئك الذين تقودهم أهواؤهم الدنيا فتجرهم على الوحل جراً مع أنَّ لديهم من العدة ما يطيرون به في الجو ويقطعون به الفيح!!

هذا الفساد لا منجاة منه إلا بتصحيح القلب، وتغليب الضمير الزاكي على وساوس الرجس والانحلال.

وذلك ما قاله النبيُّ ﷺ: «ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

* * *

ولحكماء الإسلام حساسية شديدة بحركات القلوب، ولذا فهم يحرصون على سلامتها في الوقت الذي يعالجون فيه أحكاماً نظرية بحتة.

والاشتغال بالثقافة النفسية يساوق الاشتغال بالثقافة العقلية في تراثنا الأدبي العام، إلا أنَّ الانفصال بين التيارين أضرَّ إضراراً كبيراً بمناهج التربية وسير الحضارة الدينية عندنا. .

ولم يقع هذا الانفصال وتتسع شقته إلا بعد انقضاء القرون الأولى وذهاب الفقهاء الصالحين.

فجاء بعدهم من يخاطب العقل دون القلب أو القلب دون العقل، وقد لفتُّ الأنظار في مقدمة كتابي «عقيدة المسلم» إلى ما في هذا المسلك من حيف. وأكتفي بإيراد هذه النبذة: «والذي آخذه على منهج البحث في علم الكلام ـ في حدود ما درسنا من كتبه ـ أنه نظري بَحْت ينظِّم المقدِّمات، ويستخلص النتائج، كما تصنع ذلك الآلات الحاسبة في عصرنا هذا أو الموازين التي

تضبط أثقال الأجسام ثم تسجل الرقم وتقذف به للطالبين.

كذلك سارت الاستدلالات في هذا العلم الخطير، فتكلمت عن الله سبحانه وتعالى وعن صفاته الكريمة. وانتهت إلى حقائق جيدة يستريح إليها العقل الحصيف، بيد أن الإسلام في تكوينه للعقيدة يخاطب العقل والقلب، ويستثير العاطفة والفكر، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظه للقوى الذهنية.

وقد كنت أرقب عن كثب ما تخلفه دروس «التوحيد» من كتبه المقررة فما كنت أجد فارقاً يذكر لدى السامعين بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلا!!

كلاهما ترويض للعقل مبتوت الصلة بالفؤاد!!

فكان الطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم «الواجب الوجود» ولا يستشعر في قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال، أو يختلج في بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة نحو من سوَّاه، وألهمه فجوره وتقواه..

أفهكذا تدرس العقيدة؟

وقد فزع العامة إلى علوم التصوف يستكملون منها ما عزَّ عليهم إدراكه في علم «الكلام»، لكن التصوف ميدانٌ كثير المزالق، وشطحات للسائرين فيه أكثر من سدادهم!.

ولا شك أن هذا العلم أنعش عاطفة الحبّ الإلهي. وربط قلوب الناس ربطاً رقيقاً ببديع السموات والأرض، إلا أن مخاطر الشغل به تجعلنا نتوجس منه، وقد حاولت في أثناء الكتابة عن «عقيدة المسلم» أن أرطِّب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية، ولم أتكلف لذلك إلا أن جعلت نصوص الكتاب والسنة نصب عيني».

وأحسب التوفيق حالفني في هذا المنهج، وأحسب كذلك أن ما آخذت به علماء «الكلام» جاء من إسرافهم ـ أو بتعبير أدق ـ من انحصارهم في النطاق العقلي الدقيق الذي يفرضه الإسلام على أصوله.

فقد علمتَ أن الإسلام يجعل العقل حَكَماً في أصول العقيدة، فما حكم

العقل باستحالته وجب رفضه، وما اطمأن إلى صدق أدلته وجب التسليم به.

إنَّ هذه المغالاة بقيمة العقل جعلت علماءنا يسيرون معه حيث سار، لا في شؤون العقيدة فحسب، بل في سائر فروع الشريعة، حاشا العبادات المحضة..!!

إلا أن هذه المغالاة لا تنسينا بقية الملكات الأدبية التي زوَّد بها الله أبناء آدم، وأشار في قرآنه إلى ضرورة تزكيتها وتنميتها.. وهذا هو ما استدركناه عليهم.

وقرأت أخيراً مقالاً للأستاذ «عبد الكريم الخطيب» عن «التعقيد في العقيدة» وقفتني فيه بعض العبارات. فقد أبدى الملاحظة نفسها التي أبديناها آنفاً على علماء الكلام إلا أنه في سبيل وصل الإيمان بالعاطفة ندَّد أو كاد بأساليب الاستدلال العقلي في إقامة العقيدة وحراستها، وزعم أن مجال الدين في إثبات حقائقه غير مجال العلم في إثبات حقائقه. الأول أساسه القلب والأخر أساسه العقل، وإليك طرفاً من حديثه تستبين منه ما يريد:

«المنهج[1] الذي سلكه علماء المسلمين في دراسة الشريعة الإسلامية، والوقوف على تعاليمها وأحكامها، منهج علمي قائم على استخدام الملكات العقلية استخداماً عنيفاً مرهقاً، لا هوادة فيه، فهو يدفع بالعقل دفعاً إلى النظر والبحث في أصول العقيدة الإسلامية، وفي أحكام الشريعة وأسرارها، وهو لهذا يديم النظر، ويطيل الوقوف، ويكثر من الافتراضات والتخيلات عند كل مسألة من مسائل هذا الدين حتى تستتمّ قواعد البحث العلمي الخاص، وتستقيم على منطقه.

ومثل هذا المنهج من البحث جدير بالاحترام والتقدير حين يراد به العلم للعلم، وحين يطلب به الكشف عن حقائق الأشياء، والوصول إلى أسرار

(١) نشرت مجلة منبر الإسلام هذا الرأي قبل أن يصدر الحكيم كتابه «التعادلية» ويضمّنه آراءه سالفة الذكر.

الكون، فإن هذا هو الصميم من رسالة العقل، وهو سبيل الإنسانية الكريمة الواعية التي تنشد العزة والقوة، وتطلب الترقي والكمال.

أما أن يُسلك هذا المسلك في مجال الدين. ووصل الخلق بالخالق، فذلك ما تأباه طبيعة الدين ـ أي دين ـ وهذا الدين الحنيف على وجه خاص!!.

فالدين يقوم أولاً وقبل كل شيء على إثارة العاطفة وإشباعها، قبل أن يقوم على إيقاظ العقل وإقناعه.. ولن تجد العاطفة في هذه الدراسات العقلية الجافة شيئاً يثيرها ويهزُّ جوانبها، وإنما تغتذي العواطف من هذه الينابيع الثرة الصافية التي تتسرَّب إليها من وراء النظرات العميقة الحالمة في رحاب هذا الكون العظيم، وما يزخر به من ألوان الجمال والحسن، وما يشتمل عليه من آيات العظمة والجلال».

ونقول: إنَّ في هذا الكلام شبهاً مما قاله الأستاذ «توفيق الحكيم»، وترديداً للنغمة التي تباعد بين الإيمان والمهاد العقلي الذي يجب له قبل أي شيء آخر، والفرق بين الرأيين أن الأستاذ الحكيم يقيم حجاباً بين الدين والعقل، فكلاهما يغاير الآخر في نظره. وأما الأستاذ الخطيب فيقيم الدين على المشاعر الوجدانية والنظرات الحالمة أولاً.. ثم يجيء دور العقل أخيراً ليستيقظ بعد أن استيقظ من قبله الفؤاد المفعم باليقين.

ولك أن تسأل: فإذا استيقظ الفكر الغافي، فوجد نفسه أمام قلب آمن بالخرافة وخدعته الأوهام فما عساه يفعل؟

أينام على الضلال أم يطرد هذا الجهل المغير؟

إنَّ الواجب المنوط بالعقل أن يمحص كل ما يعرض عليه من أفكار وآراء، فهو مصفاة تمنع القذى أن يرسب في النفس، وتأذن بمرور ما اقتنع به فقط.

ومن ثم فنحن نرفض رفضاً باتاً كل موقف يشل سلطان العقل عن النفاذ، أو يؤخِّر ترتيبه ليقدم عليه غيره ـ كما فعل الأستاذ الخطيب ـ وهذا بداهة لا يعني إغفال القلب الإنساني أو قبول ما يبخسه حقه.

وقد قرأت نقدنا لقيام علم الكلام في معزل عنه.

ثم نحن ننكر ما يقوله الأستاذ الخطيب من أن هناك منهجاً للبحث العلمي ومنهجاً للبحث الديني، فإنَّ نشدان الحقيقة يعتمد على منطق واحد، غايته العليا الوصول إلى اليقين، اليقين الذي تنتفي معه الظنون والهواجس وسائر الفروض التي يختلقها العقل ليتأدى منها إلى فرض واحد لا محيص عنه.

وهو الفرض الذي تظاهره الأدلة الحاسمة.

* * *

إنَّ مظاهر النشاط الأدبي في كل أمة، وفي أية حضارة تتشعب إلى مجالين: مجال الآداب والفنون وما إليها، ومجال العلوم الكونية والحيوية.

ويتميز المجال الأول بشيوع العواطف والأفكار الخاصة في إنتاجه، وانطلاق الأدباء والشعراء والفلاسفة في أوديته الفسيحة.

كل يهيم وراء ما يعتقد أو يهوى أو يحدس.

أما المجال الآخر فإنَّ العقل يخطو فيه بقدر، ويتحسس طريقه بين صخور الواقع الجاثم هنا وهناك لا يمكن نكرانه.

والمعارف التي ينتهي إليها العقل في هذا المجال خاضعة لضوابط صارمة من القواعد المنطقية المحكمة.

والبشر لا غنى لهم عن جو أدبي يصيبون المتعة في فسحته، كما أنه لا غنى لهم عن جو عقلي يصرِّفون أمورهم على حكمته.

فالإنسان كائن له عقله الدقيق وله عاطفته السائحة.

ونحن ـ إذ نريد وصله بالإيمان وربطه بدين الله ـ نتساءل:

ـ هل نضع الدين وتعاليمه بين الشعر والغناء والموسيقى وأخيلة الأدباء ومقالات الكاتبين؟.

ـ أم نضعه في المجال الآخر بين علوم الكون والحياة وما يلتحق بها من معارف تشريعية واجتماعية وخلقية؟.

أم نوزعه على المجالين ليأخذ من كلٍّ بسبب؟.

إنَّ تحديد الوضع لا يهمني بقدر ما يهمني إعزاز الإيمان، وإحكام صلته

بأوضح حقائق الحياة، ونفي ما يظن به من أنه أغنية محزون أو مسلاة فارغ، أو انفعال شاعر.

وثمَّ أمر آخر، إن المسلمين الآن متأخرون عقلياً تأخراً يبعث على المعرَّة والخزي.

فكل تهوين من آثار اليقظة العقلية ـ بزعم أن الإيمان لا يعتمد عليها أو لا يحتاج إليها ـ هو ضرب من الفوضى ينطلق خطأ أو عمداً في طريق نهضتنا الحاضرة. وهذا ما نفزع له، فإن العراقيل التي توضع في طريقنا كثيرة لا نحتاج معها إلى عبء جديد.

مَعَ الفِكْرِ المُؤْمِن

في الحضارة الحديثة جوانب لا أجد بداً من احترامها وتزكيتها، بل أجدني مسوقاً بدوافع من ديني إلى الإعجاب بها، والتملي منها.

وأبرز هذه الجوانب إدمان النظر في الكون والبحث عن خواص الأشياء، والتعرف على القوانين الدقيقة التي تسير عليها الحياة، وانتهاج خطة بعيدة عن الحدس والتخمين في تقرير شتى الحقائق.

إنَّ أي حضارة تقترب من الفطرة في بعض نواحيها، أشعر باقترابها من طبيعة الإسلام في هذا البعض. . . ولو كانت غريبة عني.

وإنَّ أي حضارة تجنح إلى التكلف أو التخرص أشعر بانحرافها عن ديني ولو كانت قريبة مني.

وفي تراثنا الثقافي كتابات عن عالم الغيب لم تعتمد على الوحي.

وكتابات عن عالم الشهادة لم تعتمد على التجربة والاستقراء.

كلتا الكتابتين واهية العلاقة بخطة القرآن في تكوين المعرفة الصحيحة.

فالمعرفة المادية لا سبيل لها إلا النظر الصائب في الكون وأسراره وقواه.

وصلة الإنسان بربه أو بأخيه الإنسان لا سبيل لها إلا توقيف الشارع الحكيم.

ومعنى هذا أنَّ: علوم الطبيعة، والكيمياء، والفلك، والنبات، والحيوان، والطب والهندسة وما إلى ذلك. . تقوم على استقصاء الحقائق من الواقع وحده، ولا مكان لفروض وهمية أو أوصاف شاعرية، أو حدود تقليدية، أو سلطات استبدادية.

المجال للعقل الدؤوب، يداوم النظر ويتابع الجهد حتى يصل إلى ما يبغي دون ما قيد. وإني لأقرر في غير تحرج: أني كنت أطالع بعض البحوث العلمية

التي هديت إليها الحضارة الحديثة، فأشعر كأنَّ مؤلفي هذه البحوث، كانوا يستجيبون ـ سواء شعروا أم لم يشعروا ـ لقوله تعالى:
﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

إنه نداء الفطرة الإنسانية على كل حال.

وقد صمَّ عن هذا النداء من فتحوا عيونهم دون تدبر، أو من استعملوا ذكاءهم في بحوث ما وراء المادة، فعادوا منها بقبض الريح، أو من كتبوا في المادة نفسها فشطحوا مع الخرافات، ونظروا في كل شيء إلا في الكون وآفاقه والعناصر وخصائصها.

إنَّ القرآن الكريم جعل مَجَالَيْ الطبيعة مدارس الإيمان، وكلما استكثر المرء من حصيلة المعرفة الكونية ربا يقينه، وزادت بالله معرفته.

وإنك لتعرف الذكي بآثاره العملية، ولا تفكر في معرفة ذكائه بالكشف على تلافيف مخه.

فإذا كان التعرف على قدر إنسان تُبصره لا يتم إلا بهذا الأسلوب فكيف بالتعرف على من ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

إنَّ ذلك لا يتم إلا بالتأمل في آثاره، ومطالعة صفاته في أرجاء خلقه الوسيع.

ولعل درساً في وظائف الأعضاء، أو في دوران الأفلاك، يكون أنجع في غرس الإيمان وأدنى إلى التعريف بعظمة الله من بعض القراءات النظرية، أو المقدمات الجدلية.

في الأيام الماضية مرت بي لحظتان مضيئتان:

* أولاهما: في إحدى الحدائق وقد علقت عيني بزهرة لما يكمل تفتحها.. كانت دقيقة من أسفلها، مستعرضة من أعلاها، والغلاف الأخضر منحسر عن أغلبها.

إنها توشك ـ لو بقيت على ساقها يومين ـ أن تبرز بأوراقها وألوانها جميعاً.

لكنـي تعجلت فض الملفـوف من كمـها، لأقـف مـشدوهاً أمام ما بدا لي منها.

كانت الأصباغ زاهية كأنما وضع المصور ريشته الآن من رسمها، وكانت هذه الأصباغ موزعة في نقوش تبرق جدتها، ويستغرب المرء من أن الألوان المتناقضة المتجاورة لم يسح شيء منها على الآخر.

ونظرت إلى الأرض السبخة الهامدة، وإلى الفلاح الساذج فوقها، وقلت: مَنْ أبدعَ هذه الزخارف الرائقة واستخرجها من بين هذه الأكوام؟ من؟.

وانسابَ إلى قلبي شعورٌ بالجمال الإلهي المتأنّق في ألوف مؤلفة من الأزهار والأثمار تزحم القارات الخمس ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ ﴾ [ق: ٧ - ١٠].

* أما المحطة الأخرى: فعلى شاطىء البحر الأبيض في ليلة من ليالي العمل. . . أرسلت طرفي إلى البحر الهادر، وكنت أسمع ثوران الموج ولا أرى مدَّه، والماء في لون الحبر، والأفق معتكر في أبعاد غير متناهية.

ولم يجرِ في خاطري قول العقاد الشاعر:

ولهـذا الظـلام خيـر مـن النـور إذا كنـت لا تـرى وجـه حـر

ذلك لأني لم أكُ مهتماً بأحوال البشر وقتئذ، فإن طنين الموج المستمر بقوى لا تنهد مع مضي الوقت جعلني أتساءل: أما لهذا الحراك من توقف؟

وكان الجواب مزيداً من الهدير القادم من بعيد! . . . كلما تلاشى على رمال الشط حل محله آخر، وهكذا دواليك.

إنَّ البحر أضعاف اليابس على ظهر الأرض، وهذا الخلق العجيب عالم وحده.

وغلبني الكرى قليلاً ثم عاودتني اليقظة ـ أو الأرق ـ والموج الموَّار لا يزال يزأر.

إنَّ الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وكَّل إلى شعاع من قدرته أن يهز هذا الركام الهائل من المياه هزاً يشمل المشارق والمغارب في الرقعة المنداحة التي نسميها نحن بحاراً ومحيطات . . وسواء غفونا أم صحونا فعمل القدرة ماض في طريقه، ينتبه إليه بين الحين والحين أولو الألباب ليسبحوا بحمد الله الكبير.

* * *

قد يقال: إن حضارة الغرب التفتت بالفعل إلى الكون الكبير، واكتشفت من أسراره ما فات القرون الأولى.

ولكن اهتمامها بالكون كان لارتفاقها منه، وانتفاعها به، لا لتتزود منه باليقين الواجب والإيمان المبرور!!

وفي هذا الكلام قدر من الصحة غير منكور . . فإنَّ عبادة الحياة هي الدين الشائع في الحضارة الحديثة، تستوي في ذلك: أحزاب الميسرة المجاهرة بإلحادها، وأحزاب الميمنة المخافتة به. والغرض من البحث الكوني الذي طلبه القرآن الانتقال من الكون إلى المكوِّن، ومن المخلوق إلى الخالق.

وشتان بين منهجين: أحدهما يتعرَّف إلى الله في أرجاء العالم الذي أبدعه، والآخر يتعرَّف على أسرار العالم، ويحتبس داخلها فلا يعرف ربه.

والحضارة الحديثة يمكن أن تدان من هذا الجانب، بَيْد أن الأمر يحتاج إلى قليل من التفصيل، ومن يدري؟ ربما كان أهل الإيمان هم الذين يدانون قبل غيرهم عندما تحدد التبعات وتنصب موازين العدالة . . . !!

عندئذ يعرف أن السبب الأكبر في شيوع الإلحاد، وهجر الدين، هو تصرف جمهور المتدينين وتفكيرهم.

ما الذي يجعل الحضارة الحديثة ـ كما نطلب ـ تغالي بالإيمان وتتحمس للرحمن؟

* إذا نظرنا للمسيحية التي تسود الغرب وجدناها قبلت من الإضافات

والبدع ما يستحيل على العقل البشري قبوله.

ومن حق هذا العقل أن يرفض النقائص ويعتزل دعاتها ويسير بعيداً عنهما. والحضارة الحديثة في خصومتها للمسيحية معذورة.

* وإذا نظرنا للإسلام وجدنا أهله أبعد الناس عنه، ومن حق الأحياء أن يطرحوا ديناً زهد فيه أهله أنفسهم.

إنَّ المسلمين مع تقصيرهم في جَنْب الإسلام علماً وعملاً يلاحظ عليهم من قديم الزمان تناقض غريب، فهم مؤمنون ـ دون خلاف ـ بعموم الرسالة الإسلامية، وأنَّ محمداً رحمة للعالمين، وأنَّ دعوته تحيط بالقارات الخمس.

ومع ذلك فإنَّ سياستهم العلمية جعلت الإسلام رسالةً عربية وحسب.

فهم لم يحسنوا تمكين الروابط الثقافية بين الأجناس الداخلة في الإسلام، ولا بين الأجناس التي لم تدخل فيه.

ومن الغفلة تعريب البشر كلهم ليسلموا إسلاماً كاملاً.

ومن الغفلة أيضاً ترك الأعاجم يتعلمون الإسلام عن طريق تراجم لم يشرف عليها الدعاة العرب.

والمعروف أنَّ العرب لا يزيدون عن خمس المسلمين، وأنَّ المسلمين جميعاً لا يبلغون خمس سكان الأرض.

فماذا صنع الجهاز الإسلامي الذي يعرِّف عموم الرسالة الإسلامية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؟

ماذا صنع ليربط المسلمين بدينهم وليعطي عن المسلمين فكرة صحيحة عن الإسلام؟

* * *

إننا لا نقول هذا الكلام اعتذاراً عن شرود الحضارة الحديثة، ولكنا نقوله اعترافاً بقصورنا، ووخزاً للضمائر التي راحت في نوم طويل.

على أن حقائق الإيمان ألصق بالفطرة، وأقرب إلى التناول من أن يعتذر

عنها بتقصير الدعاة، خصوصاً بالنسبة إلى مدنية بلغت مكانةً مرموقة من التقدم كمدنية العصر الحديث.

والواقع أنَّ شيوع الإلحاد، وانتشار التحلل يرجعان إلى أسباب أخرى غير تفريط أصحاب الدين.

*** من بين هذه الأسباب: الغرور بالقليل من المعرفة، والتذرع به إلى الزيغ.**

وجمهرة المنكرين للدين من هذا القبيل، فهم يعرفون أبواباً معينة من العلوم المادية أو النظرية يبنون عليها كفرهم.

ويجهلون أبواباً أخرى أكثر وأخطر لو أدركوها لردتهم إلى الله تائبين.

ومعظم الذين قابلناهم أو قرأنا لهم من أولئك الشاكين، نعتبرهم أنصاف متعلمين مهما بلغت دعاواهم؟

*** ومن بين هذه الأسباب غلبة الشهوات العاجلة من نفسية وبدنية.**

فإنَّ سيطرة الشهوات على أصحابها تجعلهم يحكمون بالهوى لا بالعقل، وبالجور لا بالعدل.

وقديماً كفر بنو إسرائيل بمحمد تمشياً مع هذه النزعة لا لغموض الدليل أو خفاء الدعوى.

﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقد أشبه اليهود عدوهم فرعون الذي كفر بموسى هو وملؤه ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

والبشر هم البشر في كل زمان ومكان، لا يزال فيهم من يحارب الحق وهو يعرفه لشهوات تحكمت فيه واستبدت به.

لقد شقَّ الفكر الإسلامي الأول طريقه إلى الحياة والسيادة بقوة رائعة أمكنته أن يتشعب مع النشاط الإنساني دون كلال.

ونستطيع القول بأنه ترك في الحضارة العالمية آثاراً خالدة.

بل إننا ـ من غير تعصب ـ نقرر: أنَّ الحرية العقلية ولدت أولاً في «القاهرة» و «دمشق» و «القدس» و «بغداد» و «مراكش»، قبل أن تولد في «لندن» و«باريس» و«برلين» و«روما».

وأنَّ الصليبيين الأقدمين عادوا إلى بلادهم بهذه الحرية العقلية المجلوبة من الشرق، ليغسلوا بها أوضارهم، ويجددوا حياتهم، ويتخلصوا من قيود هائلة، لو بقوا بها ما نالوا قط قسطاً من تقدم أو رخاء.

إنَّ التفكير النيِّر الخيِّر تألَّق في بلادنا دهراً طويلاً. واستطاع في ميدان التشريع والتربية وفي آفاق الحياة العامة أن يصنع العجائب.

ومن المؤسف أنَّ هذا التفكير الخِصْب قد احتبس تياره مع إغلاق باب الاجتهاد في الفقه، ومع الانحراف الذي وفدت به علينا فلسفة اليونان وغيرها.

لكن هذه العوائق العارضة لا تبخسه حقه الأصيل ولا قدرته على صنع مستقبل زاهر. كيف وهو مرتكز على الفطرة الراشدة والعقل الحر؟

إنَّ عظمة التفكير الإسلامي تقوم على أنه يقدِّم للعالم إيماناً يعمر الدنيا، ويمهد للأخرى، ويعد الوجود الأول والأخير وحدة كاملة.

ولا نريد في هذه العجالة.. التحدث في فكر العقيدة والشريعة الذي ألفه الناس، بل نريد الإشارة السريعة إلى فكر الحياة نفسها، الذي يظن البعض أن المسلمين تخلفوا فيه، لأنه ينظر إلى أحوال المسلمين فيظنهم الصورة المثلى لتعاليم الإسلام.

يقول الأستاذ المستشار «عبد الحليم الجندي» في كتابه: «توحيد الأمة العربية» تحت عنوان «ألف عام من العلوم التطبيقية والفنية.. والرفاهية» واصفاً المجتمع الإسلامي القديم:

«وفي هذا المجتمع ازدهرت حضارة علمية أساسها العلوم التطبيقية البحتة، والهندسة المعمارية، والصناعات، والعلوم الاجتماعية، تعتبر الأولى من نوعها في التاريخ، صبغت المدنية بصبغة علمية وتجريبية تقوم على: العلوم والفلك والطب والهندسة البحرية وما إليها..

وفي حين كانت حضارة اليونان حضارة فلسفية، ضعيفة الصلة بالواقع، وكانت حضارة الرومان حضارة مادية تقوم على القوة العسكرية أو على النظم الشكلية، كانت الحضارة العربية أول حضارة تقوم على العلوم والحريات - وهي التي أورثت الحضارة المعاصرة الكشوف العلمية والمنطق العلمي الذي استمرت به في كشف أسرار الطبيعة. ولم تكد تظهر رسالة الإسلام، حتى تفردت العلوم الإنسانية بالوجود الإنساني نحواً من ألف عام تهذبه وتهديه».

ويقول: «وانطلق العرب بأفكارهم في مهاب الرياح الأربع حتى أصبحوا كما يقول«راندل» يمثلون الطراز الفكري العلمي في الحياة العملية الصناعية، التي تضفي مثلها الآن على ألمانيا الحديثة. وعلى عكس الإغريق، لم ينصرفوا عن الاختبار المعملي والسير عليه في مجال الطب وعلوم الآليات.

وفي التحقيقات الفنية يلوح أنهم أخضعوا العلم لخدمة الحياة الإنسانية مباشرة.

لقد ورثت عنها أوروبا روح «بيكون» التي ترمي إلى مد سلطة الإنسان على الطبيعة، وتداولت العلوم العربية جامعات «مونبيليه» و«باريس» و«أكسفورد» و«فينسيا» و«بادوا» و«فيرارا»، و«باري»، وأنشأ الإمبراطور «فردريك الثاني» في القرن الثالث عشر جامعة في «نابولي» لنقل العلوم العربية. واليوم تشهد في «باريس» صورتي (الرازي وابن سينا) على حوائط كلية الطب، وأثر المساهمة التي شارك بها المهندسون العرب في بناء كنيسة نوتردام «في باريس». كما تشهد الكتابة الكوفية والعربية في النقوش الإنجليزية وأبواب الزخرفة والمعمار العربية في مناطق كثيرة في أوروبا.

.. إن الصيدلية علم عربي، والكيمياء علم عربي، والفلك والطب والميكانيكا والرياضيات والطبيعة والجغرافيا، ما تزال تحمل الأسماء العربية الفصحى، هكذا ساد الروح العلمي الأمة العربية. وقال «ديورانت»: ربما ملك الصاحب ابن عباد من الكتب في القرن العاشر ما يقدر حينئذ بما كان في مكتبات أوروبا مجتمعة. وكنت تجد في ألف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمرقند، علماء لا يحصيهم العدد، كانت تدوي أركانها بفصاحتهم.

ويقول المؤرخ الفرنسي «روبير بريفو»: «كانت أوروبا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر تتجه إلى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم وفنون وخاصة بالملاحة، منقِّبة عن كشوفهم في علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء، وكانت تبحث عندهم عن آثار أرسطو وابن سينا وابن رشد، وكان علماؤها من أمثال . . يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم. ووجد «ريجيو مونتاوس» عندهم المعارف التي مكّنت هنري الملاح وفاسكو دي غاما -مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ـ وكرستوف كولومبوس ـ مكتشف أمريكا ـ من ارتياد المحيطات والوصول إلى أطراف العالم، وعثر «دي باث» في قرطبة على النسخة الوحيدة في العالم من مخطوط «أوسيليد» الذي ظل يلقن للطلبة في مدارس أوروبا حتى سنة ١٥٣٣، وطاف كل من أفلاطون لوبيزون وفيبارناس أرجاء أسبانيا ليتزودوا بالعلوم الرياضية لا سيما الجبر والتقويم واللوغاريتم.

بل إن الكنيسة نفسها التجأت إلى العرب لتجد عندهم ما يعينها على إقامة صرح الفكر المدرسي. وبحث كل من «البير الأكبر» و «توماس الأكويني» عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها في بلنسية عند الفارابي، وفي الوقت الذي أنشد فيه الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة أسبانيا العربية صرح ـ روجير بيكون ـ في أكسفورد (انجلترا) بأن وجود الفكر الأوربي والعلم الأوربي كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية ـ لقد دعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون. وهي مدينة للعرب بكل تقدمها».

ترى . . أيعرف المسلمون قدرهم؟ . . ويستأنفون أداء رسالتهم؟

إنَّ ذلك ما نرجوه . . وما يفتقر إليه العالم الآن . . ؟

* * *

مفهوم «الدين» كما يشيع في أذهان المعاصرين أنه علاقة مبهمة بقوى الغيب تجعل لصاحبها مسلكاً لا يضبطه المنطق، ولا يتحكم فيه العقل!!

إنه انفعال نفسي يصبغ الوجدان بمشاعر الولاء لمجهول أو لمعلوم.

ويسير السلوك في طريق مليء بالمراسم العسيرة الفهم أو القريبة الفهم، ويجعل الشخص في أحكامه على القضايا العارضة كثير الشطحات، غير مقيَّد بالأسباب الظاهرة والمقدمات الملموسة.

وهذا المفهوم «للدين» وافدٌ من خارج الأقطار الإسلامية كلها، لم تعرفه ثقافتنا القديمة ولا الحديثة، وإنما نقله بعض المتأثرين بالآداب الغربية وما شابهها.

وحدث أن أحرجني أحد هؤلاء في نقاش عابر دار بيننا حول «مشكلة زيادة النسل» في مصر والعالم أجمع.

قلت له ـ وأنا خالي البال ـ: إن الذي خلق الأرض قدَّر فيها أقواتها، فلن تبرز إلى الوجود نسمة لتواجه الضياع أبداً.

فأجابني متهكماً: لعلك ممن يقولون: ﴿وفي السماءِ رِزقُكُم وَما تُوعَدون﴾!

فشعرتُ بغضب جارف وقلت له: إنني وفق التفكير المادي البحت أرسل هذا الحكم، وأنا أدري متانة ركائزه العقلية.

. . إنَّ البشر يجمِّدون أغلب حصيلة الأرض في إعداد أسلحة الدمار، ولو أنفقوا أثمان هذا السلاح في موارد التغذية لكفت ضعف عددهم الآن.

وذلك ما يحدث في الجانب الذكي من الأرض.

أما في الجانب القاعد اللاغي، ففي الوطن العربي وحده مائة مليون فدان لم تزرع بعد.

أضاعها أنصاف العقلاء أمثالكم ممن قصرت هممهم عن السعي، وطالت ألسنتهم في الإيمان وأهله.

ثم استطردت أقول له: إنني مسلم أربط فكري بالحقائق، وأعتمد في أحكامي على العقل الدقيق.

وتصورك أنني «غيبي» أذهل عن الواقع، وبالتالي أعجز عن حل مشاكله لأني «متدين»ـ والتدين عاطفة تسبح مع الخيال، وتسرح مع الوهم، وتتعلق بالمجهول ـ هذا التصور بعض ما تركه الغزو الثقافي لهذه البلاد المحروبة.

إنَّ من دان بالإسلام يجب أن يوقظ فكره إن كان غافياً، وأن يحركه إن كان ساكناً.

فالإيمان لا يصح مع عقل وَسْنان، ولا يربو مع تفكير آسن خامد.

بالعقل عرفنا الله ووثَّقنا به رباطنا.

وبالعقل توكلنا عليه واستندنا إليه فيما ينوبنا.

هَبْ أننا في صراع مع الأعداء مجهول النتائج، فأيُّ ضَيْر في أن ننتظر من خالق الكون أن يؤيدنا، وأن يكمل بقواه ما نبذل من طاقتنا.

إنَّ الإيمان بالغيب من نصر، أو رزق، حقيقة لا وهم.

وإذا كان الماديون يظنون أنَّ الوجود هو المادة وحدها، فنحن نستحمقهم في هذا الظن، ونوقنُ بأن المادة تستمد وجودها من الخالق الأعلى.

وهذا اليقين وليد براهين حاسمة، لا وليد حدس مريض كما هي الحال عند جمهرة الملحدين.

ليس الدين بعض المشاعر الوجدانية الرجراجة كما يتخيَّل نفرٌ من الناس في بلادنا صنعهم الغزو الثقافي.

.. إنما هو مواهب الإنسان في أرقى وأزكى أحوالها.

هو العقل الحصيف الذكي، والقلب السليم المستقيم، والسيرة العفة النبيلة، والاستعداد بالجسم والروح لملاقاة خالق الجسم والروح، بعد الفترة التي نقضيها في هذه الحياة.

وفي علاقة الإسلام بالعقل يسرنا أن نضمن كتابنا هذا بحثاً نفيساً(1) للأستاذ الشيخ «نديم الجسر» مفتي لبنان الشمالي قال فيه:

«نوطىء للبحث بطرح السؤال الآتي:

ما هي أعظم مزية يمتاز بها دين الإسلام عن الأديان السماوية الأخرى؟

لا ريب عند المسلم في أن الأديان السماوية كلها من عند الله، ولا ريب

---

(1) من محاضرة فضيلته في نقابة المعلمين بالقاهرة.

عند العاقل أن هذه الأديان السماوية الثلاثة القائمة اليوم على الأرض هي في أصلها الذي أنزله الله تتلاقى جميعاً على كل معاني الحق والخير بلا أدنى خلاف.

فالتفاضل بين دين سماوي ودين سماوي إنما هو تفاضل بالكم والكيف لا في الجوهر، وهو كالتفاضل الذي يكون بين قانونين أرضيين وضعتهما الدولة في فترتين مختلفتين، ولكن كان أولهما مختصراً قليل المواد وكان الثاني مطولاً كثير المواد. بل الأصح أن نقول: كان أولهما بسيطاً يسرد المواد من غير أن يتبسط بذكر المبادىء والأسباب الموجبة التي يرتكز عليها القانون، والثاني يضع إلى جانب المواد الأساسية التي يرتكز عليها القانون، جملاً مفصلة، ويفتح باب الفهم العميق لكل مادة من هذا القانون، كما يفتح باب الاستنباط لكل مادة إضافية تقضي الحاجة أو الضرورة بوضعها في المستقبل.

هكذا كان شأن الإسلام بين الأديان السماوية الأخرى، وبهذا قضت حكمة الله حين أنزل هذه الشريعة الخاتمة الكاملة التي أكد سبحانه كمالها بقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

ذلك أن الإنسان، كما قلت في كلمتي أمام مجمع البحوث عن «فلسفة الحرية في الإسلام» قد خُلق، بحكمة الله البالغة، وهو يحمل في باطنه رغبتين:

* رغبة الغرائز التي خلقها الله فيه ليعيش وينتصر في معركة البقاء.

* ورغبة العقل الذي خلقه الله فيه ليدرك «الحق» إدراكاً واضحاً يتم له به الإيمان بالله وعبادته، ويتاح له به أن يتحكم في تلك الغرائز، ويلجمها حتى لا تجمح وتتعدى حدود الحق والخير. ذلك أنَّ هذه الغرائز التي سُلح بها الفرد لخيره وخير المجتمع تنقلب إلى شرٍّ مستطير على الفرد والجماعة حين تُترك مطلقةً جامحة لا يقيدها العقل بقيد الحكمة: فتصبح:

* غريزة البحث عن الطعام: شرهاً وبطنة!..

* وغريزة الإنسال: زنى وفسقاً وعدواناً!..

* وغريزة الادخار والاقتناء: طمعاً وشحاً وسرقة!..

* وغريزة حب الظهور والسيطرة: خيلاء وكبْراً واستبداداً!..

* وغريزة الغضب والمقاتلة: جنوناً وسفكاً للدماء بدلاً من الدفاع عن النفس والحق والوطن!..

* وغريزة حب الاستطلاع: تجسساً وبحثاً دنيئاً عن عيوب الناس!.

ولكن العقل في معركته مع الغرائز لم يكن دائماً هو الظافر. لأن الغرائز تُخلق في الإنسان كاملة بكل قوتها، ومتساوية في الأفراد، بينما العقل يتكامل تدريجياً مع التجارب التي يمرُّ بها الفرد وتمرُّ بها المجتمعات، ولذلك لا تتحقق فيه المساواة بين الأفراد والأجيال، فكان لا بد من اختلاف العقول قوة وضعفاً، ولا بد من اختلاف الآراء سداداً وأفناً، وكان لا بد من عون السماء.

ولما كانت الإنسانية في عصورها الأولى غير مستعدة، بعقولها وتجاربها لإدراك حدود الحق والخير إدراكاً كاملاً، كان الوحي يتولى هذا التحديد بأوامره ونواهيه على لسان الرسل فترة بعد أخرى.

ولما بلغ عقل الإنسانية في التطور والتكامل الحد الذي تستطيع معه أن تعتمد على فكرها في معرفة الحق والخير، أنزل الله آخر كتبه على آخر رسله، بشريعة كاملة، لا من حيث إنها وضعت لكل جزئية من جزئيات الحياة حكماً خاصاً، فهذا لا يمكن إذ أنَّ أحداث الحياة في تجدُّد مستمر، والله سبحانه أحكم من أن يخاطب الناس بحكم في أمور لا يعرفونها، ولكن هي شريعة كاملة من حيث إنها تنطوي على أسس ومبادىء أصلية تصلح أن تكون منبعاً للأحكام التي يمكن استنباطها في المستقبل وتقدرنا على مواجهة وقائع جديدة لم ينزل بها أيُّ نص صريح.

والآن نعود إلى السؤال:

ما هي أعظم مزية يمتاز بها دين الإسلام عن غيره من الأديان السماوية الأخرى؟

* ربَّ مجيب منكم يرى أن هذا الذي ذكرناه (من وضع المبادىء الأساسية التي تتفرع عنها الأحكام الجزئية المنصوص عليها وغير المنصوص عليها) هو المزية العظمى لدين الإسلام.

ولكن هذه المزية، مع كونها من أعظم مزايا الإسلام، ليست أعظمها على الإطلاق.

ففي القانون الروماني فتاوى بمثابة قواعد وإن لم تكن شاملة أو جامعة أو محيطة بكل أمر كما هي المبادىء الأساسية في الإسلام، إلا أنها ـ أي الرومانية ـ على كل، قواعد يرجعون إليها في تفسير بعض المواد وزيادة بعض المواد الجديدة.

* ورُبَّ قائل يرى أن أعظم مزية للإسلام هو التوحيد المطلق المبرأ من كل شوائب الشِّرك الخفي والجلي... وجواب هذا أن الأديان السماوية الصحيحة كلها مبنية، في أصلها، على التوحيد بداهة لأنها من عند الله، والله واحد فرد صمد.

* ورُبَّ قائل يقول ـ أخذاً بظاهر الحصر في قوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ـ إنَّ المزية العظمى للإسلام أنه أكمل وأتمَّ مكارم الأخلاق. ولكن هذا الإتمام، على جلالة قدره، ليس أعظم المزايا. فمكارم الأخلاق موجودة في كل الأديان والإسلام قد أتمها.

وقوله ﷺ: «إنما» لا يراد به الحصر الحقيقي لأنه من أعظم غايات الرسالة المحمدية تطهير الوحدانية من أدران الشرك وهذا التطهير هو الأساس لمكارم الأخلاق.

* رُبَّ قائل يقول: إنَّ مزية الإسلام العظمى هي أنه جمع في الحكم بين الدين والدولة. ولكن ما هذا الجمع بمزية خاصة بالإسلام. فالمسيحية الأصلية لم تكن جمعت في الحكم بين الدين والدولة لأن ظهورها كان في

وسط دولة قائمة قوية متسلطة، فإن اليهودية، في عهد سليمان وداود كانت تجمع بين الدين والدولة.

إذن ما هي أعظم مزية يمتاز بها الإسلام على الأديان السماوية؟.

إنها المزية الآتية:

.. إن الله في شريعة الإسلام قد جعل للعقل السلطان الأعلى في فهم أحكام النصوص المنزلة، وفي استنباط أحكام لما لم ينزل به نص خاص صريح لا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله. وهذا العقل الذي أمرنا الله في آيات كثيرة أن نحتكم إليه عند جدلنا بين أنفسنا في معركة الشك واليقين، وفي جدلنا مع غيرنا من المخالفين، يشمل بسلطانه كل معنى في الوجود ابتداءً من أتفه الأشياء، كإماطة الأذى عن الطريق، إلى أعظم معنى في الوجود وهو الألوهية والوحدانية.

وقبل أن يتعجل عليَّ معترض بأي اعتراض أبادر إلى تفصيل هذا السلطان العقلي الذي أمرنا الله أن نحتكم إليه وبيان مداه، وأضع أمام الباحث خمس حقائق لا يجوز أن تغيب عن ذهنه طرفة عين:

● **الحقيقة الأولى:** أنَّ هذا العقل الذي خلقه الله لنا، وأمرنا أن نحتكم إليه له سلطانان، سلطان مطلق ليس له قيود سوى قيود العقل السليم وحده، وسلطان نسبي مقيَّد بقيود المبادىء الأساسية التي قرَّرها الإسلام.

فكما أنَّ المبادىء الأساسية المنصوص عليها بالآيات المحكمات، أو المستنبطة من الآيات المحكمات، نحن مأمورون أن نحتكم فيها إلى سلطان العقل المطلق مع أنفسنا في عقائدنا، ومع غيرنا من أصحاب العقائد المخالفة، فإنَّ الأحكام الجزئية التي يمكن أن نفسرها أو نستنبطها ضمن حدود تلك المبادىء الأساسية، تقع بالتالي تحت سلطان «العقل» الذي سميناه سلطان العقل النسبي المقيَّد، لأن ما بني على المعقول فهو معقول.

● **الحقيقة الثانية:** أن السلطان العقلي المطلق الذي أمرنا الله أن نحتكم إليه - حتى في الآيات اللواتي هن أم الكتاب - ليس معناه أن يحتكم كل فرد إلى

عقله، فالعقول تختلف قوةً وضعفاً، فتصيب وتخطىء، ولكن معناه أن نحتكم إلى الأحكام العقلية القاطعة التي تتفق عليها العقول السليمة. . كل العقول السليمة اتفاقاً عاماً لا خلاف فيه.

● **الحقيقة الثالثة:** كل نص قطعي واضح لا يسبب تناقضاً عقلياً في الذهن، وهذا شأن الآيات المحكمات كلها بلا استثناء، فمن الواجب الإيمان به ولو كان تصور معناه عسيراً على الذهن لأن «التعقل» غير «التصور».

وكل نص يوجب تناقضاً عقلياً في الذهن فمن الواجب تأويله تأويلاً يرتفع به التناقض العقلي.

● **الحقيقة الرابعة:** أنَّ الآيات المتشابهات التي تعجز عقولنا عن تأويلها يجب أن نردها إلى «أم الكتاب» وما دامت «المحكمات أم الكتاب» غير متناقضة مع العقل فإنَّ المتشابهات التي تهيمن عليها «المحكمات أم الكتاب» تكون ولا بد معقولة وإن عجزنا عن تأويلها: «فالمحكمات» من عند الله، «والمتشابهات» من عند الله، ولكن «المحكمات أم الكتاب» هي الأصول التي تسيطر على المتشابهات. وما دامت الأصول معقولة نستطيع فهمها وإدراك حكمتها فلا بد أن تكون المتشابهات الواقعة تحت سيطرتها معقولة وإن لم نستطع تأويلها. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

● **الحقيقة الخامسة:** التي يحسن ذكرها (للمبتدئين) هي أنه يوجد فرق كبير وكبير جداً بين المستحيل العقلي والمستحيل العادي.

فالمستحيل العقلي هو الذي يوجب تصور وجوده أو تصور عدمه تناقضاً عقلياً في الذهن. أما المستحيل العادي فلا يوجب تصور حصوله أو عدم حصوله تناقضاً عقلياً في الذهن أبداً، ولكن جرت عادتنا نحن البشر أن نعده مستحيلاً في العادة كخرق النواميس الكونية بالمعجزات.

فإذا كان النص الديني يتناول هذا النوع من المستحيلات العادية

فلا مجال لإنكاره أو لتأويله أبداً. . حتى ولا لتعليله على أساس نواميس كونية أخرى كما يفعل العلماء عن حسن نية، بل يجب التصديق به. لأن القول باستحالته عقلياً هو القول الذي يوجب تناقضاً عقلياً. فالنواميس والطبائع في الأشياء من خلق الله، والذي خلقها قادر على خرقها والقول بغير هذا هو الذي يوجب تناقضاً عقلياً.

هذه هي «الحقائق الخمس» التي نحن في نطاقها مأمورون من الله بالاحتكام إلى العقل، بين أنفسنا في عقائدنا ومع غيرنا من المخالفين عند تعقّلنا لمعنى الإيمان بالله ووحدانيته وصفات كماله، فضلاً عن الجزئيات الأخرى.

وإليكم بعض الأمثلة:

(١) قضية وجود الخالق لهذا الكون. هي حقيقة ورد بها النص. وعند عرضها على العقل كما أمرنا الله نجد أن إقرارها لا يشكل تناقضاً عقلياً، بل إنكارها هو الذي يشكل تناقضاً عقلياً لأنه يجعل العالم الممكن الحادث المعلول حادثاً بغير علة ولا فاعل وهذا مستحيل عقلاً ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور: ٣٥]. أو يجعل المعلول نفس العلة وهذا أيضاً مستحيل عقلاً ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] صدق الله العظيم.

(٢) والوحدانية حقيقية ورد بها النص. وعند عرضها على العقل كما أمرنا الله، نجد أن إقرارها لا يوجب تناقضاً عقلياً، بل إنكارها والقول بتعدد الآلهة أو المزج بين الألوهية والبشرية هو الذي يشكل تناقضاً عقلياً ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

(٣) والمعجزات التي ورد بها النص. عند عرضها على العقل لا نجد أنَّ تصور حصولها يوجب تناقضاً عقلياً لأنها من الممكنات، بل ادعاء استحالتها استحالة عقلية هو الذي يوجب تناقضاً عقلياً: لأنَّ الذي خلق النواميس والطبائع من البديهي أن يستطيع خرقها.

(٤) قضية البعث التي ورد بها النص. عند عرضها على العقل، كما أمرنا الله، لا نجد أنَّ تصورها يوجب تناقضاً عقلياً، بل القول باستحالة حدوث البعث استحالة عقلية هو الذي يوجب تناقضاً عقلياً ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١].

(٥) كذلك زعم القائلين بولادة الله لولد أو بولادته من والد. قد ورد النص باستحالة هذا الزعم. وعند عرض القضية على العقل كما أمرنا الله، نجد أن تصور ولادة الله من والد يوجب تناقضاً عقلياً لأنه يؤدي إلى أن يكون الله حادثاً وممكناً وله كفؤ والعقل يقطع أنه سبحانه قديم وواجب الوجود وليس له كفو ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص].

كما أنَّ تصور ولادة الله لولد يوجب تناقضاً عقلياً لأنه يجعل الله جزءاً، ويجعله متغيراً، ويجعل له مثلاً ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ [مريم: ٣٥]. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] صدق الله العظيم.

(٦) ولكن في آية مثل قوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف: ٨٦]. نجد أن نص هذه الآية، إذا أخذ ظاهره اللفظي، يشكل تناقضاً عقلياً: لأنه من الثابت في العلم ثبوتاً عقلياً قاطعاً لا ريب فيه أن الأرض أصغر من الشمس بمليون وثلاثمائة ألف مرة. ومن البديهيات العقلية أن الجسم الكبير لا يدخل في الصغير، فلا بد هنا من تأويل هذا النص تأويلاً يرتفع به التناقض العقلي فنقول كما قال العلماء الأعلام من قبلنا أن معناه أن: ذا القرنين رأى الشمس وهي تغرب وراء البحر كأنها تغرب في عين حَمِئة كما يرى أحدنا الشمس تغرب في النيل وهو يعلم أنها تغرب وراء الأرض لا في النيل.

فمن هذه الآيات الكثيرة وسواها كقوله تعالى: (لعلكم تعقلون ـ لقوم يعقلون ـ لقوم يفقهون ـ لقوم يتفكرون..) يظهر بجلاء لا مجال للشك فيه

أن الله هو الذي أمرنا بالاحتكام إلى العقل في إدراك وجوده ووحدانيته وصفات كماله، فضلاً عن إدراك ما هو أقل أهمية وخطراً من ذلك من شتى الجزئيات. فإنكار الاحتكام إلى العقل في نطاق الحقائق الخمس التي ذكرناها **لا يجوز أن يسمى خطأ بل هو إنكار للنصوص الصريحة ويدخل عند الإصرار في باب الكفر لأنه إنكار وإعراض عن البراهين العقلية التي خاطبنا الله بها»**.

قانون العلية

إنَّ عقولنا التي خلقها الله لنا مفطورة فطرة على قانون العلية أو «قانون السببية» كما نسميه نحن البشر بالنسبة للمخلوقات، وهو الشيء الذي نسميه الحكمة بالنسبة إلى خلق الله وأوامره ونواهيه.

قد يقول الملحدون المنكرون للصانع: إنَّ عقولنا اكتسبت هذا القانون بحكم العادة لأنها كانت ترى الظاهرة تحدث عقب ظاهرة فتربط بينهما برباط السببية فتسمي الأولى علةً أو سبباً وتسمي الثانية معلولاً أو مسبباً، ويرد عليهم المؤمنون أن الفطرة من صنع الله.

والذي يهمنا على كل حال كمسلمين أن نقرر أن قانون العلية موجود في عقولنا وأن الله سبحانه وتعالى قد أكد هذا القانون.

وهذا التأكيد من قبل الله لقانون السببية «فيما يقع من أحداث الكون وهو ما نسميه (حكمة الله) لما يقع من أفعال الله وأحكامه في الخلق والتدبير والتكليف والعقاب والمثوبة» أمره ظاهر في آيات كثيرة لا تعد ولا تحصى. ويكفي لإثبات هذا القانون الذي اتخذه الله جل شأنه برهاناً على وجوده وخلقه للعالم وللإنسان قوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فالبرهان الذي يسوقه الله للعقول من صميم فطرتها بقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ هو بذاته دليل على اعتبار السببية في دين الإسلام، فالكون حادث والإنسان ﴿الذي أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا﴾[1] حادث، فلا بد لوجوده من سبب وعلة، وفاعل خالق هو الله سبحانه.

---

(١) إشارة إلى صدر سورة الإنسان.

كذلك يقال عن حكمة إرادته القديمة في خلق الجن والإنس ليعبدوه.

فالله سبحانه كتب على نفسه الحكمة وهي التي نسميها نحن: «داعياً» و «سبباً» و«علة».

وقد يصرِّح الله بحكمة أفعاله وأحكامه وأوامره ونواهيه فيذكر سبب الحكم وعلته وحكمته، وقد لا يصرح ويترك لنا أن نستنبطها من خلال الأحكام بعقولنا على قدر ما نستطيع بدون أن نتحكم على الله أن ما استنبطناه هو الحكمة أو هو وحده الحكمة والسبب والعلة.

فمما ورد فيه التصريح بذكر العلة أو الحكمة آيات كثيرة نذكر على سبيل المثال منها:

● (أ) كل آيات العقاب والثواب في الدنيا والآخرة.

● (ب) قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] ولا يخفى أن كلمة أمرنا هي في قراءة أمرنا أي كثرنا. فعلة التدمير هي كثرة المترفين وما ينتج عن هذه الكثرة من الفسق والفجور وخور العزائم، فتقضي نواميس الله الاجتماعية (وهي نواميس لا تختلف أبداً كالنواميس الطبيعية) بأن تدمَّر هذه القرية من عدو خارجي أو من قبل فتنة داخلية بين المترفين والصعاليك.

● (ج) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. فيه بيان لبعض وجوه العلة في تحريم الزنى.

● (د) قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] فيه بيان لعلة الحجر على السفهاء.

●(هـ) قوله تعالى في مال الفيء وحصره بالمهاجرين الفقراء والمحتاجين دون الأنصار الأغنياء ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧] ففي هذا بيان صريح لعلة عدم إعطاء الأرض إلى الأغنياء الذين عندهم أراضٍ كثيرة.

● (و) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١] فيه بيان صريح لعلة تغيير نعمة الله على خلقه.

● (ز) حتى العبادات كالصلاة والصيام والحج ورد النص صريحاً بذكر بعض حكمتها، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم مدعاة للتقوى، والحج فيه منافع للناس، والزكاة حكمتها أكثر من أن تعد.

● (ح) والدَّين أمرنا أن نكتبه مع بيان الحكمة، والاكتفاء بالزوجة الواحدة وكونه أدنى ألا نعول، وشهادة امرأتين لتذكّر إحداهما الأخرى. . إلى غير ذلك مما لو أردنا إحصاءه لاحتجنا إلى وقت كبير.

وخلاصة القول: أنَّ أفعال الله وأحكامه سبحانه مبنية على حكم وأسباب منها ما هو صريح ومنها ما هو باطن، ولكن ليس بمحظور علينا نحن أن نستنبط وجوه الحكمة من طريق العقل، قد يكون هنالك ما يعجز العقل عن استنباط علته وسببه وحكمته فنتوقف دون أن نزعم أنه بلا حكمة، بل نقول: خفيت علينا حكمته. من يدري؟ فقد يكشف الغد عن هذه الحكمة فتظهر لنا كما ظهرت في كثير من أفعال الله في مخلوقاته وفي أحكامه ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]!!

والقول بأن أحكام الله لا يجب أن تُعَلَّل، صحيح على معنى أننا نتبعها ولو لم نفهم علتها وحكمتها، ولكن لا يجوز أن نعتقد أنها بدون حكمة!!

فإذا تقرر هذا قلنا: إنه ليس لعالِم عاقل أن ينكر على المسلمين أنهم يستطيعون ضمن نطاق (المبادىء الأساسية) للإسلام وهي الآيات المحكمات أن يستعملوا عقوهم في استنباط بعض وجوه الحكمة من الأحكام الموجودة، وفي استنباط الأحكام الجديدة للحوادث المستجدة من طريق القياس أو الاستحسان، لأن القول بعدم وجود حكمة للأحكام الإلهية يتناقض مع الدين والعقل، كما أنَّ الجمود عن استنباط الأحكام للأحداث المستجدة هو تعطيل للدين وحكم بنقصانه، وهو الدين الكامل بشهادة الله نفسه.

وهكذا نرى أنَّ أعظم مزية يمتاز بها الإسلام على غيره من الأديان السماوية أنه يجعل لـ «العقل» السلطان الأعلى في إدراك كل معنى في الوجود، ويأمرنا أن نحتكم إليه حتى في الإيمان بوجود الله ووحدانيته والإيمان بالرسل.

وما كانت هذه المزية أعظم المزايا إلا لأنها هي الأصل لكل برهان ذكره الله لإثبات وجوده ووحدانيته وصدق رسله.

فلولا العقل لما عرفنا الله، ولما استطعنا أن نفهم أدلة الله وبراهينه التي كررها في كتابه ليبرهن على وجوده، ووحدانيته، وطلب منا أن نتفكر فيها وندركها ونعقلها، ولما استطعنا بالتالي أن نؤمن بأحقية الأحكام التي بلَّغنا إياها الرسول، وما فيها من الهدى والخير، ولما استطعنا أن نستنبط الأحكام المستجدة بطريق القياس، ولتعطَّلت أحكام الدين في الوقائع التي لم يرد بها نص. وهذا ما لا يقول به عاقل من العوام فضلاً عن عاقل من العلماء الأعلام. فالله سبحانه يقول لنا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وهو يعلم أن هناك على كرِّ الدهور القادمة وقائع وأحداثاً ستأتي ولم ينزل سبحانه حكماً خاصاً، فلابد ـ عقلاً ـ أن يكون أجاز أن نستنبط الأحكام على أساس العقل من طريق قانون العلية الذي ندرك به علة الحكم، وحكمة الله فيه ضمن دائرة المبادىء الأساسية التي أنزلها الله في الآيات المحكمات التي هي أمُّ الكتاب.

أما ذلك المسلم المستشرق الذي قال لي: إن إيماننا بالله نفسه وصفاته لا يرتكز على العقل، ولكنه ينبع من الروح فإنه إما أن يكون جاهلاً لمثل هذه المعاني، وإما أن يكون منافقاً يريد جرَّ المسلمين إلى الإيمان بالأسرار التي اخترعت في أديان أخرى لتغطية التناقض العقلي فيها، والاضطراب الموجب للشرك التي وقعت فيه تلك الديانات عند تصور معنى الوحدانية.

وسواء كان صاحبها من الجاهلين أو المنافقين فإني لأقول له:

ليس عندنا في الإسلام شيء يسمى تفكيراً روحياً أو إيماناً روحياً لا يعتمد على العقل، وليس عندنا أسرار، وليس عندنا خرافات.

بل عندنا عقل. . ، ولنا رب حكيم عليم **خاطبنا بأدلة العقل وحدها، لأن** الإيمان تصديق، والتصديق يسبقه تصور، والتصور والتصديق والاستنتاج والحكم كلها من أعمال العقل وحده.

وما ذلك الإيمان الروحاني الذي يسمونه إيمان العجائز إلا نوع من الطمأنينة القلبية والسكينة النفسية اللتين يتمتع بهما المؤمن إذا امتلأ عقله الباطن بالإيمان بالله، والخشوع أمام قدرته العظمى والإدراك لحكمته البالغة والفرح برحمته الواسعة.

ـ فإذا لم يكن الإيمان مستنداً في الأصل إلى الاستنتاج العقلي، وكان عبارة عن استهواء روحاني خيالي تظله الأسرار ويتعثر في ظلمته العقل ذهب ذلك الإيمان الروحاني مع الريح عند أول أزمة من أزمات النفس أو شدة من شدائد الحياة.

وهو بعد ليس بالإيمان الذي يرضاه الإسلام من قوم يتفكرون ويقرؤون البراهين العقلية البديهية التي ذكرها الله في كتابه، وصاغها بأسلوب يفهمه البدوي الساذج في القرن السابع، والعالم الفيلسوف في القرن العشرين.

عُروبةٌ وإسلام

شرائع الله كلها تسوي بين الناس جميعاً في الحقوق والواجبات العامة، ليس فيها فرق بين لون ولون، أو جنس وجنس.

والبشر أمام ربهم الأعلى خلائق يمحصهم الامتحان المسلَّط عليهم من المحيا إلى الممات، وسيحشرون في ساحة مبهمة غفل مستوية ـ كقرصة النقي ـ لا معلم فيها لأحد، ولا شارة فيها لفرد.

حفاة عراة عانية وجوهم لجبار السموات والأرض.

فمن آمن وعمل صالحاً نجا.. ولو كان في الدنيا أخنع أهلها وأقلهم شأناً!.

ومن جحد وفسد هوى، ولو كان ملكاً يزيِّن جبينه التاج وتنساب بين يديه المواكب..!!

هذه حقيقة لا يعرف النبيون غيرها ـ وإن زاغ أتباعهم عنها ـ.

وقد جاء الإسلام فرسَّخ قواعدها، وأمدَّ رواقها، وبيَّن بالتطبيقات الواضحة والتعليمات الحاسمة أن: «الرومي» و«الفارسي» و«الزنجي» و« العربي» لا يتفاضلون بشيء إلا بتقوى الله عز وجل.

* * *

وإلى جانب هذه الحقيقة ـ وفي غير خلاف معها ـ نذكر أن القرآن الكريم قد اختارت الأقدار له لغة معينة فنزل بها، وتكون وعاء لهداياته، وهي العربية.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا

﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف:].

وأيُّ قرآن يترجم إلى لسان آخر فهو قرآن على المجاز لا على الحقيقة، إذ هو تفسير أجنبي للوحي العربي، أو نقل لما تيسَّر من معاني القرآن نفسه إلى اللغات الأخرى.

أما القرآن نفسه ـ أصل الإسلام ومعجزة نبيه وسياج دعوته ـ فإن الأسلوب العربي بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصم عن جوهره، ولا يمكن التجاوز عنه بتة.

ومقتضى هذا، أن العرب أدنى الناس إلى فقه الرسالة وإدراك مراميها، ولعل ذلك معنى الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا. . .﴾ [الرعد: ٣٧].

سواء كان الحكم بمعنى الحكمة، أو بمعنى السلطة.

ولا أعني بالعرب دماً مخصوصاً، بل أعني كل مُجيد للعربية، ضليع في آدابها، خبيرٍ بأسرار البلاغة وفنون الكتابة.

فمن أعوزته هذه المواهب ولو ولد في بطحاء مكة فليس بأهل للعروبة.

ومن استجمعها من الزنوج فهو عربيٌّ أصيل لا يعيبه لون ولا يؤخره جنس.

وقد قامت الأمة الإسلامية منذ العصور الأولى على جعل الاستعراب مورداً لا يغيض في إمدادها بالحياة والنماء، لا في دينها فحسب، بل في أدبها من شعر ونثر.

فنبغ في علوم الدين وفنون الأدب جمٌّ غفير من الأعاجم، وتولى مناصب الفتوى والقضاء والإدارة والحكم رجال منهم كثير.

والتبريز في العربية ضرورة لا محيص عنها لترشيخ أصحاب الكفايات النفسية والعقلية كيما يخدموا الإسلام خدمة راشدة واعية. فإن الاستهداء بالكتاب والسنة لا يقدر عليه إلا الراسخون في هذه اللغة التي نزل بها الوحي، وتكلم بها الرسول.

وقد أسلم خلق لا يحصون من أجناس العالم الأخرى، وحسنت عقائدهم

وأعمالهم، إلا أن عجزهم عن فقه الإسلام من ينابيعه الأصلية شاب حماستهم بالحدة المنفرة، وإخلاصهم بالقصور المقعد.

فلا معاني القرآن نقلت إليهم، ولا هدي النبوة شُرِحَ لهم، ولا هم أجادوا اللسان العربي ليتصلوا دون وساطة بينابيع الإسلام.

فكان أن عاشوا ينتسبون للإسلام ويتخبطون في العمل به والدعوة إليه.

والأتراك شاهد صدق على هذه الحالة المحزنة، ومصير الخلافة الإسلامية، ـ أو بتعبير أصح الدولة القائمة على شؤون المسلمين، في وصاية هؤلاء الأتراك ـ كان مصيراً فاجعاً مخزياً.

* * *

إنَّ نزعة الإسلام في عدم التفريق بين الأجناس مكنت كل داخل في الإسلام أن يصل إلى مكان الصدارة دون نكير!!

بيد أن هذه النزعة الشريفة يجب أن يراعى فيها توافر الكفاية الأدبية عند من يتصدون لهذه المناصب الثقيلة.

ومن المستغرب أن يعد للإسلام حاكم محدود الفقه في كتاب ربه، محدود الدراية بسنن رسوله لأنه أعجمي!!

حقاً إن الإسلام أذاب كل اعتداد بالأنساب والدماء. ولكنه لم يذب شروط الاستحقاق للولايات العامة، وطبيعي أن هؤلاء الجديرون بها عرباً أو متعربين من غير تفريق بين هؤلاء وأولئك.

وليس في هذا إيثار للعرب أو غض من غيرهم، ما دام أساس الاختيار تفاضل الكفايات لا تفاضل الألوان.

لقد كان أبو حنيفة كبير فقهاء الرأي، والبخاري سيد نقلة الأثر.

ودانت الأمة الإسلامية على اختلاف أجناسها للرجلين دون أقل التفات إلى عنصرهما الأول.

بَيْدَ أننا نذكر هنا ـ محزونين آلمين ـ أن العرب نظروا إلى مكانة لغتهم،

وانبعاث الرسالة من بينهم، فذهبوا بأنفسهم، وخامرهم الغرور، وتكلموا على بقية الشعوب بما لا خير فيه.

كما أن غيرهم من معتنقي الإسلام نظروا إلى طبيعة هذا الدين، ومساواته بين أبناء آدم قاطبة، وتقديمه للأتقياء وحدهم. فأخذ ينال من العرب ويندد بماضيهم وأحوالهم.

وتحركت العصبيات الضيقة وراء تلك المهاجاة والادعاءات، فأضرت بالإسلام وأمته أفدح الضرر، ووسَّعت الشقة بين العرب والفرس، وبين الترك والعرب، ثم بين الترك والفرس أنفسهم، ثم عادت اللجاجة مرة أخرى تقسم الأمة الإسلامية، وتمزق شملها حتى كان النزاع بين العرب والترك في هذا العصر سبباً مباشراً في القضاء على الدولة الإسلامية كلها. . !!

إنَّ هذه العصبيات الطائشة لم تكتفِ بتفريق الأمة الكبيرة إلى أجناس متشاحنة، بل فرَّقت القطر الواحد إلى أقاليم متنابزة. وبرز الساسة والأدباء الذين لا يحيون إلا على الفتن فلحقوا هذه الجاهلية الجديدة حتى آل أمرنا إلى بوار! . . ذلك أن الطامعين في الحكم، وحملة الأقلام الذين يخدمون أغراضهم، أججوا نيران هذه العصبيات، من عربية وشعوبية. ولم يدركوا وهم يقترفون هذا الشطط أنهم يعكرون مستقبل رسالة كبيرة، ويزرعون الضغائن ليجني ثمرها المر أحفاد مظلومون.

أما التستر بمُثل عليا إخفاءً لهذه النزعات فمسلكٌ بيِّن العوار، وما أصدق قول الدكتور زكي مبارك:

«سيأتي يوم يعرف فيه المسلمون أنَّ حضارتهم العظيمة لم تقوضها غير الأقلام الباغية، أقلام الكتَّاب والمؤلفين الذين غفلوا عن أخطار الغيبة الاجتماعية فحبَّروا الفصول الطوال في المفاضلات بين الأمم الإسلامية حتى شطروها إلى عناصر يبغي بعضها على بعض بلا تورع ولا استحياء.

وثورة الأمة الفارسية على اللغة العربية كانت لها أسباب من هذا النوع.

وثورة الأمة التركية على الحروف العربية كانت لها دواع من هذا القبيل.

ولن تزول آثار هذه «الغيبة القلمية» إلا يوم يمنُّ الله على المسلمين بكُتَّاب حكماء يعرفون كيف يقتلعون جذور هذه الفتن من الأفئدة والقلوب.

ولكن متى يأتي ذلك اليوم؟؟

إن الأقلام تقدم ما تشاء من الألوان وهي تبغي على العدل والسلام بلا حق، بل تأخذ الأجر على خدمة البغي والإثم والعدوان».

* * *

وفي أعقاب الانهيار الذي أصاب الدولة الإسلامية، وتواثب الذئاب من كل ناحية لانتهاش ما أمكن من جسدها المثخن، أخذ كل شعب مسلم يدفع عن نفسه ويذود ما وَسِعه الذودُ عن حياضه.

وكان عِقْد الأمة الكبيرة قد انفرط، فلم يلو أحد على آخر.

إنهم شعروا بغتةً أن النار تشتعل حولهم فثارت في دمائهم غرائز النجاة فقط، وشرعت مصر وحدها، وتونس وحدها، والعراق وحدها تكافح طغيان الاستعمار النازل بها.

ثم شعر العرب بأن تكاتفهم في ميدان الجهاد أجدى على قضاياهم المتشابهة فأسسوا الجامعة العربية ووكلوا إلى المصالح القومية والعزة الجنسية أن تقيم بناءها وترفع لواءها.

ونحن ـ إنصافاً للحقيقة ـ نشيد آمالاً كباراً على تحرر العرب جميعاً، فإن العروبة عقل الإسلام وقلبه، ويوم تضمحل وتنتهي فذلك إيذان بأن شمس الإسلام إلى أفول.

وأعداء هذا الدين يدركون أنَّ إضاعة العربية، وإماتة آدابها، وإفناء ميزاتها، وإنشاء أخلاف متنكرين لتراثهم وتاريخهم هو الخطوة الخطيرة نحو إضاعة الإسلام نفسه، وتضييع كتابه وإلحاق أمته كلها بمن باد واختفى من الأقدمين الهالكين.

وإنك لتلمح في سياسة الاستعمار التعليمية هذه النية مجسَّمة.

فالتجهيل في اللغة العربية والاعتماد على غيرها في الوظائف والمكاتبات المحلية والعالمية عنصر ثابت.

وحيثما نجحت هذه السياسة وجدت رطانة الأعاجم قد حلت محل اللسان العربي المضطهد. هكذا فعلت فرنسا بالمغرب ولبنان، وهكذا فعلت انجلترا بالهند وباكستان، وعلى نسقها تصنع سائر الدول الصليبية الغازية.

فإذا قام العرب للذياد عن كيانهم وتراثهم فنحن بدوافع الدين والدنيا معاً نشد أزرهم ونحمي ظهرهم.

ولو لم نكن عرباً نغضب لأنفنا ونستقتل في حماية ذمارنا وصيانة مروءاتنا لكنا باسم الإسلام نكافح من أجل كرامة العروبة وحفظ مهابتها.

فالأمر يمسُّ صميمَ رسالتنا لأنه كما قيل: إذا ذَلَّ العرب ذل الإسلام!.

ومعروف أن من العرب من يعتنق النصرانية على اختلاف مذاهبها، إلا أن اختلاف العرب من مسلمين ونصارى لا يمنع تجمعهم على إعزاز الأمة العربية ورد العدوان عنها مهما كانت ديانة المهاجم عليها.

فإن العربي بطبيعة عنصره يأبى الضيم ويكره الدنية ويرخص دمه في سبيل شرفه.

وثَمَّ أمرٌ لا يمكن إغفاله، إن الكثرة الكبرى من نصارى المشرق عايشوا المسلمين معايشةً كريمة على مرِّ العصور، فلم يحاول العربي المسلم أن يضيم أخاه النصراني ـ ولا اليهودي ـ بل أكرم صحبته وأحسن عشرته ولو لم يرع هذه الآصرة، لرعى له حق الجوار، فبذل نفسه دونه.

على عكس ما وقع في بلاد الغرب، فإنَّ أرقى عواصم «أوروبا» شهدت من مآسي التعصب ما ترعد له الفرائص.

كان الفرنسي الكاثوليكي يذبح الفرنسي البروتستانتي، وهو نشوان بخمرة التشفّي والغل.

ولو أنَّ العرب النصارى ـ وأغلبهم أورثوذكسي ـ سايروا صلة الدين،

ونزحوا إلى الغرب لاستؤصلت شأفتهم وأضحوا أساطير يرويها التاريخ . .

والفضل في هذه السماحة التي تسود بلادنا، إلى تعاليم الإسلام وحدها، التعاليم التي جعلت للنصارى ذمة ورَحِماً، فهم وإن كانوا قلة بين جماهير غفيرة ـ يحيون وافرين آمنين . . !!!

كتب الأستاذ «أسامة عيتاني» يقول:

«لقد شعر الروم الأرثوذكس ـ وهم العرب الأقحاح ـ أنَّ مصيرهم أصبح مرتبطاً بالبلاد العربية وليس بروسيا أو أثينا، وأن مصالحهم الحيوية مشتركة مع طوائف البلاد ـ لا سيما المسلمين منهم ـ فهم الذين تربطهم بهذه الطائفة روابط عريقة تمتد جذورها إلى العهد الأول للإسلام. وهم الذين ساعدوا المسلمين على فتح هذه البلاد. وهم الذين آزروا الأمويين ورافقوهم إلى الأندلس، ثم أخرجوا معهم منها، وهم الذين قال بطريركهم حين حاصر محمد الفاتح القسطنطينية واشترط[1] البابا لمساعدة الروم انضمام كنيستهم لروما ـ قال: «كلا . . عمامة محمد ولا قلنسوة البابا»!!!

وظل الروم كما يحدثنا المؤرخ الألماني «بروكلمن» بعد فتح القسطنطينية يتمتعون بحرية مطلقة. وكان «لبطريركهم» من القوة والسلطان في عهد العثمانيين أكثر مما كان له في عهد بيزنطة نفسها، وكانت طقوس التعميد والزواج والدفن والأعياد والمواسم تقام علناً في أبهة وعظمة.

وانتقل مركز الكرسي البطريركي لروم الشرق في دمشق، ودمشق قلب العروبة النابض، وجناحها الخفاق فتلقح الكرسي بقوتها. وكان أبناء الطائفة في سوريا ولبنان ـ ولا يزالون في طليعة المجاهدين ـ أصحاب العقيدة العربية الصادقة، الذين يفهمون جوهر العقيدة وحقيقتها التاريخية».

وأشهد أني التقيت في القدس ودمشق برجال من النصارى يتوقدون غيرة

(١) لا يزال بابا روما يطلب من نصارى الشرق الانضمام إلى كنيسته، وقد أصدر نداءً لأقباط مصر يناشدهم فيه العودة إلى مذهبه.

على مستقبل فلسطين، وقد أعجتني حميتهم للعروبة وغضبتهم لنكبتها. وأحسست بتجاوب العاطفة بيني وبينهم، حتى إنَّ كثيراً من المقترحات التي فكرت في إعدادها لمواساة اللاجئين رأيتهم قد سبقوا إلى نظائرها، وكنا نختلف أحياناً على صياغة عبارة أوثر فيها اللطف ويؤثرون فيها العنف.

ولا ريب أن هؤلاء النصارى عرب أنقياء، وأن خصائص هذا الجنس النزَّاع إلى الحرية، المتأبي على الضيم باقية في دمائهم لم ينل الزمن من وهجها وعظمتها.

والعربي الصحيح ـ وإن لم يكن مسلماً ـ له موقف كريم من إخوته المسلمين يجب أن نشرحه، لأنه صدى عروبته، ووحي طبيعته.

وهو إن لم ينظر إلى القرآن على أنه وحيٌ من عند الله نظر إليه على أنه وثيقة أدبية عالية خلدت لغته وأودعتها من المعاني والأساليب ما يقيم الألسنة ويزكي الأفئدة.

وهو إن وقف إيمانه بالنبوة إلى عيسى بن مريم، فلن يبخس محمد بن عبد الله حقه بوصفه سيد رجالات العروبة ومؤسس نهضتها الكبرى.

وقد كان مشركو الجاهلية الأولى ـ عند كفرهم بالرسالة ـ يقدرون شخص صاحبها ويعترفون بعبقريته.

والعربي المسيحي، له من عروبته خلق الوفاء، وينبغي أن يكون له من دينه حب العدالة.

وبهاتين الخلتين يستحي أن يحقد على الإسلام الذي ألقى عليه كنفه قروناً متطاولة لم يرزأ خلالها في دم أو مال.

على حين كانت الفتن تحصد المختلفين من أبناء النصرانية في مواطن أخرى.

* * *

بَيْدَ أن الاستعمار الغربي في سبيل أغراضه الخبيثة يبذل محاولات لا تهدأ كيما يهدم العروبة والإسلام معاً.

وهو يجتهد في صفاقة غريبة متلمساً الطريق بين العرب أنفسهم لبلوغ مآربه.

وإنه ليشجع على اقتراف الخيانات وإشاعتها، حتى يمزِّق صفوف العرب ويهدم حاضرهم ومستقبلهم.

فهل نجح في تحقيق الأهداف؟

أو هل خطا نحوها خطوة؟ لننظر. .

. . . أجل، لننظر كيف يحيك المؤامرات الخفية. لا بل كيف يعقد الاتفاقات العلنية كي يحقق مآربه القديمة، في هذه الأيام. . . !!

* * *

بعد قيام حكومة الثورة بثلاث سنين دعيتُ للمشاركة في مؤتمر الخريجين العرب المنعقد بالقدس القديمة. . وقد لبيت الدعوة، مع قريب من ثلاثمائة جامعي مصري قرروا حضور جلساته، وأعرف أن هناك مؤتمرات مريبة تنعقد بين الحين والحين لطعن أمتنا وإسقاط رسالتها، ولكن الداعين إلى انعقادها يجيدون التستر على مقاصدهم وراء ألفاظ سياسية رجراجة. وبعض أولي الغيرة على الإسلام يرفضون الذهاب إلى هذه المؤتمرات، وقد كنت أستطيع أن أفعل فعلهم ولكني آثرت أن أذهب وأن أزيح النقاب عما يراد بأمتنا وبديننا.

مُؤتمرُ الخِرّيجِين قَبْلَ أَنْ تَشْتَرِكَ فِيهِ مِصْر

المؤتمرات ضد العروبة والإسلام تحيكها سياسات حذرة متأنية، ومع مهارة المدبرين لها فإنَّ كشفها لا يحتاج إلى ذكاء.

ذاك أنها وصلت إلى مرحلة اضطرت معها إلى الإسْفار عن نياتها وإزاحة النقاب عن مآربها البعيدة.

ولئن كان التوجُّس من أصحابها يعتبر قديماً سوء ظن لقد أصبح اليوم سلوكاً يدعو إليه الحزم والإشفاق على مستقبل أمتنا الكبيرة.

إنَّ الاستعمار الغربي بعد أن يئس من تحول مصر إلى الفرعونية، ومن العراق إلى الآشورية، ومن تحول لبنان إلى الفينيقية... إلخ، اعترف مكرهاً بعروبة هذه الأقطار كلها ثم شرع يثير في جوِّ هذه العروبة من الغيوم ما يؤمِّن أهدافه ويحقِّق أطماعه، أو قل: ما يشبع أحقاده القديمة الجديدة ضد هذه العروبة، وما يمكن أن يعيش في ظلالها من دين.

والأسس التي يبني عليها الاستعمار الغربي علائقه بالأمة العربية تقوم على النقط الآتية:

١ ـ ربط دويلاتها بسياسة الغرب، وخلق أحوال روحية، وثقافية، واجتماعية تضمن دوام هذا الاتجاه.

٢ ـ تشجيع «العلمانية» أو «اللادينية» أو بتعبير صريح إطفاء منارات الإسلام في نواحي الحياة العامة.

٣ ـ تخدير الوعي العربي المناهض لليهود، والتسويف في معالجة قضية فلسطين، حتى يتمَّ انسجام إسرائيل مع جيرانها العرب بعد أن يتطوروا وفق

مناهج السياسة الغربية ونشاط عملائها الذين لبسوا أزياء العروبة وترهبوا لخدمة قضاياها. . . !!!

ونحن لا نلقي التهم جزافاً، ولا نلتمس للأبرياء العيوب، ولكننا نسوق الأدلة أمام الأعين الناقدة، ونترك لها أن تحكم بما تستبين.

* * *

اجتمع لفيف من خريجي الجامعات الأمريكية في الشرق، وقرروا عقد مؤتمر دائم لبحث قضايا الوطن العربي، وقد اطَّلعتُ على الرسائل التي طبعوها لتكون موضع مناقشات المؤتمر في جلساته، فاستغربت الروح الشائع في أغلب هذه النشرات، كما استنكرت كثيراً من المقالات التي لمح كتبتها أو صرحوا بضرورة الاتجاه إلى الغرب، ونبذ الإسلام!!!

ومع دهاء مُصَدِّري هذه الرسائل، فإنَّ تعصبهم لما يعتقدون كان يغلب عليهم.

وكثيراً ما جرت أقلامهم بما ينمُّ عن كراهية شديدة للإسلام وحده. . لماذا؟ لا أدري. . !!

كتب السيد «ماجد فخري» منددأ بالشيخين محمد عبده، ومحمد رشيد رضا ومفنداً رأيهما في صلاحية النظام الإسلامي لعالمنا الحاضر. فقال:

«وما ينشأ تخلف العالم الإسلامي عن قافلة المدنية عندهم ـ أي عند الشيخين ـ إلا بسبب تقاعس المسلمين وقصورهم عن الامتثال لما رسمه الإسلام من قواعد للحياة الفضلى، لا للفساد الجوهري في الجهاز الإسلامي ذاته، وفي الأنظمة الفكرية والتشريعية التي أقرها!

وهكذا فطريق الإصلاح عند هؤلاء طريق واضحة، تقتصر على إحياء الإسلام بشرائعه ومراسيمه وتطبيقها على حياة المسلمين عامة والعرب خاصة تطبيقاً تاماً، أي تقتصر باختصار على العودة إلى الشريعة الإسلامية بحذافيرها كما «خلقها» صاحب الدعوة منذ أربعة عشر قرناً» ثم قال:

«وليس يعنينا البند الأول من هذه الدعوة «أي القول بأصالة النظام الفكري

الإسلامي المطلق» لأنه من القضايا التي يصعب التدليل عليها تدليلاً قاطعاً. .

بل إن أقل ما يقال في أصحاب هذه الدعوة أنهم فقدوا الوعي التاريخي جملةً فنظروا إلى أحقاب التاريخ بعين واحدة. لا فرق بين اللاحق منها والسابق.

فمثلهم كمثل المرء الذي ينظر إلى الطفل وإلى الكهل نظرة واحدة، فيقيس أفعال هذا وأقواله بنفس المقاييس التي يقيس بها أفعال ذلك وأقواله.

وكل ذلك ضرب من الجهل بسنن الحياة المتبدلة، وأحوالها وحاجاتها المتجددة أبداً».

ويضرب السيد «ماجد فخري» مثلاً لتخلف الإسلام، وفساد أجهزته التشريعية وعدم غنائها مع تطور العصور فيقول:

«ولما كان المجتمع القديم يختلف عن مجتمعنا في تركيبه لم تعد قوانين الميراث القديمة ذات غناء اليوم. بل فقد الكثير منها معناه أصلاً ـ فمن الدول الاشتراكية اليوم من ألغى مبدأ الملكية الفردية. كروسيا التي لم يعد لقوانين الوراثة عندها معنى قط، ومنها من استبقى من هذا المبدأ طرفه الفردي البحت ـ كبريطانيا ـ فبات لا يلحق الوريث اليوم من ميراث أبيه إلا النزر اليسير، لأن حقه في الملكية الفردية بات مقصوراً على ما يكسبه هو بعرق الجبين، أما النصيب الأكبر من الميراث فبات يعود على الدولة أو المجتمع.

وإذا ذكرنا أيضاً أن عامة الأمم المتمدنة اليوم تقر حق المساواة بين الرجل والمرأة، وجدنا أن التشريع الإسلامي الخاص بالميراث مجحف بحق المرأة ـ فلا يصلح للمجتمعات التي ساوت بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات المدنية ـ وفي فرص تحصيل المعاش وجزاء العمل. . . الخ. فاقتضى أن تتغير هذه الأحكام بتغير الأزمان، وبتغير ظروف الحياة العامة».

وماذا يبغي السيد «ماجد فخري» بعد هذه الحملة على الإسلام وهذه

البرهنة على انتهاء رسالته؟

إنه يبغي أن نولّي وجوهنا شطر الغرب لنستمد منه أفكارنا وننشىء حضارتنا.

وأيُّ غرب؟ أمريكا وانجلترا وفرنسا ومن دَارَ في فَلَكها، واسمع إليه منوهاً بهذا الغرب العظيم «... خُيِّل إلينا أن الاستقلال عن الغرب سياسياً يعني الاستقلال عنه فكرياً وحضارياً ـ وهذا أيها السادة وهم فاضح ـ فالدول الشيوعية نفسها كروسيا والصين ودول أوروبا الشرقية ما زالت كلها عالة على الغرب في ميدان العلم والفن والفلسفة، ألم يكن حلم باني روسيا الحديثة بطرس الأكبر نفسه: «تغريب» روسيا في القرن السابع عشر؟؟ ألم ينتج ماركس أهم آثاره الفلسفية والاقتصادية في زاوية من زوايا المتحف البريطاني. وتتلمذ أول أمره على «هيكيل» زعيم المدرسة الألمانية؟؟ أليس الطابع الغالب على أروع الآثار الأدبية الروسية «كالأخوان كارامازوف» و«الحرب والسلام» طابعاً روحياً مسيحياً»؟؟

أرأيت هذا الحماس في الاتجاه إلى دول الغرب والإشادة بروائعها المادية والأدبية، والحط من قيمة روسيا الحديثة والدول الضالعة معها؟

إذن، فلتسمع إلى تتمة إيماءة التكريم للطابع الروحي «المسيحي»!!!

هذه الإيماءة التي أبان فيها الكاتب عن جوهر نفسه.

إنه يقول عقبها «أو ليست الثورة الشيوعية تعتبر نفسها تعبيراً عن الروح المسيحية الداعية إلى العدل والحرية والمساواة باسم المحبة؟».

يا عجباً!!

إنَّ الإسلام دين انتهى زمنه، ويجب أن تنفض الأيدي منه، أما المسيحية فهي بعد عشرين قرناً لا تزال ينبوع الإلهام لأحدث النظم في الدنيا.

أهذا بحث علمي أم بحث تبشيري؟

إنني أحترم التفكير العلمي المجرَّد، المحايد بين الأديان كلها.

أما أن يجيء كاتب فيبلغ به الغلو في تمجيد النصرانية إلى اعتبارها مصدر المثل العليا في النظام الشيوعي ـ وهذا كلام يستحي العلماء، من التفوُّه به ـ .

ويبلغ به الضغن على الإسلام فيصفه بفساد الأجهزة . . فهذا ما لا يطاق .

ولكن هذا . ما كان[1] سيعرض للمناقشة في جلسات مؤتمر الخريجين .

قوامه احترامٌ للغرب الصليبي، وتمجيدٌ لروح النصرانية، ونقدٌ لشرائع الإسلام، وذلك كله باسم العروبة .

* * *

ولندع هذا الكاتب دون مناقشة لما كتب، ولنقرأ مقترحات السيد «جبران شامية» عضو المكتب الدائم للمؤتمر .

إنه يجري شوطه في نسق واحد مع زميله، ويسيرُ محاذياً له . وإن اختلفت الطريق ـ حتى يصل إلى الغاية نفسها .

لقد دعا في صراحة إلى سلب الدين كل سلطة، وإلى جعل الحكم علمانياً بحتاً وهو يقول: «العلمانية نتيجة محتومة للحرية الفكرية، وصفة ملازمة لها، لأننا متى سلَّمنا بحق الفرد أن يفكر مستقلاً في جميع القضايا ـ ومن جملتها أمور دينية ـ وأن يتوصل إلى النتائج التي يوحيها إليه عقله، وجب أن نرفض منح هذا الحق أية جماعة ـ حتى الدولة ـ لكي تفرض على الفرد آراءً ونظماً دينية معينة . . »[2] .

وهو يرد نكبة فلسطين وسائر عقابيل الاستعمار التي يضطرب الشرق العربي بين عقدها إلى أننا ما زلنا نحيا على التراث الديني الذي خلَّفته لنا القرون الوسطى .

يقول: «لقد استثمر الغربيون في استعمارهم البلاد العربية،

---

(1) من رسالة «الفرد العربي: في منتصف القرن العشرين أمام بعض معضلاته الكبرى «لماجد فخري» ـ منشورات مؤتمر الخريجين الدائم لقضايا الوطن العربي .

(2) الدين والدولة القومية ـ منشورات مؤتمر الخريجين الدائم لقضايا الوطن العربي .

والصهيونيون في اعتدائهم على فلسطين، إمكانات العقلية الأوربية المتحررة العملية والمجتمع القومي المتماسك الحديث، على حين واجهناهم نحن بعقلية محافظة متواكلة، ومجتمع ديني لا قومي خلفته لنا القرون الوسطى.

ولم تحفزنا بعد مصائب الاستعمار، وكارثة فلسطين إلى وثبة تحطم القيود الفكرية والخلافات الدينية، وتدفعنا إلى آفاق الاتحاد القومي، تلك التي تفتحها لنا العلمانية.

ولا تزال كثرتنا مكبلة بقيود الفكر المحافظ تتلمس طريقها بتردد بين الدولة الدينية والدولة القومية العلمانية»(١).

وبديهي أن يذكر الأستاذ «جبران شامية» في هذا المجال «مصطفى كمال» ليقول عنه: «كان مصطفى كمال ورفاقه الذين وضعوا أسس نهضة تركيا الحديثة مقتنعين بضرورة اللحاق بمجرى المدنية الغربية، وبأن هذا اللحاق يقتضيهم التخلص من القيود الدينية، ففرضوا العلمانية، واستبقوا تكامل الوعي الشعبي الذي يتطلبها»(٢).

وظاهر من هذه الشواهد التي نقلناها أن المقصود بالدين هو الإسلام.

فهو دين الكثرة التي تقطن الشرق العربي.

وهو الميراث الروحي والسياسي الذي تلقيناه عن العصور الوسطى.

ثم هو الدين الذي تنكر له القائد التركي «مصطفى كمال» وأقصى شرائعه كلها عن الدولة.

وبذلك أسَّس نهضة باركتها دول الغرب وَحَنَتْ عليها بعد طول خصام..

ومطلوب منا ـ لكيما نظفر بالثمرات التي جنتها تركيا ـ أن نجنح إلى العلمانية وأن نطلّق هذا الإسلام تطليقة لا عودة فيها.

وقبل أن أنظر في هذا الطلب الذي يعرضه السيد «جبران شامية» أحب أن أقول كلمة سريعة:

---

(١) و (٢) المصدر السابق.

إنَّ التاريخ يوم يكتب على حقيقته سوف يعلم الناس أن مصطفى كمال هذا ليس إلا خرافة سياسية كبيرة.

وأنه ورث تركيا ـ وإن هُزِمت ـ دولةً عظيمة، يعدُّها العالم في مصافِّ دوله الأولى، فصيَّرها دويلة من التوابع التي تحيا على تسول الإعانات وعلى خدمة أغراض القراصنة والمستعمرين.

ومن الخير أن نثبت هنا كلمة للأستاذ «أسامة عيتاني».

قال: «في الآستانة جماعة من المسلمين الأتراك أصلهم من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام ظاهراً في «سلانيك» وبقوا متمسكين بيهوديتهم الهدامة.

إنهم يعرفون «بالدونمة» ويعتزون كثيراً «بأتاتورك» ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه منهم!!.

وحجتهم في ذلك أن «أتاتورك» أسفر عن نياته ضد الإسلام حين تولى الحكم ورسخت أقدامه فيه.!

فقد ألغى التعليم الديني وأغلق عدداً كبيراً من المساجد وهدم أحدها في «هبيلي أغا» لأن العازفين على الموسيقى وقفوا عزفهم احتراماً للأذان..!!

..هؤلاء «الدونمة» يسميهم الأتراك المسلمون (الطابور الخامس) إنهم يتمسكون بشعائر الدين ظاهراً في سبيل مصالحهم الخاصة بيد أنهم لا يتوانون عن الدس والتهديم كلما سنحت لهم فرصة».

إذن فقد عرف الدور الذي قام به مصطفى كمال!!

إنه ـ وإن سمي مصطفى ـ فهو صنو: «وايزمان» و«شاريت» وأمثالهما من قادة الصهيونية العالمية.

وإذا كان ساسة اليهود العلنيون قد اقتطعوا فلسطين من كياننا الدامي الجريح فإنَّ رفاق القائد التركي اليهودي هم الذين يمونونهم اليوم ويمدون أسباب البقاء لإسرائيل، كي تغالب ما حولها من كفاح.

وقد قلنا في موضع آخر: إن الجيش التركي الذي طوَّح بالغزاة في البحر

كانت مشاعر الإسلام وحدها هي التي تعمل في نفوسه وصفوفه.

وإنَّ مصطفى كمال أرسله السلطان ـ وكان ياوراً له ـ ليقود المجاهدين في الأناضول.

وإن الأمداد والأعوان وآمال المسلمين في كل مكان كانت تلتقي في هذا الميدان الحاسم، حتى إن العوام في شوارع القاهرة كانوا يسيرون في مظاهرات تردد نشيداً شعبياً، مطلعه:

انهضي يا مصر كي تحمي الهلال   لبِّي نداء المصطفى الغازي كمال

وعندما انتصر مصطفى كمال قال شوقي:

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب

فلما استقر الأمر له، قلب ظهر المجَنّ وأرى الأتراك والمسلمين وجهاً لم يعرفوه من قبل، وسار في أمته سيرة لم تربح منها إلى اليوم شيئاً يذكر.

* * *

وبعد ثلاثين سنة من هذا الانقلاب اليهودي التركي يجيء السيد «جبران شامية» ليوصينا أن نصنع صنيعه، وأن نتحلل من نصوص ديننا، لأنها لا تلائم هذا العصر.

ثم يذكر أن هناك عشرات الموانع تحول دون قيام نظام إسلامي عالمي، أو نظام إسلامي عربي على الأقل.

ولو ذهبت تتأمل في هذه الموانع التي ذكرها لماوجدت إلا أوهاماً جَسَّمها الغرض، وخيالات تمسكها الرغبة الخاصة فحسب.

وقبل أن نفنِّد بعض هذه الموانع، نلفت الأنظار إلى خطأ ما يشاع من أن دول الغرب تخلت عن الكنيسة.

فإن انجلترا لم تفصل الكنيسة عن الدولة بل هي حامية: «البروتستانت».

كما أنَّ فرنسا ابنة الكنيسة الكاثوليكية وحامية: «الكثلكة» في العالم!

والسيد «جبران شامية» لبناني ماروني، والقطر الذي يعيش فيه يعتبر من أبرز الأمثلة على سيادة هذه الطائفة المسيحية وفتكها بحقوق الطوائف الأخرى.

يقول السيد «أسامة عيتاني»: «لقد جَلَتْ فرنسا عن لبنان، ولكن روح الموظفين الذين لازموا عهدها ونعموا بخيراته لا تزال تسيطر على الدوائر الحكومية وتوجه سياسة الدولة بعيداً عن العدل الاجتماعي. توجيهاً يثير الطوائف الأخرى ويشعر بالغبن والتعصب والمصالح الشخصية.. فإذا كان الموارنة في لبنان يرغبون في التعاون مع مواطنيهم المسلمين.. فما عليهم إلا أن يقلعوا عن سياسة الوطن الماروني المسيحي ويؤمنوا بأن لبنان للجميع، وأن يقولوا ذلك في بيوتهم وكنائسهم لا بأفواههم وخطبهم».

ويؤسفنا أن العكس هو الذي يقع. فإنَّ الذي يقال ـ للمسلمين وحدهم ـ إن العلمانية وتخلّي الإسلام عن شؤون الدولة هو طريق الرقي وأساس التقارب بين المسلمين وغيرهم.

لحساب مَنْ يُعرض في مؤتمر الخريجين العرب هذا الاقتراح الخسيس أن يتنازل أتباع دين كبير عن شريعتهم، ويتناسوا تطبيقها؟!

وفي أية ظروف؟ في أيام يتنادى بنو إسرائيل فيها: أن تجمعوا تحت راية العصبية الدينية وحدها!!

وفي أيِّ بلد؟ في لبنان حيث يتكاثف ثلث السكان الكاثوليك لفرض سطوتهم على بقية الشعب اللبناني دائبين على بناء الوطن القومي لهذه الطائفة وحدها وناهجين في الداخل والخارج سياسة افتيات وتنكر للكثرة المسحوقة وللجيران المنهوكين...!!

في هذه الظروف يعرض على بساط البحث أمام خريجي الجامعات الأمريكية العرب أن تتجه أمتنا إلى العلمانية، لينخلع المسلمون فحسب عن دينهم!

وكان الأستاذ «جبران شامية» يدافع عن الوضع القائم في لبنان ـ برغم مخالفته للعقل والعدل ـ فيقول: «العلمانية لا تمنع أن يكون رئيس الدولة من

مذهب معين! فكثير من دول الغرب التي وصلت فيها العلمانية إلى درجة تقارب الكمال ـ مثل دول أوروبا الشمالية ـ تنص دساتيرها أو تقاليدها على أن يكون رئيسها من مذهب خاص!!!».

وفي لبنان يجب أن يكون الرئيس الأعلى من المارون، الذين يزعمون أنهم أكبر طوائف البلاد عدداً! وهذا زعم لا يسانده الواقع!

وإحساس المارون بأنهم ليسوا الطائفة الكبرى حملهم على فرض أنفسهم بقوى كثيرة.

وإنك لتراهم يمنحون الجنسية اللبنانية على عَجَل لكل من يطلبها من جلدتهم ولو لم يقطن لبنان إلا أياماً.

أما المسلم الذي يقطنها أعواماً طويلة فهو نازح غريب.

ومع هذه المحاولات لتكثير طائفتهم فهم ليسوا الطائفة الأولى، فإن المسلمين أكثر منهم عدداً بمراحل بعيدة.

بل إنَّ الذين ينتمون إلى «السنة» وحدهم أكبر من المارون.

فكيف إذا انضاف إليهم سائر المسلمين، وبقية النصارى العرب من أتباع الكنيسة الشرقية. . . ؟

وخير ما نعلق به على طلب السيد «جبران شامية» أن نكون علمانيين هو ما كتبه الأديب اللبناني المسلم «أسامة عيتاني»:

«إنَّ الوضع الاجتماعي والاقتصادي في لبنان مبني على الإقطاع والنفوذ الطائفي!!

هذه حقيقة لا سبيل إلى نكرانها، ومنصب الرئاسة الأولى في لبنان يجب أن يكون من حق الطوائف الكبرى وأولاها «الطائفة السنية».

نحن لا نشك في إخلاص الرئيس الحالي لقضية البلاد، ورغبته في إقامة ميزان العدل بين الطوائف، ولكننا في بلد ديمقراطي كل المناصب فيه عرضة للتغيير والتبديل، ومن حقنا، كمسلمين أن نطالب بأن تكون الرئاسة الأولى

دورية، مرة للسنّة ومرة للموارنة، وأن تكون نيابة الرئاسة أو الوزارة لطائفة ثالثة، فالوقائع أن نفوذ الرئاسة الأولى يطغى في كل الأدوار التي عرفها لبنان، على نفوذ الوزارات مهما اختلف رجالها.

قد يحتج الذين يريدون بقاء هذا الكيان مبنياً على الطائفية بأن الموارنة يشكلون أكثرية في البلاد، «قل: هاتوا برهانكم». . .

. . . وتعالوا إلى إحصاء دقيق تجريه لجنة من الخبراء الدوليين لا مصلحة لأعضائها في الموضوع، يعاونهم موظفون نزيهون من بقية الطوائف على قدم المساواة. . ونحن على استعداد لقبول نتائج هذا الإحصاء.

. . ويتبع منصب الرئاسة الأولى بقية المناصب ذات الشأن في هذه الدولة الفتية، لقد فقد المسلمون في عهد الانتداب بسلبيتهم وتمردهم وابتعادهم عن التعاون مع الفرنسيين، أرفع المناصب وأكثر الوظائف، فهل يجوز أن يظلوا محرومين من حقوقهم في عهدٍ استقلالي بني على نضالهم وجهادهم وتضحيتهم بمصالحهم في سبيل التخلص من الاستعمار؟. إن مركز الرئاسة الأولى يتبعه مركز قيادة الجيش والأمن العام والمديرون الذين يبلغون العشرين في جهاز الدولة. .

فهل نال المسلمون حقوقهم الشرعية في هذه المناصب؟؟

تعالوا أيضاً إلى إحصاء دقيق لهذه المراكز الكبيرة وموظفيها، ونحن مستعدون للتفاهم على ضوء النتائج العادلة التي يفرضها هذا الإحصاء. .

وفي موطن آخر يقول: «غبطة البطريرك يحمل لقب «سيد لبنان». . لماذا يا سادة؟؟ إنه سيد طائفته لا سيد لبنان، فللمسلمين مفتيهم، وللشيعة مجتهدهم، وللدروز شيخ عقلهم، وللروم الكاثوليك بطريركهم. . وللروم الأرثوذكس كذلك».

«فالكل راع، وكل مسؤول عن رعيته». .

ويتحرك موكب «سيد لبنان» من «الديمان» إلى «بكركي» للإشتاء، ومن «بكركي» إلى «الديمان» للاصطياف. فتتحرك معه الدولة بما فيها من محافظين

وقائمقامين وموظفين، وتتحرك القرى والأرياف، فتنصب أقواس النصر، ويحتشد الألوف على الطرقات التي سيمر بها الموكب ويوضع البروتوكول الخاص فيتقيد به محافظ المنطقة وقائمو مقاميها وكبار موظفيها!!.

ويسير الموكب كما كانت تسير مواكب الغزاة الرومانيين أيام الإمبراطورية.

وينتقل سماحة المفتي من مَشْتاه في «بيروت» إلى مصيفه في «بحمدون» وبالعكس، دون أن يعلم به أحد، ودون أن يتحرك له ركاب رسمي أو غير رسمي.

وهكذا شيخ العقل للدروز، وقاضي المذهب الجعفري للشيعة، وبطريرك السريان والروم وغيرهم من كبار رجال الدين. امتيازات واستقبالات تُمنح للبعض ويُحرم منها البعض الآخر».

* * *

في هذا الجو الخانق بدخان التعصب، القائم فعلاً على تسخير الدولة لطائفةٍ معيَّنة يقال لنا وحدنا: كونوا علمانيين وأبعدوا الإسلام عن كل سلطة.

ويمضي السيد «جبران شامية» ليسوق الحجج القاطعة على استحالة قيام دولة عربية إسلامية فيقول: «تتجمع العقبات دون قيام الدولة العربية الإسلامية في أنَّ الإسلام نفسه ينقسم سياسياً!! وإن كان متحداً روحياً!!

فهناك الانقسام الرئيسي بين السنَّة والشيعة والخوارج.

والانقسام الفرعي بين التابعة لكل مذهب».

هكذا يقول السيد جبران! وهذه الانقسامات المهولة اختص المسلمون بها وبرىء النصارى منها، ولذا صحَّ قيام وطن قومي ماروني من القلة القاطنة في لبنان، واستحال قيام نظام إسلامي من الكثرة المهضومة.

ولا أدري كيف أصف هذه العوائق الموهومة، أو كيف أزن هذا الدليل .. فلأتركه لعقول الناس.

وثم مانع آخر من قيام الدولة العربية الإسلامية يذكره لنا الباحث المنصف.

هو أن الإسلام يستهدف «خضوع غير المسلمين للمسلمين في النواحي

المدنية والسياسية والاجتماعية، ويجعل منهم طبقة غير مساوية للمسلمين في الحقوق والواجبات، وغير قادرة على الاندماج في المجتمع الإسلامي إلا إذا تخلَّت عن دينها . . ».

وهذه عبارات مليئة بالسموم والجرأة على الحق، ولا يعدل ما فيها من باطل إلا ما فيها من كنود.

فإنَّ غير المسلمين ظلوا دهوراً بين الجماهير المسلمة وهم في الحقوق والواجبات العامة على قدم المساواة مع المسلمين.

في أحلك العصور ظلاماً وأوغلها في التعصب، نجا اليهود والنصارى من المجازر التي كانت تجتاح إخوانهم في أوروبا.

بل إن نصارى لبنان خاصة آخر من يشكو معاملة المسلمين، فإن هناك عرباً وسلاجقة تنصَّروا ليفرُّوا من قسوة سلاطين الترك على خصومهم السياسيين، ولينعموا بالامتيازات التي يستمتع بها النصارى المسمون أهل الذمة.

من هؤلاء أسرة آل شهاب المعروفة جيداً في لبنان.

فهل عقبى تدليل القلة المجاورة لنا من أهل الكتاب أن نؤوب أخيراً بوصفٍ نحن أبعد الناس عنه، وهو أننا نتعصب ضدهم؟؟

قال «أحمد محرم» يصف الإسلام وينصفه ويدعو إلى الوئام والاتحاد:

هذه مواقفنا في الدهر ناطقة ... فاستنبؤوها تريحونا من التُّهم
لا تظلموا الدينَ إنَّ الدين يأمرنا ... بما علمتم من الأخلاق والشِّيم
منا ومنكم رجال لا حلوم لهم ... ولا يفيئون للأديان والحرم
أنتم لنا إخوة لا شيء يبعدنا ... عنكم على عنت الأقدار والقسم!
ليس اللجاج بمدنٍ من رغائبنا ... ولا الشقاق بمجدينا سوى الندم
يا قوم ماذا يفيد الخلف فاتفقوا ... وقوِّموا أمركم بالحزم يستقم
صونوا العهود وكونوا أمةً عَرفت ... معنى الحياة فلم تعسف ولم تَهِم

وقال أيضاً:

كـذبَ الـوشـاة وأخطـأ اللـوَّام ... أنتـم أولـو عهـد ونحـن كـرام
حـب تجـد الحـادثـات عهـوده ... وتـزيـد فـي حـرمـاتـه الأيـام

وقال أيضاً:

يـا أمَّـة الإنجيـل آمنَّـا بـه ... مـا بـالنبـي ولا المسيـح جحـود
الـديـن فـي أمـر ونهـي واحـد ... والله جـلَّ جـلالـه المعبـود
دنيـا الممـالـك لا تحـد ودينُهـا ... وقـف علـى ديَّـانهـا محـدود

وقال «حافظ إبراهيم» فيما يشبه هذه القضية التي يقف فيها «المارون» موقف التعصب والتحامل رغبة في الاستئثار بالأمر في لبنان:

فهمـوا مـن الأديـان مـا لا يـرتضـي ... ديـن ولا يـرضـى بـه مـن يفهـم
مـاذا دعـا قبطـي مصـر فصـدَّه ... عـن ود مسلمهـا ومـاذا ينقـم؟
وعلامَ يخشى المسلمين وكيدهم ... والمسلمـون عـن المكـايـد نُـوَّم!!
قـد ضمَّنـا ألـم الحيـاة وكلنـا ... يشكـو، فنحـن علـى السـواء وأنتـمُ
إنـي ضميـن المسلميـن جميعهـم ... أن يخلصـو لكـم إذا أخلصتـم!

ولكن قبَّح الله الغزو الأوربي فهو الذي جيَّشَ ضدنا هذه المفتريات وأغرى المتعلمين في معاهده أن يعاملونا بهذا الأسلوبَ النابي.

* * *

وأخطر ما ينتهي به هذا المسلك موقف العرب من قضية فلسطين، فإن السيد «جبران شامية» يقترح لحلها أن تقوم سياستنا على «تقدير الحاجة الدولية إلينا تقديراً مضبوطاً، فلا نشتط بمطالب لا يمكن تحقيقها، ولا نبخس قيمتنا فنبيع أنفسنا بيعاً رخيصاً»[(١)] ومن ثم فهو يقترح ما يأتي:

(أ) تجميد الوضع الفلسطيني على حالته الحاضرة، والكف عن

---

(١) قواعد السياسة العربية الخارجية ـ منشورات مؤتمر الخريجين الدائم لقضايا الوطن العربي.

المحاولات المستمرة لإجراء صلح بيننا وبين إسرائيل حتى ينشأ الاتحاد العربي الكفيل بحل القضية الفلسطينية.

(ب) «التوقف عن مساعدة إسرائيل عسكرياً ومالياً واقتصادياً وسياسياً مساعدة لا تتناسب مع عدد سكانها أو مع مواردها والإقرار بأنها لا يمكن أن تعيش إلا برضانا»[١].

إن السموم المتفشية في هذه العبارات لا تخفى على ذي بصر، ولكل عربي مخلص في عروبته وفيٍّ لمستقبلها أن يتساءل:

ما معنى أن تعيش إسرائيل برضانا؟

ما معنى أن تساعد بنسبة عدد سكانها ومواردها عسكرياً واقتصادياً؟

ما معنى تجميد الوضع الفلسطيني على حالته الحاضرة؟

ودعك من الفضول التي حُشي بها الكلام ليخف ألم وقعه على الضمائر الحية.. أهذا ما عقد المؤتمر الدائم للخريجين العرب كي يقتنع به، ثم يقنع العرب والمسلمين بجدواه؟ نعم.

هو ذاك عندما كان في حضانة حفنة من الرجال المؤمنين بالغرب، المرتبطين روحياً وثقافياً بمصالحه وقضاياه..

هل عرفت سرَّ الدعوة إلى العلمانية؟ إنَّ جوها المحلول المائع هو الذي يتيح لإسرائيل أن تبقى في ضمانة من رضانا نحن العرب..!!
وعندما تبقى في حدودها الآن، أي عند خطوط الهدنة فلا بأس أن تعان بما لا يمكنها من توسع جديد.

والذي يعينها هو الذي أوجدها ، وقد ينضم إليه من رضي بوجودها كذلك..!!

والحق أن عبارة تجميد الوضع الفلسطيني، هي تعبير يرادف ما صرح به

---

(١) المصدر السابق.

السيد «إميل البستاني» الأمين العام لمؤتمر الخريجين، فقد ذكر في كتاب «العرب والغرب» أنَّ قضية فلسطين ينبغي أن توضع على الرف ـ وإن تعلل لهذا الوضع على الرف ـ بأنه إلى أن يستكمل العرب قواهم!!

ولما كان طريق استكمال القوة عنده لا يجيء إلا من الغرب، والغرب وحده. . .!!

ولما كان هذا الغرب هو الذي صنع إسرائيل، وهو الذي يمدُّها ويغريها ويدفع عنها ويخاصمنا من أجلها، فالنتيجة المحتومة أنَّ قضية فلسطين ستركن على الرف إلى الأبد، أو ستجمد ـ كما يقول السيد جبران ـ داخل المصير الذي انتهت إليه عند خطوط الهدنة.

إننا نطالب رجالات لبنان في ميدان الثقافة والسياسة أن يكونوا عرباً مخلصين للعروبة ولقضاياها، وأن يسري في أفئدتهم الحزن الذي يشملنا للعرب اللاجئين، والغضب الذي يجمعنا لتآمر الأقوياء على إضاعة فلسطين.

إنَّ اتجاههم الروحي إلى الغرب خروجٌ تام على مقتضيات العروبة في أيام قرر الغرب فيها أن يناصر اليهود، وأن يقيم دولتهم على أنقاضنا.

إنَّ كل مشتغل بالشؤون العربية لاحظ ما في مسلك لبنان من ريبة.

وقد غمز الأستاذ «محمد التابعي» هذا المسلك بكلمة جاء فيها:

«إن لبنان لم يسفر بعد ـ حتى اليوم ـ عن سياسة محددة صريحة، لأنه لا يزال (يتريَّث)!

وسياسة (التريث) هذه سياسة مبتكرة وَرَدت أول ما وردت على لسان وزير خارجية لبنان الأسبق السيد «الفريد نقاش». .

ثم وردت في بلاغ رسمي أو شبه رسمي عقب الجلسة التي عقدها مجلس وزراء لبنان منذ شهر تقريباً برئاسة فخامة الرئيس «كميل شمعون» ـ وقد تغيَّب عن الجلسة رئيس الوزراء السيد رشيد كرامي ـ.

وقال البلاغ الرسمي يومها: إنَّ مجلس الوزراء قرر (التريُّث) في عقد الميثاق العسكري الثنائي مع سوريا.

ولا يزال (التريث) قائماً حتى ساعة كتابة هذه السطور!

وأحب أن ألخص هنا الحالات التي (تريَّث) فيها لبنان..

والحالات التي لم (يتريَّث) فيها:

* تريَّث في عقد الميثاق الثنائي العسكري مع سوريا!..

* وتريَّث في مكافحة تهريب البضائع الإسرائيلية!..

* ولكنه لم يتريَّث في وضع حد لنشاط الفدائيين الذين كانوا يتسللون من أراضي لبنان إلى إسرائيل ليقوموا فيها بعمليات تخريب واسعة النطاق.

ولم تتريَّث هنا حكومة لبنان بل بادرت فوراً وحشدت جيشها على طول الحدود، وأمرت بإطلاق النار على كل من يحاول التسلل عبر الحدود.

* ولم تتريَّث حكومة لبنان في الاستجابة إلى طلب حكومة إسرائيل الخاص بالسماح لقصاصي الأثر بدخول لبنان وتتبع آثار الفدائيين..

لم تتريث حكومة لبنان بل بادرت، وأذنت، وسمحت على الفور!

والآن قارنوا بين الحالات التي (تريثت) فيها حكومة لبنان.

والحالات التي رفضت أن (تتريَّث) فيها..

واخرجوا بالجواب على هذا السؤال..

أيُّ النفوذين أو أي الكلمتين أعلى وأقوى في لبنان؟».

* * *

وهؤلاء القوم يصطنعون الخبرة الواسعة والإدراك الدقيق لواقع العالم العربي والسياسة الغربية، ويسخرون من مشاعر الحماس والرجاء التي تدفع الأمة العربية إلى رفض الاستسلام للواقع المر، والإصرار على تحقيق مطالبها. مهما تعرضت له في سبيلها..

مطالبها. مهما تعرضت له في سبيلها. .

وقد كتب السيد «لبيب زويا» رسالة[1] مبهمة في التنديد بما أسماه «السياسة العاطفية» أُعدَّت هي الأخرى للمناقشة في الدورة الثانية، لولا أنَّ الله سلَّم، خَتَمها بهذه الجمل:

«إذا كنّا واقعيين في نظرتنا إلى العلاقات الدولية ـ ويجب أن نكون كذلك ـ يصبح من الضروري أن نفهم واقع العلاقات الدولية، وأهمية العمل العقلي في تسييرها والنتائج العملية الصادرة عن ذلك:

فالعلاقات الدولية هي علاقات قوى بُنيت في أساسها على المصالح.

والعمل العقلي هو الطريقة الصحيحة لتعيين هذه المصالح وتحقيقها.

إن النظرة الواقعية كفيلة بأن تكسر الدائرة المفرغة التي ندور ضمنها.

فنبدأ حيث يجب أن نبدأ، أي من مصالحنا، معتمدين على العمل العقلي وحده.

. . عند ذلك يكون لموقفنا السياسي وزن ومعنى».

ولست أدري بالضبط هل تختلف مصالح العرب عن مبادئهم.

أو هل تختلف عواطفهم عما يقتضيه المنطق السديد؟

إننا بعقولنا وقلوبنا نمقت العدوان اليهودي.

ونمقت الصليبية الغربية التي تغذيه وتنميه.

ونكره كل محاولة لجعل الشرق الأوسط ذنباً لدول الميثاق الثلاثي.

ونستنكر نيات الغدر المبيَّتة لديننا وعروبتنا.

وخير ما نعلق به على كلام السيد «لبيب زويا» كلمة الأستاذ أحمد حسن الباقوري رئيس الوفد المصري الذي حضر الدورة الثانية لهذا المؤتمر إذ قال:

«لقد كسب العرب من وراء هذا المؤتمر أن اختفت تلك الصيحات التي

---

(١) الدول العربية في السياسة الدولية. منشورات مؤتمر الخريجين.

كانت تهتف دائماً بما يسمى الواقعية، وتحكيم العقل، والتخلص من أحكام العواطف.

فإنَّ كثيراً من ساسة العرب. كانوا يرددون في بلادهم وبين شعوبهم كلمات احترام العقل الوقور والخضوع للواقع الرشيد.

وقد كانت هذه الكلمات من أشد ما يثير نفوس المتحررين ويدفع بها إلى أشد الضيق.

والحق أنه لا توجد في دنيا الناس كلمة آلم للنفوس من كلمة احترام الواقع، فلو كان كل واقع يجب احترامه لوجب أن نحترم اغتصاب اليهود فلسطين، فإن هذا الاغتصاب أمر واقع.

ثم لوجب أن نحترم التفرقة بين الأجناس والألوان مع تساوي المعنى الإنساني في أنفس عباد الله جميعاً، لأن هذه التفرقة أمر واقع.

ثم لوجب أيضاً احترام احتلال الأقوياء للأمم الضعيفة واستغلال مواردهم، واستعباد نفوسهم، لأن هذا كله من الأمور الواقعة..

ولا تظن أن دعاة احترام الواقع يقولون بهذا القول، أو يسلكون هذا السلوك، فإن معنى ذلك الدعوة الصريحة إلى استسلام الضعفاء للأقوياء والمغتَصَبين للمغتَصِبين، ولا يوجد عقل يحترم هذا المنطق، لأنه لا يوجد لسان يقول هذا المقال».

وهذا ما يتوقع من الأستاذ الباقوري في الرد على ما رأى من رضا بالهزيمة، واستهانة بقضايا العروبة.

* * *

كان خريجو الجامعات الأمريكية يبغون تسيير دفة المؤتمر المشتغل بقضايا العروبة في اتجاه يستريح له ساسة الغرب، وفي سبيل هذا طلبوا من الأمة الإسلامية أن تقتفي أثر تركيا في «العلمانية» المجردة.

وتركيا هي التي تؤيد بقاء إسرائيل في الشرق الأوسط، وهي التي خذلت

الجزائر العربية المجاهدة ونصرت عليها فرنسا التي تريد «تغريبها وتنصيرها».

إنَّ أول نتائج العلمانية، أن نخون تاريخنا ولغتنا ونتخلى عن آمالنا وقضايانا، ونطرح ـ قبل ذلك ـ ديننا ورسالتنا!!

إنَّ العلمانية التي يطبّل لها فريق من الصحفيين المريبين تعني ـ فيما يتبادر إلى الأذهان ـ اطراح الأديان جانباً والإقبال على تنمية المصالح القومية المشتركة، على أساس من المغالاة بالخصائص الجنسية الواحدة.

ودعك من اطراح الأديان هنا لا تفسير له إلا اطراح الإسلام وحده.

ولننظر: هل أولئك العلمانيون مخلصون في عروبتهم نفسها أم أن الأمر كله لا يعدو المخادعة لنقل بلادنا إلى الغرب، أو نقل الغرب إلى بلادنا على حساب العربية والتضحية بها؟

إن الدكتور «طه حسين» تحدث في الإذاعة عن ضرورة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

وتبعه في صحيفة الأخبار الخواجة «سلامة موسى» الذي أخذ يستهزىء ببعض قواعد التصريف في لغتنا، ويصف اللغة اللاتينية بأنها لغة العلوم والفنون.

هؤلاء، هم العلمانيون، وهذا مدى تعلقهم بالعروبة.

ومن أحقر المقارنات التي رأيتها، المقارنة التي عقدها «سلامة موسى» بين قواعد التصغير في لغتنا وبين تفجير الذرة، مشيراً بهذا إلى تأخرنا!!

كأنَّ اللغة الفرنسية وغيرها ليست متخمة بالقواعد الكثيرة وعشرات الحروف التي لا تنطق مع وجوب كتابتها.

تلك هي العلمانية وهذه هي نيتها نحو العروبة.

* * *

ومع أن الوفد المصري أنقذ المؤتمر من هذه المنكرات، إلا أن لي ملاحظات على الطريق التي سار فيها.

لقد رفع راية العروبة، وهذا حسن، فإن المحافظة على هذه العروبة ـ

كما أوضحنا آنفاً ـ يدفعنا إليها، نحن المسلمين، تمسكنا بأصلنا، وتعصبنا للغتنا وتاريخنا. . ويدفعنا إليها كذلك حرصنا على إسلامنا وقرآننا.

والنصارى العرب يشركوننا في المعنى الأول، ولا مكان لتفاضل فيه بين فريق وفريق، بل نستطيع التعاون في ظله إلى مدى بعيد.

وهذا التعاون ليس مستحدثاً في هذا العصر، بل هو امتداد لما كان في أعصار مضت. . .

بَيْد أن العروبة لا تفرض على المخلص لها أن يترك نصرانيته أو إسلامه.

وقد كنت أستغرب من الرياسة الجديدة للمؤتمر، ومن هيئة المكتب المشرفة على نظامه أنها شديدة الحرص على إبعاد أية شاردة دينية عنه.

سبحان الله ! ما أزهدنا في إسلامنا وفي شعائرنا كلها. . !!

فما ذكر اسم الله حتى في كتاب أعمال المؤتمر، على حين كان يجب أن تفتتح الجلسات باسم الله، وأن يستعان به كلما احتدم النقاش وتوترت الأعصاب، وأن يحمد أخيراً على ما وصل إليه المؤتمر من قرارات وأن. . . وأن. . . لكن الله ما ذُكر في الصلاة، ولا شأن من الشؤون.

وعلى كل حال، فإنَّ الحفاظ على أماني العرب وحراسة بلادهم من الاستعمار كسب وإن كان محدوداً فهو جدير بالتنويه والثناء.

لندع حديث المؤتمرات التي خاصمت الإسلام بهذا الأسلوب الأدبي اللطيف، ولنلق نظرةً سريعة على ميدان آخر يُذبح الإسلام فيه بالسيف، ومن الخير تذكير قرائنا أنَّ هذا الكتاب طبع لأول مرة من نيف وعشرين[1] عاماً. ومع مرور هذه السنين فإن أحكامنا لم تتغير ونظراتنا إلى الأمور لم تزدها الأيام إلا صدقاً.

---

(١) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥، والطبعة السابقة لهذه ١٩٧٩.

دسائس الاستعمار الغربي منذ قرن

ليس شيء أحق بالزراية من حروب الفتح والتوسع.

سواء كانت هذه الحروب إشباعاً لنزوات فرد مغرور كما حدث في العصور الأولى، أم كانت إشباعاً لمزاعم شعب طامع كما يقع في حروب الاستعمار الحديث.

إنَّ سفك الدم الواحد جريمة تهتز لها الأرض والسماء، فكيف بمن يشعل المعارك الطاحنة. ويسوق لخوضها الألوف المؤلفة، ولا يبالي أن تتمخض عن جماهير غفيرة من الضحايا واليتامى والأيامى؟

إنَّ الله بريءٌ من هؤلاء الجزَّارين، وإن لعنته الكبرى لتتبعهم إلى يوم الدين.

وقد بُليت الأديان بنفرٍ من أولئك الحكام الغلاظ، استهوتهم الأمجاد الخاصة وأغراهم السلطان المطلق، فأداروا رحى القتال في ميادين شتى ولم يعجزهم أن يستروا أثرتهم هذه وراء أستار من النيات الحسنة والمقاصد المشروعة.

والله يعلم أنهم ماأحسنوا في حرب ولا سلم، وأنهم ما أرضوه فيما تحت أيديهم من أرض ورعية.

فكيف يرضونه فيما هو أبعد من ذلك متناولاً..!!

هل تعرف خديوي مصر «إسماعيل باشا»؟.

إنه الرجل الذي مَهَّد وادي النيل للاحتلال الأجنبي، واجتاح أموال العباد ليهلكها في شهواته ومباذله، ونظر إلى أوروبا نظرة الحيوان المنهوم، فلم يرقه منها إلا الفسق عن أمر الله، فقرر أن يجعل مصر قطعة من أوروبا.

ليس لهذا الرجل صلة تذكر بالدعوة الإسلامية.

والبلاد التي فتحها أو حاول فتحها، هي أرض يزيِّنُ بها تاجه، ويرضي بها تطاوله، مهما ضاع في هذه السبيل من رجال وأموال.

ولقد وقفت طويلاً عند حملاته العسكرية على الحبشة فأسفت لها.

وحزنت للضحايا البريئة التي ذهبت هدراً في هذه البلاد.

وآذاني أن ألوفاً من فلاحينا الطيبين يقادون إلى حتوفهم على النحو المخزي الذي رسمه«التبشير الفرنسي» و«النفوذ الأمريكي»و«الجشع التركي».

أجل فإنَّ هلاك جيشنا في جبال الحبشة تمَّ نتيجة مؤامرة محكمة،اشتركت فيها هذه الأطراف كلها، وباءت عند الله والناس بإثمها!!!

أعرف أنَّ في الحبشة كثرةً مسلمة مضطهدة، وأنَّ التعصب الحالك يحرمها أيسر الحقوق، وأنها بحاجة إلى من يكشف عنها ما ينزل بها من كروب.

ولكنَّ شيئاً من ذلك ما كان يجول في خاطر الخديوي وهو يغزو الحبشة. ذلك أنه كان يوقع بالمصريين أمثال هذه المظالم.

والمستبدون ـ وهم يضخمون نفوذهم ـ لا يكترثون بالأديان وتعاليمها، ولا بالأمم ومذهبها.

إنَّ الأتراك فتحوا القاهرة يوم كانت عاصمة إسلامية، كما فتحوا القسطنطينية يوم كانت عاصمة نصرانية.

والقول بأن هذا التفوق الحربي لون من الجهاد في سبيل الله، هو لاشك ضربٌ من الهراء.

فالجهاد شأن آخر، له شروطه، وله أهله، وله مجاله، وله ثمراته على الحالين، من نصر أو هزيمة، وفي الحياتين من معايش أو معاد...!!

أمرَ الخديوي «إسماعيل» بغزو الحبشة، وأرسل جيشاً مصرياً مكوناً من ثلاث فرق، جعل قائده العام «راتب باشا».

وأوصى الخديوي قائده أن يتقيَّد برأي الجنرال« لورنج» رئيس أركان الحرب. وهو أمريكي التحق مع نفر من بني جنسه بخدمة الخديوي لأغراض

استعمارية. فكان دوره في الجيش المصري كدور الجنرال «جلوب» في الجيش العربي.

كلهـــم أروغ مـــن ثعلـــب!!   مـــاأشبـه الليلـة بـالبـارحـة!!

وكان الضابط المصري أحمد عرابي مشتركاً في الحملة.

وعن مذكراته التي نشرتها «دار الهلال» نسوق وقائع وجيزة عن هذه المأساة أو المهزلة.

«.. زحف الجيش وروحه المعنوية في الحضيض! ما الذي يغريه بالقتال؟ إنَّ الأقوات التي يحملها، والدواب التي تنقله، أخذت اغتصاباً من الفلاحين المساكين!».

وهؤلاء الجنود جمعتهم السلطة الباطشة على كره، فما يبغي أحدهم أن يسير في هذا الوجه.

وللناس في ظل الاستبداد السياسي أحوال متناقضة، كل امرىء منهم ناقم مغيظ إذا خلا بنفسه، فإذا اجتمع بغيره رسبت ثورته في أعماقه، وأظهر مكانها الرضا، فهم كما قيل:

على الـذم بـاتـــوا مجتمعين وحـالهـــم   من الذعر، حال المجتمعين على الحمد

أما القائد الأمريكي المأجور فقد عرف وظيفته جيداً، عرف أنه مكلف بسوق هذا الجيش كله إلى المجزرة.

ومن ثم لم يرسم له خطة حرب ولا خطة نجاة:

قال أحمد عرابي: «وكان أحد القسس الفرنسيين المبشرين في بلاد الأحباش يتردَّد كل يوم على رئيس أركان الحرب «الجنرال لورنج» مستطلعاً أحوال الجيش المصري حتى علم بمقداره، واتفق معه على الصدمة الأولى».

وعن طريق هذا القسيس المبشِّر تصل المعلومات العسكرية إلى الملك «يوحنا» ملك الحبشة. وعلى ضوئها يتقرر مكان المعركة وزمانها.

قال أحمد عرابي: «فلما علم الجنرال بأنَّ الملك «يوحنا» فرغ من ترتيب جيشه على مقربة من «قياخور» طلب من القائد العام الخروج من قلعة «قرع» في صباح يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٨٧٦م.

فخرجت سبع فرق مشاة وبطاريتان من المدفعية إلى النقطة التي اتخذت ميداناً للقتال. وهي على بعد ميلين من «قياخور».

وكان ترتيب فرقة المشاة على شكل طابور والمدفعية على اليمين، ووراءهم جبل، وأمامهم خور عميق، لا ماء فيه، كأنه خندق طبيعي.

وكان هذا الخور ملتفاً حول الجبل من الميمنة والميسرة.

فظنوا أنهم بهذا الخور في حرز منيع من هجوم العدو عليهم.

وكان (مكلس بك الطلياني) من أركان الحرب، قد توجه من قبل بالفرقة الأولى من آلاي عثمان بك غالب وبكباشي أحمد أفندي شعبان، وعسكر خلف الجبل المذكور، بحيث لا يرى ميدان القتال، ولا يعلم أحد سبب وضع فرقته خلف ذلك الجبل!!

واستعد جميع أركان الحرب الأوربيين والأمريكيين للملحمة، فألقوا جانباً طرابيشهم الرسمية، ولبسوا قبعاتهم، ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى أنهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القسيس السابق ذكره..!!

وبعد أن أخذ كل من الجيشين مكانه ورتَّب رجاله ابتدأ جيش الحبش بإطلاق المدافع. وكان معه ثمانية مدافع أهديت إلى الملك «يوحنا» من رئيس الحملة الإنجليزية مكافأة له على مساعدته الإنجليز في محاربة الأحباش في عهد الملك (تيودور) الذي انتحر في قلعة (مجدلة) بعد انخذال جيشه.

وخلفه «يوحنا» على عروش الحبشة ـ وإن لم يكن من بيت الملك ـ بل كان رئيساً للأشقياء وقطاع الطرق.

وكان معه كذلك ستة مدافع مصرية غنمها في هجومه على « أراكيل » بك، فأخذت المدفعية المصرية في قذف الأحباش بنار حامية.

وعندئذٍ قسم الملك «يوحنا» جيشه إلى ثلاثة أقسام: فذهب قسم إلى خور يخفيه عن عدوه، ثم دار على يمين المصريين بالأسلحة البيضاء.

وقسم ذهب إلى شمال المصريين في خور أيضاً، ومعه الحراب والسيوف.

وقسم مسلح بالبنادق، قصد القلب مستتراً بالأشجار الملتفة وأعواد الخيزران المتشعبة.

جرى كل هذا تحت مرمى المدافع المصرية الساكتة!.

ولم تكد الأحباش تقترب من العساكر المصرية حتى أطلقوا عليهم ناراً شديدة.

ثم اشتبك الجيشان في قتال عنيف هجمت فيه ميسرة الجيش على ميمنة المصريين بالسلاح الأبيض من خلفهم بقوة عظيمة، فأفنوا رجال المدفعية في طرفة عين، واختلطوا بالآلاي الأول اختلاطاً هائلاً، فانهزمت العساكر المصرية، وسلموا ظهورهم لحراب العدو، واندفعوا إلى الشمال بدون انتظام..!!

وأحاطت الأحباش بفرقة أحمد شعبان التي كانت خلف الجبل على حين غرة. فقاتل برجاله قتال الأبطال حتى فرغت ذخيرتهم الحربية.

ثم قاتلوا بالسونكي (أي حراب البنادق) حتى ضعفت قواهم وخارت عزائمهم، واشتد بهم العطش فأفناهم العدو عن آخرهم.

وكان رصاص بنادق الفرق المذكورة يصل إلى خط القتال، فأصاب كثيراً من المصريين من بينهم المرحوم (راشد باشا راتب) رحمه الله تعالى.

أما «محمد جبر» حكمدار الآلاي الأول، فقد انضم إلى فرقة البكباشي «محمد أفندي علي» الذي ثبت في مكانه. ورتَّب رجاله على شكل قلعة، ثم قاتلوا الأحباش بشجاعة مدهشة. حتى فرغت ذخيرتهم الحربية، فاستعملوا حراب بنادقهم حتى خارت قواهم واختلط بهم الأحباش، فأفنوهم جميعهم.

رحمهم الله تعالى!!!.

وأما باقي الفرق فكانت مندفعة في هزيمتها كالسيل الجارف، والسيف يعمل في أعناق رجالها من خلفهم.

ومن ألقى بنفسه في الخور المذكور، قتله الحبش من القسم المعين للميسرة.

وما زالوا كذلك حتى أفنوهم عن آخرهم، إلا من كان على رأسه قبعة، أو في عنقه منديل من أركان الحرب، أو من أسرع به جواده كراتب باشا و «حسن باشا» ابن الخديوي إسماعيل.

واغتنم الأحباش الأسلحة، والذخائر الحربية، والأموال، وملابس العساكر، وما معهم من حُليّ وساعات ونقود، بعد أن قتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا».

* * *

وهكذا اندحر الجيش المصري، بل هكذا فني رجاله الأبرياء في معركة أشرف عليها أولاً وآخراً زبانية الاستعمار الغربي.

قائد أمريكي خائن، ومبشِّر فرنسي جاسوس، وحاكم تركي غِر، وأحقادٌ صليبية يقظة.

وبعيداً عن مصر بآلاف الأميال كان أبناء الفلاحين الملتاعين بين الخامسة عشرة والثلاثين سنة يذبحون جماعات جماعات، ويتساقطون كورق الخريف اليابس هبت عليه رياح هوج . . .

مسكينة أمتنا هذه كم لقيت من عسف الملوك . . !!

لِمَ هذا الإرخاص الدنيء للرجال والأموال؟ .

قد تقول ـ ومن حقك أن تقول ـ: إنَّ الأحباش دافعوا عن أرضهم، وردوا بالسيف من حاول العدوان على وطنهم.

ليكن ذلك! فإذا تيقظ أهل مصر، ورأوا الخلاص من الملك الذي جرَّ عليهم هذه المحن، فما تدخل الإنكليز وأحلافهم لحماية العرش الفاسد.

وإكراه أهل مصر على الخضوع له؟؟.

عندما تمرد الجيش على الخديوي «توفيق» أسرعت انجلترا إلى إنزال قواتها بأرضنا لإرغامنا على قبول هذا اللون من الحكم الفاسد.

ما السرُّ في ذلك؟ ما بواعث هذه السياسة الفاجرة؟.

الواقع أنَّ تصرفات «إسماعيل» وابنه، وأمثالهما من حكام الشرق الإسلامي تدور داخل الحدود التي يرسمها الاستعمار الأجنبي، وأنَّ حملة الحبشة وغيرها لم تكن إلا بعض الخطط المبيَّتة المدروسة لتضليل سعينا وبعثرة قوانا، وإماتة نهضتنا.

ولا شك في أنَّ إغراءً كثيراً أحاط «بالخديوي» المغرور، ليرسل الجيش إلى مصرعه بالحبشة على النحو الذي رأيت.

وأن انجلترا وفرنسا وأمريكا تحمل الوِزْر الأكبر في تدوِيخ المسلمين، وملء طريقهم بالعقبات الكؤود.

كلما نجوا من واحدة ارتطموا بأخرى.

ولولا المتاعب الهائلة التي ترمينا بها هذه الدول لأحرزنا من التقدم في أعوام، ما عجزنا عن نيله بعد قرن من الزمان.

وإليك مثلاً[١] من مساندة الأمريكان الخفية والجلية للضغط الأجنبي على بلادنا:

«قدم «تيودور روزفلت» رئيس الولايات المتحدة الأسبق إلى مصر في مارس سنة ١٩١٠م بعد أن زار السودان، وبعد أن ألقى في عاصمته «الخرطوم» خطبة سياسية خطيرة أثنى فيها على الإنكليز، ومجَّد احتلالهم لوادي النيل..

وكان الرجال الأحرار في هذه الآونة العصيبة يكافحون بطش الدولة المعتدية ويندِّدون بآثامها، ويرفعون عقائرهم بضرورة خروجها، وينشدون

---

(١) عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ـ للدكتور محمد حسين.

لبلادهم حرية في الداخل والخارج، تقضي على كل بقية للاستبداد السياسي، وتقيم نظاماً ديمقراطياً جديداً ينعم الجميع في ظلاله. . !!

لكن الرئيس الأمريكي لم يستحِ من إلقاء خطبة أخرى في الجامعة المصرية يعارض فيها حركة المطالبة بالدستور، ويقول:

إنَّ تربية الشعب ـ لكي يصبح صالحاً لحكم نفسه ـ تتطلب أجيالاً متتابعة.

وقبل أن تتمَّ هذه التربية فستكون نصوص الدستور حبراً على ورق. . ».

والذي يقوم على تربية الشعوب لتصلح للنظام الدستوري هم ـ في نظر الرئيس الأمريكي ـ المستعمرون المعتدون، والحكام القاسطون. . !!

إن الأمة تمرن على الحرية في ظل الحرية لا في ظل الكبت.

وتعرضها للخطأ والصواب هو الذي ينادي بها إلى الرشد في نهاية الطريق وقد كانت حجة الاستعمار في فرض وصايته على الأمم المستضعفة أنها دون المستوى المطلوب للحرية.

ولعل أدل شيء على صدق حجته أنه ما دخل بلداً فيه نبْتٌ للتقدّم إلا اقتلعه، وأنه يحول الأمم المنكوبة به إلى قطعان تكدح له وتموت من أجله. .

والغريب أن الجامعة المصرية منحت الرئيس الأمريكي لقب الدكتوراه الفخرية! مما أثار هياج الجماهير فانطلقت المظاهرات تنادي بسقوطه حيث كان ينزل في فندق «شبرد».

وظلت تتابعه حتى سافر من الإسكندرية عائداً إلى الولايات المتحدة حليفة الديمقراطية الكبرى وحارسة الحريات في العالم. . !!

* * *

ويمكن القول: إنَّ جولة الرئيس الأمريكي «تيودور روزفلت» في ربوع وادي النيل كانت تبشيرية.

وإنَّ الضغائن التي انتقلت من أوروبا إلى العالم الجديد ـ ضد الإسلام وأهله ـ كانت تتبع هذا الرجل وهو يتحدث في الخرطوم وفي القاهرة.

وتستطيع أن تتفرس في أعماله وأقواله سيرة الجنرال الأمريكي الخائن «لورنج» بطل مآسي الحبشة.

ذلك أن مجيئه حرك العناصر المريبة، وأمدها بقوة جديدة في التحرش بالإسلام وأمته.

وليس من قبيل الاعتباط أن يلقي هذا الرجل خطبته الآنفة، ثم تكتب «جريدة مصر» الطائفية المعروفة مقالاً في تأييدها له بدأته بهذه العبارة:

«لم يدوِ في جو مصر خطاب أبلغ من الخطاب الذي ألقاه «المستر روزفلت» أمس في الجامعة المصرية، ولا أصرح منه عبارة ولا أنفع لها في الحال والاستقبال.

وقد قوبل من جميع الطبقات بالإعجاب التام، لأنه صدر عن إخلاص صحيح، ورغبة تامة في خير البلاد..!!

ولم تكن الصحف الوطنية الإسلامية ـ وهي تخاصم الاحتلال الأجنبي ـ بجاهلة هذه التيارات الرديئة، أو غافلة عن التيارات التي يلقح بعضها بعضاً، في كراهية الإسلام، والتآمر على مستقبله.

فشنَّت حملة شعواء على مؤيدي التدخل الأمريكي، وفَضَحت ما يعتمل في نفوسهم من تعصب ذميم.

ومع ذلك عادت «جريدة مصر» تثرثر بدفاع مريض، عن الأشخاص الذين اتصلوا «بروزفلت» أو اتصل بهم «روزفلت» وأوحوا إليه أن يقول ما يقول[١]...».

* * *

---

(١) عن الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.

وها قد مضت تسعون سنة على مهلك جيشنا في الحبشة، وخمسون على هجمة روزفلت الأول ضد حريتنا[1] . . .

فهل نسي القومُ على مرِّ السنين هذي السخائم؟ .

من عشر سنين[2] كان الشعار الذي يتصايح به اليهود في أرجاء الولايات المتحدة: ادفع دولاراً تقتل عربياً!

وبين تأييد وتشجيع مائة وسبعين مليون مسيحي هناك، استطاع إخوان القردة أن يرموا بأثقالهم على فلسطين، فإذا أهلها العرب حيارى في العراء، وإذا اليهود ـ بمعاضدة أمريكا وحلفائها ـ هم أصحاب البلاد. .

وفي هذه السنة يتحرك عرب المغرب لاستنقاذ أنفسهم من وطأة الكابوس الفرنسي الآخذ بخناقهم يبغي إزهاق أرواحهم.

ولا ترى فرنسا معاذاً تجنح إليه في إطفاء ثورة المغاربة الأحرار إلا الاستعانة بقوات حلف الأطلسي براً وبحراً.

وهي القوات التي عَبّأتها «أمريكا» لحرب الشيوعية.

ولكن الظاهر إلى الآن، أنَّ الاستعمار الغربي يرى الإسلام عدواً أحق بالقتال من الشيوعية.

ويرى قتل الشعوب المسلمة أهم لديه من خَضْد شوكة الروس ومن معهم.

إننا ـ بداهة ـ نعرف ما أسلفت الشيوعية لإخواننا من أسى في بقاع شتى.

بيد أنه قليل إذا قيس بما صنعه ويصنعه الاستعمار الغربي.

إنه استعمار النقمة على الإسلام، بادي الإصرار على محقه.

وليس هذا شعور رجل يقظ الحساسية لما يقع على دينه من اضطهاد، وعلى إخوانه من غبن.

ولكنها الحقيقة التي أبصرها أناس لم يعرفوا يوماً بالحمية للإسلام، ولا الكآبة لما يصيب قضاياه من وكس وهوان.

---

(١) و (٢) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥، والسابقة لهذه ١٩٧٩.

كتب الأستاذ «محمد التابعي» تعليقاً على سياسة فرنسا في المغرب ما يلي:

«ترى هل كان الغرب المسيحي أول دول العالم الكبرى المسيحية. . هل كانت تسكت على الفظائع التي ترتكبها فرنسا في الجزائر ومراكش، لو أنَّ أهل هذين البلدين كانوا مسيحيين. . ولم يكونوا مسلمين؟

هل كانت أمريكا وبريطانيا ودول أوروبا المسيحية ودول أمريكا الجنوبية، وهل كان الفاتيكان وربه قداسة البابا صاحب الكلمة المسموعة المحترمة في دنيا المسيحية. . هل كان هؤلاء وهؤلاء يسكتون على حرب الإبادة الدينية التي تشنُّها فرنسا على قرى وأبناء مراكش والجزائر، لو كان هؤلاء من المسيحيين؟

. . و«حرب الإبادة الدينية» عبارة اقتبستها من رسالة كتبها فرنسي مسيحي لا عربي مسلم أرسلته جريدة فرنسية لموافاتها بوصف الحالة في الجزائر ومراكش وأنباء المعارك التي تدور في البلدين بين الثوار المجاهدين وجند فرنسا.

والجريدة الفرنسية هي «اللموند» ومندوبها ـ إذا صدقتني الذاكرة ـ هو مسيو سابليه. . فقد قال الرجل في إحدى مقالاته:

«إن ما يجري في القطرين العربيين هو حرب إبادة دينية بمعناها الحقيقي».

قرى تدكها قنابل الطائرات الفرنسية، ودور تهدمها الدبابات الفرنسية على رؤوس ساكنيها المسلمين.

وجماعات تُحشد وراء الأسلاك وتحصدها المدافع الرشاشة.

والعالم المسيحي يرى ويسمع. . ويسكت!

والقليلون فيه هم الذين يرفعون أصواتهم بالاحتجاج!

. لأنَّ مراكش والجزائر قطران عربيان مسلمان!

وفي أوائل القرن الحاضر، أو منذ خمسين عاماً، ثارت أرمينيا ضد الحكم التركي. . . وقمع سلطان تركيا ـ وهو يومئذ عبد الحميد الثاني ـ قمع ثورة

الأرمن بالحديد والنار.

ومع أنَّ الجنود الأتراك لم يرتكبوا من المذابح نصف ما ارتكبه الفرنسيون في الجزائر ومراكش. ولم يدكوا قرى الأرمن بالقنابل أو يحصدوا الأرمن أنفسهم بالمدافع. فإنَّ العالم المسيحي كله ـ في أوروبا وأمريكا ومعه الفاتيكان ـ فزع ونفر لنجدة أرمينيا.

وعلا صراخ الاحتجاج في عواصم القارتين المسيحيتين: أمريكا وأوروبا.

وتسابق سفراء الدول الكبرى المسيحية إلى «الباب العالي» يقدِّمون احتجاجَ دولهم على المذابح التي تجري في أرمينيا، والدماء التي تراق في قرى أرمينيا.

وخلعت صحافة العالم المسيحي يومئذ على سلطان تركيا لقب «السلطان الأحمر» فأصبح اسمه «عبد الحميد الأحمر». لأنه قد صبغ اسمه وحكمه بالدماء.

واليوم[1] يجري في مراكش والجزائر أضعاف ـ ما وقع ـ في أرمينيا، فلا يتحرك العالم المسيحي ولا يغضب ولا يحتج.

لأنَّ أرمينيا بلد مسيحي، والأرمن مسيحيون!!، أما مراكش والجزائر فقطران عربيان مسلمان.

وهذا هو الفرق كل الفرق ولا فرق سواه.

فالثورة في أرمينيا، كانت من أجل التحرير والاستقلال، والثورة في الجزائر ومراكش من أجل التحرير والاستقلال.

وانظر إلى خريطة العالم وابحث:

هل تجد فيها بلداً أو شعباً مسيحياً محكوماً أو خاضعاً لحكم أجنبي؟

لن تجد، ولكنك ستجد بلداناً وشعوباً كثيرة تدين بغير المسيحية ـ بالإسلام مثلاً أو بغيره من الأديان ـ وهي خاضعة للحكم الأجنبي.

وذلك أنَّ الدول المسيحية تضافرت منذ أوائل القرن الماضي «التاسع عشر» على تحرير الشعوب المسيحية من حكم المسلمين.

---

(١) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥ وفرنسا تحتل المغرب.

لا لسبب إلا لأنَّ هؤلاء مسيحيون، وهؤلاء مسلمون.

وهكذا تكاتف الغرب المسيحي على تحرير اليونان، وبلغاريا، ورومانيا، والصرب، من حكم آل عثمان!!!

لا لأنَّ حكم الأتراك كان سيئاً ـ وقد كان فعلاً كذلك في بعض الجوانب ـ وإنما لأنَّ هذه الأقطار أرض مسيحية، سكانها مسيحيون.

ولو كان الحكم السيِّيء هو سبب التحرير لوجب تحرير الأقطار العربية التي كانت خاضعة يومئذ لحكم الأتراك.

ولكن العالم المسيحي، لم يهتم يومئذ بتحرير العرب، لأنهم مسلمون؟

ولما قامت الحرب العالمية الأولى وثار العرب ضد تركيا، لم يتركهم العالم المسيحي ينعمون باستقلالهم، بل تقاسمتهم دول المسيحية فيما بينها.

ما بين مناطق نفوذ ومناطق انتداب. . . !!

وهكذا، تعصب ديني أعمى، يعمل على تحرير المسيحي من المسلم، ويعمل ـ في الوقت نفسه ـ على إخضاع المسلم للمسيحي.

وإلا هل كانت اليونان وبلغاريا مثلاً، أهلاً للاستقلال والحرية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر؟

. . والجزائر ومراكش ليستا أهلاً للحرية والاستقلال في النصف الثاني من القرن العشرين؟.

كلا. فما من شك في أنَّ عرب شمال إفريقيا اليوم أوفر حظاً من الرقي والحضارة والعلوم والمعارف، من شعب اليونان أو بلغاريا في أوائل القرن الماضي . . ولكن!

ولكن الجزائر ومراكش قطران عربيان مسلمان خاضعان لحكم دولة مسيحية.

. . واليونان وبلغاريا قطران أوربيان مسيحيان، كانا خاضعين لحكم دولة مسلمة.

إن هذا لهو الفرق. . !!

الحرية والاستقلال للمسيحيين وحدهم.

والاستعمار والاستعباد لغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى!

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعرفها الشرق عامة، والعرب والمسلمون بوجه خاص. .

وهي أنَّ عالم المسيحية ـ وهو اليوم العالم الأقوى ـ لا يستطيع أن ينسى دينه، أو يتحرَّر من تعصب الدين، وهو يعالج قضايا الحرية والاستقلال. . » .

* * *

إنَّ جذور التعصب للنصرانية، والحقد على الإسلام، لم تهدأ على مرِّ الأيام. .

بل لعل مرَّ الأيام كان ينفخ فيها ليزيدها وهجاً ولذعاً.

وعندما كانت الدولة الإسلامية تترنَّح إبان تضعضع الخلافة التركية وذهاب ريحها، كان الورثة يترقبون بصبر نافد، أن يتدخلوا.

باسم المسيحية.

لنهب ما يمكن نهبه.

وفي ذلك يروي المؤرخون: أنه عندما أصبحت الدولة العثمانية تسمى «رجل أوروبا المريض» بدأ من كانوا يعدون أنفسهم لوراثتها في حصر التركة.

فتدخلت فرنسا لحماية رعايا الإمبراطورية من الكاثوليك.

وتدخلت روسيا لحفظ مصالح الكنيسة الأرثوذكسية.

وطالبت ألمانيا برعاية أتباع المذهب الثالث من النصرانية وهم البروتستانت.

ولم يكن قد تبقَّى بلا حماية أجنبية من رعايا الإمبراطورية المتداعية سوى اليهود، فسارعت بريطانيا إلى احتضانهم.

ذكر أحد روَّاد كبار الصهيونية ل . ج . جرينبرج، أن اللورد كرومر المعتمد البريطاني بمصر قال لأعضاء البعثة الصهيونية التي زارت مصر في أوائل القرن العشرين، لتفقد منطقة العريش وصحراء سيناء تمهيداً لمنحها لليهود :

«عندما تتهاوى الإمبراطورية العثمانية ـ وستتهاوى إنْ عاجلاً أو آجلاً ـ يجب أن نحصل على فلسطين».

هذه هي أمم الغرب التي تخفي مخالبها وراء قَفَّاز من حرير، وتستر سخائمها السُّود في ألفاظ معسولة من السماحة والمرونة، والبراءة من التمسك ـ بله التعصب ـ لأي دين!!.

ويجب أن نضم إلى المعلومات السابقة، أنَّ دول الغرب لم تسمح بالإبقاء على تركيا، ولم تزوِّدها بالسلاح، إلا بعد أن تلقَّت وعداً مؤكداً أن تركيا قد تخلَّت عن الإسلام أبداً، وأنها لن تخاصم، بل ستساعد الصليبية والصهيونية على أن تصنعا ببقية بلاد الإسلام ما تبغيان.

عَدالةُ العَصْرِ

إنَّ للقوة الباغية منطقاً تحارُ فيه الألباب، لأنه يسخر من أولي الألباب ويقصِّيهم عن طريقه، ويسير بدوافعه الخاصة غير مكترث بشيء . .

هجمت عصابات اليهود ـ بإيعاز من الدول الكبرى وإمداد ـ على فلسطين العربية فاجتاحت أرضها ورمت بأهلها في العراء.

وتركتهم يرقدون على الثرى وبيوتهم يسكنها أعداؤهم.

ويتكففون الناس وأموالهم يبعثرها اليهود كيف يشاؤون.

واستمر هذا البغيُ سنةً، ثم سنتين، ثم سنين . .

وكان صراخ الضحايا يتردَّد في آفاق العالمين، ويصل صَدَاه إلى مجلس الأمن، وهيئة الأمم.

ولكن الهوى كان قد طمس على الآذان ونسَج غشاوته على الأعين.

فإذا الساسة الكبار والصغار يفغرون أفواههم لما يرونه من مآس، ثم يطبقونها دون أن ينبسوا بكلمة.

وشَرَع جيران القطر المنهوب يتحركون للدفاع عن إخوانهم، وإعادة ما سرق من أقواتهم وحرياتهم، وحاضرهم ومستقبلهم . .

ودار الجدل بين العرب المحروبين من جهة وبين اليهود المغيرين، والسادة الذين صنعوهم من جهة أخرى على هذا النحو المدهش.

يقول العرب: أعيدوا اللاجئين إلى ديارهم، وأسكنوهم بيوتهم التي طُرِدوا منها، وردُّوا إليهم أعمالهم وأموالهم . . !!

ويصيح رؤساء اليهود: لن نتنزل عن شيء من حقوقنا، إنَّ دول العرب تتحدانا وهذا ما لا يمكن السكوت عليه . .

ويجيء الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة فيقول: إنَّ إسرائيل ولدت لتحيا!

ويعاود اليهود غدرهم، فيهجمون على حدود مصر، ليفسدوا فيها ويسفكوا الدماء.

وتشعر مصر بما يُبَيَّتُ لها فتستورد السلاح وتعبىء قواها لمواجهة الخطر.

وهنا تطوف بالعالم كله دوامة من الإرجاف والذعر المفتعل.

ويصيح اليهود: هذه بوادر العدوان علينا!!

وعلى العالم الحر أن يتقدم لنجدتنا.

وتجيء «أمريكا» لتقول: ينبغي أن يستقرَّ السلام في هذه المنطقة، فإنَّ الحرب تضرُّ مصلحتنا. . !!

* * *

وترجع العصابات المسلحة إلى دأبها. فتتستر بالليل لتشنَّ غاراتها على سوريا تارة، وعلى الأردن تارة، وعلى مصر تارات وتارات.

ويسارع المصريون إلى الرد العنيف على هذه المناوشات. .

وتنطلق صيحات الإفك من حناجر اليهود مرة أخرى.

الهدنة تعرضت للضياع، العرب يثيرون الفتن ويلعبون بالنار. . !!

وهنا يتدخل الإنجليز مشفقين مصلحين، يعرضون على الفريقين المتنازعَين، أو على الشريكين المتشاكِسين أن يتقاسما فلسطين.

لصاحب البيت حصة، وللمغير الفاتك حصة أخرى!!!

ويقول اليهود على عجل: كلا كلا، لن نتنزل عن شبر أرض من بلادنا.

ويدور العرب بأعينهم في كل مكان، فلا يجدون إلا ذئاباً كشَّرت عن أنيابها وتواطأت على افتراس الضعاف.

* * *

وما وقع في الجزائر قريب مما وقع في فلسطين.

فقد شنَّت «فرنسا» هجوماً شاملاً على هذا البلد الوادع فزلزلت كيانه وصدَّعت أركانه.

ثم وُضعت خطة هائلة لمحوِ أعلام العروبة والإسلام منه، وتخطيط أرضه على نحوٍ يجعل لفرنسا المكان الأول والأخير فيه.

وتنفيذاً لهذه السياسة الفاجرة شَرَع الفرنسيون يرحلون من وطنهم إلى المهجر الجديد حتى بلغوا قرابة المليون.

أما بقية السكان العرب ـ وهم يربون على عشرة ملايين ـ فقد تقرَّر إذلال جمهرتهم وردهم إلى الصحراء ليهلكوا فيها. أو ليفسحوا الطريق للغزاة الوافدين من وراء البحر. .

وأحسَّ الجزائريون أنَّ مصيرهم الهلاك المؤكد ـ إنْ هم قَبِلوا هذا الضَّيم ـ فحملوا السلاح وبدأوا عهداً طويلاً من الجهاد المضني.

إنهم لو لم يقاتلوا عن أمجادهم المهدرة لوجب عليهم أن يقاتلوا عن أقواتهم ومعايشهم. .

* * *

ومقاتلة الفرنسيين عبءٌ باهظ، فهذا الشعب تهيجه عقدة الضعة إلى أن يبطش بمن يقع في قبضته بطش الجبابرة.

وعلة ذلك أنَّ فرنسا ظلت عشرين سنة تحصِّن الحدودَ بينها وبين الألمان، وتجيِّشُ الجيوش وراءها حاملةً آخر ما أنتجه الذكاء الإنساني من أسلحة وعتاد.

فلما وقعت الواقعة وهجم الألمان على فرنسا لم تمكث الحرب إلا سبعة عشر يوماً، ثم ركع الفرنسيون على الركب أمام هتلر، وسلموا له بما يريد!!

هذه الهزيمة التي جلَّلَتْ بالخزي وجوه القوم حملتهم على أن يتظاهروا بالقوة في الميادين التي يلتقون فيها بالأمم المكافحة عن حرياتها، وكأنهم يقولون: لا تظنوا بنا ضعفاً، لأننا هُزمنا. . !! فهم كما قيل:

أسـد علـيَّ وفـي الحـروب نعـامـة فتخـاء تنفـرُ مـن صفيـر الصـافـر!!

ثم إن مجاهدي الجزائر كتب عليهم أن يكافحوا في دائرة مغلقة فإن السياج الذي أقامه الاستعمار حولهم حبس عن العالم أنباءهم أمداً.

ومن ثم فهم يضحّون في صمت، ويقاومون جبروت الصليبية الضاغطة على أعناقهم دون أن يلبى لهم صريخ أو تسمع لهم استغاثة. . !!

ومع ذلك فقد ثابروا في الميدان، وذرعوا الطريق إلى نهايته حتى تعالى ضجيج العراك الناشب بين الأبطال والأنذال، وأحست الدنيا أن مسلمي الجزائر يكتبون بدمائهم سطور حرياتهم، ويرفضون هذا الإجهاز الدنيء على دينهم وتاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم. . .

* * *

وسعى العرب حتى بلغوا بقضية الجزائر هيئة الأمم المتحدة.

وهنا تقع المهزلة الكبرى، فإن فرنسا قالت في صفاقة نادرة، إن البحث في مشكلة الجزائر لا يجوز!

لماذا؟ . . لأنَّ فرنسا ترى الجزائر جزءاً من الوطن الفرنسي. . !!!

بالضبط، كما يضع النشَّال يده في جيبك، ويختلس حافظتك ثم يضعها في جيبه، ثم يسير في طريقه كأن لم يحدث شيء.

فإذا قلت: مالي! مالي ! قال اللص في هدوء: تحدَّث في أمر آخر، فإن

هذا المال غدا ملكي إلى الأبد . . كذلك فعلت فرنسا .

وبقيت في الميدان الدولي بقية خير ، جعلت هيئة الأمم ترى من حقها بحث هذه القضية ، ولو لم يتمخض بحثها عن شيء . . !!

وزمجرت فرنسا ، وطلبت ألا تبحث هذه القضية ألبتة!! .

وتصارعت المداهنة مع بقية الحياء .

فإذا سبع وعشرون دولة يرون ألا تبحث، وثمانية وعشرون يقبلون مجرَّد البحث!!! وصرخ مندوب فرنسا يقول :

«إنَّ هيئة الأمم تتجاوز اختصاصها، إنها تتدخل فيما لا يعنيها، إنها تخرج على المواثيق المأخوذة عليها ألا تُقحِم نفسها في الشؤون الخاصة للأمم!!» .

وظل المندوب الفرنسي ينبح ويتوعَّد ثم قرَّر بعدئذ الانسحاب .

ولم تمضِ إلا أيام قلائل حتى تبخَّرت بقية الحياء في الميدان الدولي .

فإذا قضية الجزائر تستبعد . وإذا فرنسا بعد أن أُرضيت تعود .

تعود وفي جيبها مستقبل أمة التهمتها على رؤوس الأشهاد!!

وقالوا : قد جننت؟ فقلت : كلا ... وربي ما جننت، ولا انتشيت
ولكني ظُلمت، فكدتُ أبكي ... من الظلم المبين، أو بكيت!!
فإنَّ الماء ماءُ أبي وجدي ... وبئري ذو[1] حفرت وذو طويت[2]

تسألني ما علاج هذا المنطق السافل؟ إنه السيف وحده هو الذي يجتزُّ هذه النواصي الكاذبة الخاطئة :

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حدِّه الحدُّ بين الجد واللعب!

---

(١) ذو ـ أي الذي .
(٢) طويت البئر ـ بنيت حافته بالحجارة .

إنَّ أولئك المغالطين المكابرين لا يردُّهم إلى الصواب شيء إلا ما يُفْري الأعناق، ويرغم على الإقرار بالحق.

والمضحك أنَّ المسلمين عندما يتهيؤون لهذا المسلك، يقول الصليبيون الجدد: ألم نقل إنَّ الإسلام انتشر بالسيف، وإنَّ المسلمين يسيؤون استخدام القوة؟؟

أجل، وإذا لم تستحِ فاصنع ما شئت..

* * *

وبعد إحدى الطبعات التي صدرت من هذا الكتاب ثبت السيف استقلال الجزائر، وتحرَّر المناضلون الشرفاء في أعقاب عراك قدموا فيه من خيرة أبطالهم مليون ونصف شهيد.

تيارات متدافعة

طالما قلنا: إنه قرن الأحزان والمذلّة هذا القرن الرابع عشر للهجرة.

أو تلك هي بدايته التي اكتنفتها الهزائم والدنايا.

وما ندري كيف تكون نهايته الخطيرة، ولا خواتيمَ الصراع الناشب الآن في شتى بقاعه بين المغيرين والمدافعين..

لقد انهزم الإسلام عسكرياً في أغلب الميادين أو فيها كلها، وتساقطت بلاده بلداً بلداً تحت أقدام الغزو الحديث.

ولم يكن بد من هذا المصير الكئيب، فقد كانت دولته ضعيفة بالغة الإعياء، وكان خصومه أقوياء شديدي البطش.

ولولا أصالةٌ في بعض الأجسام تغالب بها العلل الوافدة وتنجو بها من الموت لكانت الأمة الإسلامية الكبيرة قد تلاشت من الحياة إثر ما حلَّ بها من كوارث وأخذت طريق البائدين الدارسين من أهل القرون الأولى..

وليس الانهيار العسكري الشامل هو أفدح ما أصاب أمتنا خلال هذا العصر، بل ما أعقب هذا الانهيار من سياساتٍ بعيدة المدىٰ رسمها الأقوياء القاهرون وشرعوا في تنفيذها على مهل.

والغاية المرجوة منها حلُّ عرا هذا الدين، وصرف النفوس والأفكار عنه.

وإنشاء أجيال تتجهم لتعاليمه وتتجاهل مطالبه أو تجهلها كل الجهل!!

والظروف المواتية لهذا المحق كثيرة، فإنَّ المنهزم: فؤاده مزعزع وأمره فرط.

وبيَدِ المنتصر من وسائل الإغراء ـ بل في حالته نفسها ـ ما يجعل شؤون المجتمع المهزوم تتمسح به وترجو رضاه.

وقد أقبل موكب الصليبية الهاجمة هذه المرة في ألوان زاهية من العلم والكشوف والتقدم، واقتحم أرضاً تكاد تكون غفلاً من هذا كله.

شتَّان بين تفوُّقه اليوم وبين ضآلة أمره في العصور الوسطى..

فلا عجب إذ طمع الفاتحون الجدد في الإتيان على قواعد الإسلام بعد ما قدروا على هزم جيوشه في ميادين القتال..

وخطتهم التي وضعوها واضحة.. يجب أولاً إبعاد الإسلام عن أن يكون رباطاً عاماً بين بنيه في مشارق الأرض ومغاربها.

فعن طريق إحياء النزعات الوطنية في كل إقليم مستعمر تموتُ الجامعة الإسلامية من تلقاء نفسها..

هذه الضَّربة النازلة بالإسلام ـ كرباط سياسي ـ يجب أن تلحقها ضربة أخرى تنال منه كموجِّه شخصي وجماعي.

وذلك يتمُّ بإضعاف وازع التقوى وإشاعة ضروب الشهوات.

والسبيل إلى ذلك:

- فصل الدين عن مناهج الدراسة كلها.
- وفصله عن تقاليد المجتمع.
- وفصله عن آفاق الحياة النابضة.
- ثم تركه يذوي بعيداً حتى تخمد أنفاسه بين الوحشة والضياع.

هذه هي سياسة الغرب التي نفَّذتها انجلترا وأمريكا وفرنسا وهولندا وروسيا وسائر الدول التي أتيح لها أن تحتل شبراً من أرض الشرق الإسلامي.

وقد تفاوتت أساليب التنفيذ، كما تفاوتت ضروب المقاومة التي أبدتها الشعوب المغلوبة.

أجل، فإنَّ جماهير المسلمين لم تستسلم لهذا الإفناء المبيت فنشطت عشرات الطوائف والهيئات لمكافحته.

على أنَّ المستعمرين لم يباغتوا بهذه المقاومة، فمضوا في طريقهم يستعينون بالزمن على إخماد كل حماسة، ويستغلون سيطرتهم على الحكم لتدويخ الحركات الشعبية حتى يدركها القنوط فتسكت أو تدركها الهزيمة فتبيد..

والزمن يقف إلى جانب المهاجم عندما تخور قوى المحصور، وتنسد أمامه منافذ الأمل ويقبع في مكانه منتظراً مصيره الحتم...!!

كالمصباح الذي قلَّ زيته وجفَّت ذبالته، إن لم يطفئه نفخ الريح أطفأه نفاد الوقود..

ومن ثم قررت الصليبية الحديثة أن تهتبل الفرصة السانحة، وأن تُحكم الخناق حول الإسلام حتى يسقط ويتفرَّق أتباعه عنه.

نعم، استيقنَ المستعمرون أنَّ مآربهم في استعباد الشرق وانتهاب خيراته لن تخلص لهم إلا إذا:

● قضوا على الإسلام روحاً ونصاً، وأجهزوا على بقاياه حكومة وشعباً.

● وأقاموا الحُجُبَ الكثيفة بين أمسه ويومه، وبين يومه وغده.

● ثم قسَّموه بينهم أشلاء متناثرة لا يأوي أحدها على الآخر، ولا يعرف وشيجة تربطه في الأولين والآخرين.

وقد حشدوا مهارتهم كلها واحتيالهم كله لإدراك هذه الغاية، بعدما أخذوا يحسون أنهم يعالجون أمراً صعباً، وأنهم لا ينجحون في جهة إلا أخفقوا في أخرى، ولا يتقدمون خطوةً إلا وسط مقاومة مشوبة بالدم حيناً والبغضاء حيناً آخر..

قال الأستاذ «محمد محمد حسين» أستاذ الأدب العربي بجامعة الإسكندرية يصف سياسة الإنجليز في مصر وغيرها من أجزاء الوطن الإسلامي الكبير:

«كان للإنجليز هدف واحد هو إضعاف العصبية الدينية، وتمزيق أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحداً واحداً.

فالمصريون أحفاد الفراعنة، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين، والعراقيون أحفاد الآشوريين، والحجازيون أحفاد العرب، وأحقُّ الناس بالقيام على خلافة الإسلام.

وذلك إغراء لهم بالانتفاض على الترك ومعاونة انجلترا على إسقاط الدولة العثمانية.

وكانت الدولة العثمانية، برغم ما بليت به من انحلال، قوة روحية عظيمة.

وكانت قادرة على جمع كلمة الشعوب باسم الدين ضد بريطانيا وشقيقاتها من دول الاستعمار الأخرى..

وأدرك «اللورد كرومر» ما تنطوي عليه تعاليم الإسلام من حثّ على الجهاد، ودعوة إلى الأخذ بأسباب القوة، ومن إعلاء لمرتبة المجاهدين وحط من شأن القاعدين.

فاتخذ من ذلك مادةً للطعن على الإسلام وتشويه مقاصده فقال في كتابه «مصر الحديثة»: إنَّ المسلمين أنصاف همج!!، محبون للحروب، بُعَداء عن التسامح!! وإنَّ دينهم يجعل عاطفة الانتقام أساس العلاقة العامة بين الإنسان وأخيه الإنسان، واستشهد لكلامه هذا بدعاء أئمة المساجد على الكفار يوم الجمعة!، وبالآية المعروفة ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤].

نقول: والآية واضحةٌ في أنها تذكر المقاتل بواجبه خلال المعركة الناشبة، وتأمره بالاستبسال والشجاعة.

أما لماذا يدور القتال وتنشب المعارك فإنّ الإسلام لا يُسأل عن ذلك لأنه

يخوض الحروب مدافعاً لا مهاجماً.

وذلك مصداق الآية الأخرى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ومن شدة الصفاقة وقلة الحياء أن يتحدث الإنجليز عن العدوان، وأن يتهموا غيرهم به، وبلادهم وكرٌ لأضخم عصابة عرفتها الدنيا في السلب والنهب.

وأما خطباء المساجد الذين يدعون على الكفار فهم ملومون، لا على دعائهم المملول، بل على اكتفائهم بالكلام دون التسلُّح والانطلاق إلى الميادين لذبح المعتدين وإفناء الغاصبين المحتلين..

ولنعد إلى دعاوى «لورد كرومر» وحملاته على الإسلام، وإلى تفنيد الأستاذ «محمد محمد حسين» لها قال:

«عمل الإنجليز على إخماد العاطفة الإسلامية حين رأوها مصدر خطر محقق، وأنها المعين الفياض ببغضهم الدافق بالتأليب عليهم والتحريض على قتالهم.

وظلوا يتهمون المصريين بالتعصب الديني ويكررون هذه التهمة في كل مناسبة، بل في غير مناسبة، حتى توهم المصريون أنَّ التعلُّق بالدين عيب ذميم، ينبغي أن يبرؤوا منه.

وظل عدد من الصحف يتحدث عن التسامح، وعن الإنسانية، حتى توهم السُّذَّج أنَّ سعة الأفق ورحابة الصدر أن تحب الخلق جميعاً.

حتى المعتدين منهم على بلادك!! وآلك!!

ولم يزل هؤلاء المستعمرون يحدِّثون المصريين عن مصالحهم الخاصة، حتى نزلوا بالوطنية من درجة العقيدة إلى مرتبة مادية لا تعلق بها أية قداسة لأنها لا تعدو السعي وراء القوت ومحاولة تحسين الأحوال!!».

هذه هي الوطنية التي يعشقها الإنجليز، وينشدون بقاءها في المستعمرات.

عصبية تنسلخ عن الدين ـ أي عن الإسلام ـ وتقوم على المنفعة المجرَّدة.

وحول هذه المنفعة يصح أن يوجد ما يطلق عليه اسم «الأمة».

ولذلك أوعزوا إلى «أصدقائهم» في السودان أن يكونوا حزباً يحمل هذا العنوان، كما أوعزوا إلى أتباعهم في مصر أن يؤلفوا حزباً يحمل الاسم نفسه في أخريات القرن الماضي..

إنَّ خطتهم هي هي على تغير المكان والزمان لأنهم يصدرون عن مشاعر قلما يهذبها الزمن.

والمؤلم أنَّ هذه الشَّراك وقع فيها الألوف، وانطلى محالها على الكثير.

فتحوَّلت الأجيال الناشئة إلى المجرىٰ الذي شقَّه لها الاستعمار، ووهت أواصرها بالدين وهديه..!!

لماذا؟ لأنها تكره أن توصم بالتعصب والرجعية..!!

وشيوع هذا الفساد في الأذهان والأذواق كسب للصليبية أنكى على الإسلام من اندحاره أمامها في سلسلة من المعارك الكبيرة!

ألم يضحِّ أبناؤه وهم ينفضون عنه ويستحيون من الأخذ به وإقامة شعائره؟ لأن تقوى الله رجعية، والوقوف عند حدوده نوع من الجمود على القديم ومن التخلف عن الحضارة والتعصب للموروثات التي عفى عليها الزمن؟

أي إهانة تلحق بالإسلام أشد من هذه الإهانة..؟

والحق أنَّ سوءات التعصب كلها لا تتجه إلينا بقدر ما تتجه إلى أولئك الغزاة الأوربيين..

إن كان التعصب جحد الحق بعدما تبيَّن فهو رذيلة تقترفها «أوروبا» بإصرار.

وإن كان التعصب احترام التقاليد القديمة وإنْ جانبت الصواب وخالفت العقل فأوروبا أولى بهذه الوضمة حين تحالفُ الصهيونية، وتمدُّ الصليبية الحاقدة ما يشبع نحيزتها على الإسلام وأهله..

أما أن يدافع الإنسان عن بيته وقد سطا اللصوص عليه وحاولوا اقتحام منافذه فيقال له: ألقِ السلاح! لا تكن متعصباً! فهذا هو السخف!

ويعجبنا قول الشيخ «عبد المجيد سليم» في الحفز على هذا التعصب، ودحض شبهات الذين يرونه مخالفاً للرقي والحضارة. .

قال طيَّبَ الله ثراه:

«وإن كان المراد بالتعصب: الغيرة على ما يراه المرء حقاً، وبذل الجهد في الدفاع عنه، وعدم التسامح فيه، فذلك محمود، بل واجب بالشرع والعقل فإنه لا بد للحق من مستمسك به، مدافع عنه.

ولو ساغ أن يتطابق الناس جميعاً على التسامح في شأن الحق، والفتور عنه، لبطل الحق، وعميَ على الناس وجهه، والتبس بالباطل في كثير من الشؤون.

ولهذا لا يصلح مجتمع يخلو من المستمسكين بالحق، المدافعين عنه الذين لا يترخصون فيه ولا يتسامحون.

وإنَّ جميع الدعوات الصالحة الخيِّرة ما رسخت أصولها، ولا سمقت فروعها، إلا باستمساك أهلها بها، وصدقهم في النضال عنها، لأنهم آمنوا بها إيماناً ثابتاً لا يتزلزل.

ولولا هذا الإيمان الصادق القوي المتماسك لماتت ـ والعياذ بالله ـ دعوة الإسلام في مهدها، ولفسد المجتمع الإسلامي من أول الأمر بما يسميه المتحللون مساهلة أو مياسرة، ونسميه نحن انحلالاً أو اضمحلالاً.

وقد أمر الله المؤمنين بأن يكونوا أقوياء في الحق، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ومدح الذين ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ولعل هذه الصيغة إنما اختيرت للتعبير عن معنى القوة في الأخذ، وهو ما صرح به في مثل قوله تعالى لنبيه يحيى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] ولنبيه موسى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

كما أمر المؤمنين بأن يكونوا ﴿ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ [المائدة: ٨] والقوَّام بالشيء غير القائم به إذ هو مبالغة في القيام تقتضي القوة في الاستمساك والتشبث.

وذلك كله ينافي التراخي عن الحق والمساهلة فيه.

هذا والناس إنما يفقدون الحماسة للحق، والحرارة في الدفاع عنه، لواحد من أمرين: إما جهل به يصرفهم عنه، فهم لم يذوقوا حلاوته، ولم يباشروا بشاشته، فأنىٰ لهم أن يعبؤوا به فضلاً عن أن يغاروا عليه؟.

وإما شغل بغيره يملأ القلب، ولا يترك مجالاً للنضال عن الحق، والكفاح في سبيله، وأولئك هم الذين يعرفون الحق ويشغلهم عنه ما آثروه من أنفسهم ومصالحم، فهم يتظاهرون بأن تركهم مناصرة الحق إنما هو لتركهم التعصب، وكراهيتم التزمُّت والتشدد، والله يعلم أن ذلك منهم نكول ونكوص وإيثارٌ لعاجل الدنيا على آجل الآخرة.

وأشدُّ ما تصاب به الأمم في علمائها وأهل الرأي فيها، هو التحايل للخروج من تبعات الكتمان بالتأويل والتضليل.

«وبهذا يتبيَّن أنَّ التعصب ليس مذموماً كله، وأن اتخاذ أمره مقياساً للرقي أو الانحطاط يجب أن يتلقى بحذر، ويقدّر بقدر».

* * *

مضى التياران المتناقضان كلٌّ إلى وجهته، وطال النضال بينهما، وتزاحم أنصارهما بالمناكب يبغي كل فريق أن ينفرد بالحياة دون صاحبه..

أنصار التيار الغربي المقبل من وراء البحار تؤيِّده القوة القاهرة والكشوف الباهرة وحاجات الأجيال المعاصرة.

والمعجبون به يريدون أن يقبلوه كلاً لا يتجزَّأ، وأن يذوقوا خيره وشره وحلوه ومرَّه، وأن ينسلخوا عن إهابهم القديم جملةً لأنه طور انقضى وذهب أوانه..

وقد استطاع هذا التيار أن يجتاح المدائن والقرى، وأن يدخل الأكواخ

والقصور، وأن يترك ميسمه على أنحاء المجتمع المختلفة ما يكاد يفلت منه شيء.

أما التيار الإسلامي فإنَّ الرائي يظنه مقاتلاً في معركة انسحاب.

وإن كان يتراجع ببطء حيناً، ويتشبَّث حيناً آخر ببعض القلاع المكينة ليكافح عندها أمداً ثم ينحسر عنها ويدعها تسقط!!

ولكن المجالات التي يخسرها هذا التيار لا تذهب غنيمة باردة إلى خصمه، فما أكثر أن يدع فيها من عناصر المقاومة ما يجعل استسلامها للطابع الغربي البحت أمراً عسيراً.

والحياة في بلادنا الآن خليط هائل من الكفر والإيمان، ومن المحافظة والتحلل، من القديم والجديد، من العقل والشهوة، من الشرق والغرب..

وكلا التيارين لا يزال مزوَّداً بأسباب البقاء، ولذلك فهو يجاهد ليحيا وينتصر، وينفرد بقيادة الأمة إلى ما يبغي..

من عشرين سنة[1] كتب الدكتور «زكي مبارك» يصف القاهرة ـ ويتحدَّث بأسلوبه الساخر عما يتجاور فيها من نقائض، ويضطرب فيها من صور ونزعات ـ والدكتور نفسه أحد أسباب الانحلال الأدبي في مصر ـ.

وهذا الوصف المنقول عنه يكشف عن مجرى التيارين السابقين وآثارهما الخافية والبادية، قال[2]:

«القاهرة اليوم مدينةٌ خطرة جداً: ففيها يشتبك الجدُّ والهزل، ويصطرع الهدى والضلال!!

في القاهرة طوائف من المغفلين، وطوائف من المحنكين، ويكفي أن يكون فيها الأزهر والجامعة المصرية...!!

---

(١) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥، والسابقة لهذه ١٩٧٩.
(٢) «عن ليلى المريضة في العراق».

. . في القاهرة أقطاب الملحدين وأقطاب المؤمنين.

. . في القاهرة خلفاء الحسن البصري وخلفاء إبليس.

. . في القاهرة أتباع القرآن والتوراة والإنجيل.

. . في القاهرة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، والموعودون بالنعيم والجحيم.

. . في القاهرة أحياء باريسية، وأحياء بغدادية، وأحياء دمشقية.

فيها مشابه من جميع البقاع وجميع البلاد.

فيها منازل لا يدخلها الفأر بسبب النعمة، ومنازل لا يدخلها الفأر بسبب الجوع.

في القاهرة ناس يموتون من الظمأ، وناس يموتون من الشراب.

في القاهرة خدود تجرحها خطرات النسيم، وفيها وجوه تعجز عن لفحها النيران.

ومن الذي يصدق أن إبليس يقف مبهوتاً أمام حِيَل الفجور في القاهرة؟

من الذي يصدق أن رضوان ينتظر أن لا يجد مكاناً في الجنة بعد أن يحتلها القاهريون؟

تنظر في شوارع القاهرة فترى شيخاً يهطع لإلقاء عظة في مسجد. وترى فتى متأنقاً يمضي إلى موعد غرام في مصر الجديدة أو حلوان، وترى رجلاً يحمل أوراقه ليناقش الميزانية في مجلس النواب، وترى فتاة تصاولك بعينين مصوغتين من السحر الحرام أو الحلال، وترى فقيراً مسكيناً يستجدي لقمة يتبلغ بها في الصباح أو في المساء.

. . القاهرة!.

. . لطف الله بأهل القاهرة!.

. . في القاهرة مئات من الأندية الخصوصية والعمومية، وفيها ألوف من

الزوايا والمساجد والحانات.

ومن الذي يستطيع أن يتعقب حركات العقول والأهواء في القاهرة؟.

من الذي يستطيع أن يحاور في الصباح والمساء رجال الصحف الصباحية والمسائية؟.

من الذي يصدق أنَّ في القاهرة ألف خطيب في فصاحة سحبان ـ وألف خطيب لا يحسنون ضبط كلمة ـ؟

من الذي يصدِّق أنَّ الأمان ذهب من القاهرة بسبب الإفراط في المنافسة والنضال؟».

* * *

والأستاذ «محمد حسين» في تأريخه للاتجاهات الفكرية من سبعين سنة يصوِّر هذا النزاع الحاد بين الإسلام المدافع عن كيانه، وبين الغرب الزاحف بأطماعه وماضيه وثاراته، بين المستمسكين ببقايا الإيمان ووصايا الكتاب في بيوتهم وأعمالهم، وبين المفتونين ببريق الحضارة المنتصرة وإيحائها المتحرر في الشؤون الخاصة والعامة. فيقول[1]:

«انقسم زعماء الإصلاح كما رأينا إلى فريقين، فريق ينظر إلى قديم الشرق والمسلمين، يتغنى به ويستوحيه، وفريق ينظر إلى ما حقق الغرب في حاضره من تفوق فهو يزيِّنه للمصريين ويدعوهم إلى احتذائه والسير على خطاه.

وسرىٰ هذان الأسلوبان في كل شؤون الحياة، فأصبحنا أمام فريقين متقابلَين. فريق يدعو الناس إلى الثورة على الماضي. يدفعهم إلى الجد دفعاً لا رفق فيه ولا هوادة، ويحملهم عليه حملاً لا تدرج فيه. وفريق آخر يريد أن يوقظ ضمائر الناس ووعيهم عن طريق الدين، ثم يتركهم بعد ذلك للتطور

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.

الطبيعي، محذِّراً مما تنطوي عليه الطفرة من أخطار لا يؤمن معها العثار، منادياً بأنَّ أيَّ بناءٍ لا يقوم على أساس تنقية النفس وإحياء الضمير هو بناء فوق رمال، لا يعلو إلا لينهار.

.. ظهرت آثار هذين التيارين في السياسة، فكان أنصار الجامعة القومية يمثلون الفريق الأول، وكان أنصار الجامعة الإسلامية يمثلون الفريق الآخر. وظهرت في الأدب وفي الفن، فكان هناك فريق يتخذ مثله الفنية من الأوربيين، وكان هناك فريق آخر يستمد قيمه من قديم العرب ومن تقاليد الشرق، وظهرت في التعليم، فكانت هناك مدارس عصرية تأخذ بأساليب الدراسة الأوروبية ومدارس أوروبية للجاليات الأجنبية أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين، وكان إلى جانبها معاهد دينية تقتصر على العلوم الشرعية والإسلامية وما يتصل بها، وظهرت في المجتمعات وفي سائر شؤون الحياة، فكان هناك مجدِّدون، أو مقلِّدون إن شئت، يبغضون إلى الناس قديمهم البالي ويصرفونهم عنه داعين إلى مسايرة العصر والأخذ بكل مستَحْدَث طريف، وكان هناك المحافظون في الأزياء وفي آداب الاجتماع وفي أساليب العيش وأنماط الحياة.

وقد نشأ عن هذين التيارين المتباينين تناقض في الحياة المصرية، التي جمعت بين المحافظة المتزمتة، وبين التطرف في الأخذ بأسباب المدنية الغربية، وبين التوسط الذي يأخذ من كل من الاتجاهين بنصيب. وبدأ التناقض في قصر الخديوي عباس، وسرى منه إلى بيوت الأغنياء والمترفين، فكان عباس يحتفل في قصره بشهر رمضان احتفالاً عظيماً، فيدعو إلى مائدته مختلف الطوائف، ويحضر مع حاشيته دروس التفسير منذ السنة الأولى لحكمه، ولكنه كان يقيم مع ذلك حفلاً راقصاً في عابدين كل عام منذ سنة ١٨٩٥، يمتد فيه السهر إلى الصبح، وكان يسمى (ليلة البللو). وقد حج عباس مع والدته إلى بيت الله الحرام سنة ١٩٠٩. ولكنه كان يسافر مع ذلك في رحلة طويلة إلى أوروبا كل عام.

وقد وَضَح أثر هذا التناقض في شعر شوقي ـ شاعر القصر ـ فتجاور في ديوانه وصف المرقص والخمر، مع مدائح الرسول ﷺ وتمجيد الإسلام. وكانت هذه الصيحات المتباينة المتنافرة التي تأخذ الناس من كل جانب تفزع كثيراً من المصلحين وأصحاب الرأي، لما ينشأ عنها من بلبلة الأفكار واختلاط القيم في أذهان الناس».

* * *

وهذا أولاً وصف صادق لطبيعة الحياة المنبثقة من بيئتنا، وطبيعة الحياة الوافدة علينا مع الغرب الغالب المستعلي.

ثم هو ثانياً إيماء سريع إلى تبدد القوى هباء بين الطبيعتين المتصارعتين، وفقدان النهضة الشاملة التي تندفع إليها الأمة كلها عن اقتناع ومحبة وإعزاز.

في حرب فلسطين كنت أرى شباباً تلمع في أعينهم بوارق اليقين، وتظهر في كلماتهم محبة الاستشهاد.

خرجوا من ديارهم راغبين في ثواب الله وحده يقاتلون اليهود المغيرين لأنهم يريدون استنقاذ أرض الإسلام من أعداء الإسلام..

كان هذا النفر من الناس يسمع في استغراب ـ أو قل في استنكار ـ إنه خرج من أجل عصبية ما، أو من أجل شخص ما..

وكان يندهش لما يتحدَّث به الساسة المسؤولون عن فلسطين من أن هذه الحرب الناشبة بين اليهود والعرب ليست حرباً دينية ولا صلة لها بدين.

هذه الفجوة القائمة بين الجماهير والسَّاسة تولد معها حركات الأمة ضعيفة أو ميتة..

أما حيث الفكرة الواحدة والعاطفة الواحدة والروح الذي يمضي بالعامة والخاصة في طريق مأنوسة مدروسة فإن النتائج تأتي مضعفة الثمار..

والحق أن المحاولات الناشطة لصرف الناس عن دينهم، وإقامة حضارة

جديدة تتجاهل تاريخ أربعة عشر قرناً مرَّت على هذه البلاد، هي جهد فاشل، أو جهد لا ينتهي بخير أبداً.

والتيار الغربي الناقم على الإسلام ليس ذوباناً فقط في أهواء الفاتحين، بل لقد تبين أنه ينطوي على خيانات وطنية فزع لها الرجال القوميون أنفسهم فاستيقظوا أخيراً ليعلنوا مقاومتها ويحذروا مغبتها.

أجل فإنَّ الإلحاد ليس كفراً بالله يرجأ حسابه إلى ما بعد هذه الحياة.

ومن ثم فلا خطر منه على دنيا الناس.. !!

كلا.. إنه كذلك انطلاق جامح عربيد يجب أن يُراقب وأن تُتقى أخطاره العاجلة.

وقد مرَّت سنوات طوال ـ منذ سقط الشرق الإسلامي فريسة الاستعمار الحديث ـ وهذا التيار يقوىٰ ولا يضعف، ويقدم ولا يحجم، فقدحت ضراوته وزادت شراهته.

وسقط الستار فجأة عن أفاعيله بالشباب المتعلم فإذا هو قد فتك بأصول الأخلاق بينهم بعدما خرب أفئدتهم من حقائق الإيمان وحرمات الدين.

هذا الشباب المتعلم ـ كما يوصف ـ يصل إلى العشرين من عمره ويحتل مقاعده في مدرجات الجامعات، وهو لم يتلقَ من المعارف الإسلامية شيئاً يذكر.

ذلك أن الغزو الصليبي وضع مناهج الدراسة قديماً وهو يقصد عمداً أن يجهل الطلبة في دينهم ليشبوا غرباء عنه. أو قل: أعداءً له، وإذا وقع هؤلاء الضحايا في أيدٍ تزيِّنُ لهم الإلحاد وتفرش لهم مزالق الرجس بالأزهار، وتوهمهم أنَّ المشاركة في الحضارة، والتطور مع الرقي لا يتمان إلا بهذا الضلال فكيف تكون الحال!.

كتب الأستاذ «أحمد قاسم جودة» : «إذا كان لهؤلاء الطلاب عذر في

شرودهم وانحرافهم، فما عذر الذين وضعتهم الأقدار موضع التدريس والأستاذية؟ ماذا يمكن أن يلتمس من أعذار لأستاذ يمزح مع الطلبة على حساب دينهم وإيمانهم، فيقول لهم: إنه سوف يعطي درجات إضافية في الامتحان للذين يفطرون في رمضان؟؟

ولقد سمعت هذه الرواية بأذني من بعض الطلاب. . » .

ونتساءل نحن: هل هذا مزاح؟

فأين الفجور إذن؟ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . . ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

واسمع منه أيضاً هذه الوخزة:

«إذا وصفت إنساناً بأنه صفر من الأخلاق فإنه سيثور لكرامته حتماً، إلا في حالة واحدة، هي أن يكون هذا الإنسان «وجودياً» فإنه سيعتبر ذلك فخراً واعترافاً بوجوديته.

لست أتجنى ولا أبالغ. ولكني أقرر الحقيقة منقولةً عن الرجل الذي يعتبر حجة الفلسفة الوجودية في مصر . .

وهو الدكتور «عبد الرحمن بدوي» الأستاذ بجامعة عين شمس.

اسمعوا بالله ماذا يقول في رسالة بقلمه صدرت بالقاهرة سنة ١٩٥٣ بعنوان: هل يمكن قيام أخلاق وجودية؟

«إما أن تقول بالأخلاق فتفقد ذاتك، وإما أن تقول بأن لا أخلاق فتخاطر بوجودك. لكن «الوجودي» الحق هو الذي يفضِّل أن يخاطر بوجوده على أن يفقد ذاته!!».

واسمعوا من فضلكم أيضاً: «الوجودي الحق. . أعدى أعدائه القانون، إنه الحرية نفسها. فلا معنى للواجب في عالمها. ولا تقييد لمدى انطباقها

وانطلاقها، إنه الفعل الدائم أيّاً كان نوعه ونتائجه، فإنَّ معاني الإثم والصواب كلها لا مفهوم لها في هذا الباب.

إننا معاشر الوجوديين لا نريد أن ننساق في أحلام البراءة والبكارة والطهارة، بل نصيح ملء فينا: افعلوا! افعلوا! حتى ولو أدى ذلك إلى الخطأ..».

إلى هؤلاء الأساتذة نكل الصفوف العليا من طلبة العلم.

وإلى تبجحهم الهائل ـ باسم المعرفة الحرة ـ نتوقع منهم أن يقدِّموا لبلادهم جيلاً سليم المعدن صلب الرجولة.

ويحدث هذا لدينا في الوقت الذي لا تزال فيه أغلب الجامعات الغربية محافظة على تقاليد التديُّن وشارات العصور الوسطى.

حتى لتتصل أبنية الجامعات بأبنية الكنائس وأبراجها وصلبانها.

* * *

وإليك مثل آخر ينطبق بفساد التوجيه عندنا، وانفلات التيار الإباحي إلى غاياته الوضيعة دون مبالاة أو استحياء.

نشرت مجلة الثورة في عدد قريب نبأ رحلة قام بها بعض طلبة كلية الحقوق وطالباتها... بإشراف أحد الأساتذة..

وقالت المجلة: «إنَّ الرحلة سادتها فوضى الاختلاط بين الطلبة والطالبات فرقص طالب وطالبة، وقعد الآخرون بعضهم مع بعض في أوضاع شتى.

وجاء أهل القناطر الخيرية لينظروا الطالب يرقص مع الطالبة، ليروا فتياننا مع فتياتنا في أوضاع غير لائقة!!».

قال مندوب المجلة: «فذهبت إلى الأستاذ المشرف على الرحلة وأخبرته بما يستنكره الشعب من الطلبة والطالبات فلم يعبأ بما يقول».

ونشرت المجلة مع هذا النقد اللاذع صورة للطالب وهو يراقص الطالبة وقد التصق جسمه بجسمها وصدره بصدرها!!!.

ونشرت صوراً أخرى عن ذكريات «الرحلة البريئة» لمجموعة الشباب والشابات، ظهر فيها فتى وفتاة وقد أسند كل منهما ظهره إلى ظهر الآخر، بعد أن مد ساقه إلى الأمام أرخى ظهره إلى الخلف بعض الشيء.. وفيها ظهرت بنت أخرى متمدِّدة أمام فتى آخر يبادلها مختلف الأحاديث، وثالثة، ورابعة... إلخ.

كل ذلك أمام أنظار إخواننا الريفيين من أهل القناطر الخيرية.

ونحن لا ننكر على الفتاة أن تطلب العلم، فطلب العلم فريضة..

أما رقص الفتى مع الفتاة على هذه الصورة من تحدي التقاليد والآداب.. فهو ما نريد أن نسأل عنه المشرفين على الجامعة..

فإنَّ فتياتنا لم يذهبن إلى الجامعة ليتعلمن الرقص، ولم يذهبن إليها لتنظم لهنَّ رحلات المعابثة والمخاصرة مع شباب متحلل لا يعرف دينه ولا يحترم آداب قومه.

والواقع أن أولئك المشرفين الخائنين لأمانة التربية والعلم فريقان:

فريق شيوعي: يتوسل بالإلحاد لإشاعة الفوضى وخدمة مذهبه في الحياة، وهذا الفريق يجب أن نفضح خبيئته، وأن نزن قيمته، فإنَّ الشيوعية في الصين فلسفة مثالية، وفي روسيا نهضة قومية، وفي مصر والشرق الأوسط نساء وخمر ولهو ولعب، أي أنَّ الشيوعيين في بلادنا هم أحقر شيوعيي العالم أجمع.

أما الفريق الآخر، فهو قوم احتل الاستعمار نفوسهم وتوطَّن مشاعرهم، فلو جلت جيوشه عن أرضنا فإن تعاليمه لا تجلو عن نفوس هؤلاء ومشاعرهم.

بل إنَّ ما يهوِّن كارثة الجلاء على الإنجليز والفرنسيين وأشباههم أنهم

يخرجون بأشخاصهم ويتركون خلفهم أولئك الهُجَناء المائلين إليهم والمعجبين أبداً بهم . .

ولذلك حقَّ على الأحرار أن يغسلوا الوطن من أدرانهم وأن يطاردوهم حيث كانوا.

إنهم أمساخ صنعهم الغرب ثم سيَّبهم هنا وهناك ليشفي بهم غليله على الإسلام، ويهدم بهم معاقل المقاومة الحقيقية ضده.

وما شكونا منه قديماً في مصر شكا منه إخواننا في لبنان، إذ المؤامرة الاستعمارية واحدة.

قال أسامة عيتاني: «ولكن السياسة الداخلية والخارجية في عهد الاستقلال ما لبثت أن انقلبت إلى أسوأ مما كانت عليه في عهد الانتداب. فإذا هي في الدوائر والمؤتمرات والمهاجر لا تستهدف إلا غاية واحدة: إظهار لبنان كدولة مارونية مسيحية تنظر إلى السوري أو المصري أو العراقي كما تنظر إلى الياباني والصيني والهندي، ولا نقول الفرنسي مثلاً أو الإيطالي. . !

وإذا هذه السياسة تحافظ على أوضاع الانتداب الفرنسي القديمة في التوجيه والتوظيف والمظاهر الشعبية كلها».

ويقول: «سل أي طالب تخرَّج من معهد أجنبي فرنسي في لبنان عن نهر في فرنسا، وعن موقع أي بلد شئت، وعن الصادرات والواردات، وعن القادة والشعراء والأدباء، وعن تاريخ تلك البلاد وجغرافيتها فإنه يجيبك بالتفصيل! وسَلْه عن أقرب بلدٍ عربيّ إليه، سَلْه عن سوريا وعن العراق وعن مصر، بل سَلْه عن لبنان نفسه تجده جاهلاً كل الجهل بهذا العالم الذي يعيش فيه. . !!

وهكذا قل في الطالب الذي ينشأ في المدارس التبشيرية الإنكليزية والأمريكية والإيطالية.

«إن سيطرة أوروبا الثقافية لا تزال تحتل المركز الأول في حياتنا العقلية

وثقافتنا الوطنية، ومناهج تفكيرنا. فكيف تريدون أن تخلق تلك المدارس مواطنين صادقين يتحلون بالنزعة الوطنية الصادقة والإحساس القومي العميق.

إنَّ الوطنية الصادقة والإيمان القومي لا ينبثقان إلا من اللغة وآدابها، ومن التاريخ والتربية الوطنية. فكلما دَرَس الناشىءُ لغته كلَّما أحبها وآمن بقدرتها على الحياة والخلود. وكلما عَرَف تاريخ بلاده ازداد تعلقاً بها وإيماناً بكرامتها.. لقد دخلت البعثات الأجنبية بلادنا منذ قرن. وهي تحمل رسالة تبشيرية استعمارية فاتَّخذت العلم ستاراً لها.. وأصبحنا أمام مدارس إيطالية وفرنسية وإنكليزية وألمانية وروسية وأمريكية مسؤولة عن هذا التبلبل الفكري والقومي الذي نراه بيننا، أحيت العصبيات الطائفية[1] أو حنطتها، حتى جعلت تفكيرنا، ومصالحنا المشتركة، ووحدتنا الاجتماعية رهينة هذه النزعات المِلِّيَّة، وحتى اضطرت المخلصين من أهل البلاد إلى إنشاء معاهد تقاوم هذا التيار الأجنبي الجارف، وتقف في وجهه لتحفظ على قسم كبير من أهل البلاد دينهم وعروبتهم وتاريخهم، فكانت هذه المؤسسات نفسها تبشيرية وطنية، وظلت في نزاع عقائدي وثقافي، مع المعاهد الأجنبية حتى يومنا هذا. إنَّ المعاهد الأجنبية في لبنان هي اليوم مراكز دعاية استعمارية لدولها، ومبعث تفرقة وتباغض لسكان البلاد.. ولقد أدركت خطورتها بعض البلاد العربية منذ أمدٍ قريب فقاومتها بالأساليب الوطنية الفعالة حتى قضت أو كادت تقضي عليها».

ثم قال: «لا يجب أن نفرح بجلاء الجيوش الأجنبية عن بلادنا، بل يجب أن نبتهج ونفرح بجلاء المعاهد الأجنبية عن تفكيرنا وأرواحنا.

فالجلاء عن الفكر والروح هو الجلاء الحقيقي..».

* * *

(١) يقصد المارون.

حقاً إنَّ للمعاهد الأجنبية رسالة بعيدة الأهداف، تمشي إليها في خطوات حثيثة وتقطع إليها المراحل في نجاح، لأنَّ المخدوعين فيها جَمٌّ غفير، ولأنها تحت عنوان العلم الذي لا وطن له تلقى العون في أداء مهمتها، أي في بلوغ مآربها. . !!

ومآربها متصلة أوثق الاتصال بعمل الدول الغربية في ربوع الشرق الذي احتلته بقواتها وأخضعته لاستغلالها وأرسلت أبناءها وعملاءها في ثياب شتى ليمهدوا لها باللطف ما عزَّ بلوغه بالعنف.

وقريب من عمل هذه المعاهد الأجنبية عمل المدارس المدنية التي تضع مناهج مبتوتة الأواصر بالدين واللغة، أي بالإسلام والعروبة، ويبدو أن الاستعمار الأوروبي يريد تكوين شعوب على درجة كبيرة من الأمية العقلية والاجتماعية، وعلى درجة أكبر من الأمية الدينية والتاريخية، ومن ثم فهو يضلل سياسة التعليم في كثير من البلاد التي وقعت في قبضته حتى يشبَّ أبناؤها غرباء على بيئتهم وتاريخهم، ثم هو يشحنُ أذهانهم بمعارف قليلة الجدوىٰ حتى لا يبقى فيها متَّسع للصالح المفيد.

وتأخر البلاد العربية في مضمار الحياة العامة لا يعدله إلا تأخرها في دراسة دينها، والإفادة من روحه في بعث نهضتها. .

وقد شكت «الجمهورية» من انهيار المستوى الثقافي بين من يحملون إجازات عليا، وألحت في الإسراع بعلاج هذه الحال المؤسفة.

وإليك ما كتبه أحد محرريها مندِّداً بالحصيلة العلمية للخريجين الجدد:

«إنَّ السيد المسيح، ولد منذ خمسمائة عام! . والذي بنى قلعة القاهرة هو نابليون بونابرت!

والقناطر الخيرية موجودة في أسوان! . . والمسافة بينها وبين القاهرة، هي مائة كيلو متر!

أما الزكاة فهي نظام اقتصادي اخترعه أبو حنيفة! . . وسعر الجنيه المصري، هو ١٢ دولاراً».

والذين جرت على ألسنتهم هذه المعلومات القيمة، ليسوا نجوم «ساعة لقلبك» أو غيرهم من أبطال الفكاهة والتنكيت. . كما قد يتبادر إلى الذهن. .

وليسوا أيضاً من تلامذة رياض الأطفال الذين لم يبدأ تعليمهم بعد. .

ولكنهم مجموعة من حَمَلة الشهادات العليا الذين أتموا تعليمهم وتخرَّجوا في الجامعات. . والمفروض أنهم حصلوا على قدر كبير من التعليم!!

وقد خرجت هذه «الدرر» من أفواههم، رداً على الأسئلة التي وجهتها إليهم اللجنة التي شكلت مؤخراً بمصلحة الاستعلامات لامتحان المتقدمين إلى شغل الوظائف الخالية بمصلحة السياحة!

ومنذ أسابيع أجرت محطة الإذاعة امتحاناً لاختيار عدد من المذيعين الجدد. . أظهر فيه بعض المتقدمين إليه ـ من حملة الشهادات العليا أيضاً ـ سعَةَ اطلاع مماثلة للتي أظهرها زملاؤهم الذين اشتركوا في امتحان مصلحة الاستعلامات. .

وأذكر أنَّ أحدهم قال يومها إن عاصمة لبنان هي. . يافا!!

نعم إنه يخطىء في معرفة عاصمة لبنان ولكنه لا يخطىء في معرفة عاصمة إنجلترا، إنه يعرف كل شيء إلا بلاده وتاريخه ولغته ودينه!!

والنتيجة؟؟

لقد فحشت نسبة الخارجين على الدين بين طلاب الجامعات حتى أن إحدى المجلات المشتغلة بالحياة الجامعية أجرت إحصاءً زعمت بعده أن نسبة المؤمنين ٩٪ وأن نسبة الملحدين ٣٢٪.

والبقية؟ إنها تضطرب في الفراغ الموحش بين إسلام موروث وإلحاد

معروض وتوجيه خبيث ورعيةٍ متروكة للذئاب.

قالت الجمهورية: «إنَّ الملاحدة في الجامعة كثرة غالبة، وهي لا تعترف بالخالق بل تعترف بالمخلوق، إنها تغالي بعظمة الإنسان المجرد وحريته وحضارته وجبروته، ولا تفكر فيمن خلق الإنسان ولا تصل بوجوده شيئاً من الأشياء. وقد تجلت العبقرية على تلميذ في كلية الحقوق ـ ذكرت الصحيفة اسمه ـ فصرح بأن الأديان فلسفات أدت دورها في مرحلة معينة ثم انتهت رسالتها وأخلت الطريق للعلم»!!

وأرسل فيلسوف آخر ـ يشتغل تلميذا بكلية الآداب بجامعة القاهرة ـ هذا التصريح، وقد نشرته «الجمهورية» مقروناً باسمه، قال: «إنَّ الدينَ في نظري إيحاءٌ خرافي، والأديان فاشلة.. وأنا لا أستعملها!! ولا أتبع تعاليمها لأنها تعطلني، وأنا أؤمن بالوجودية، وشعاري: سأعلِّم ابني كيف يصبح بلطجياً، وابنتي كيف تصبح فاجرة إن شاءت..!!».

وكتبت بنت أخرى في كلية الآداب أيضاً تقول: «إنَّ الدين لا قيمة له؟ لأن الشيء يُعْرَف بآثاره ولا أرى في المجتمع أثراً يدل على الدين».

ومن الإنصاف أن ننوِّه بحملة الاستنكار التي شنتها «الجمهورية» على جراثيم هذا الفساد العريض، ولعلها تحسن البقاء على هذه الخطة!!

وقد تسأل: هل تلاشى الإسلام، أو هان أمره إلى حد انفساح المجال كله أمام التيار الآخر يصنع فيه ما يشاء؟

وأقول: إنَّ التيار الإسلامي قائم فعلاً، وإنَّ الركود الذي عراه غيمة عارضة، انعقد دخانها من الدخلاء عليه إذ أثاروا فتنة ما كانوا فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء، فخذلتهم أسباب الأرض وتخلت عنهم عناية السماء.

وإني لأنظر إلى علماء الدين وتراخيهم في إبلاغ رسالات الله، بل إلى قصورهم في فقهها على وجهها.. فأتشاءم من المستقبل.

بيدَ أن تأصُّل الإيمان في طباعنا، وغور جذوره في تربتنا، ويقظة الراشدين من الكتَّاب والمربّين. . كل ذلك يرد على النفس الأمل.

ذلك إلى أنَّ تطوراً كبيراً حَدث في سياسة مصر وأكثر الدول العربية وهو إعلان سياسة الحياد، ورفض التبعية التقليدية لجبهة الاستعمار الغربي.

إنَّ هذا التطور هزيمة نكراء لعملاء الغزو الثقافي والاجتماعي، وقطع لموارد الحياة والتحدي عنهم. فهل يحسن الدعاة إلى الله أن يستغلوا هذا الموقف؟

الغَزْوُ الثَّقَافِيُّ

(١) ينبغي أن نفرق بين الثقافة الذاتية لأمة ما، وبين العلم الذي لا وطن له والذي يشيع بين الناس دون عائق!

نعم هناك معارف تتصل بالكون والحياة يتناولها الناس حيث كانت، بل لعلهم يدفعون المال والجهد لتحصيلها. . وآثار هذه المعرفة متشابهة كالجسر الذي يُبنى على شاطىء نهر في الصين، لا يختلف كثيراً عن زميله الذي يبنى في أوروبا، وقواعد الهندسة التي تحكمهما واحدة. . والجراحة التي تجري للجسم الإنساني في أمريكا هي هي التي تجري له في أي مستشفى آخر متقدِّم، والتعليمات الطبية المقررة لا تختلف هنا وهناك! والناس يتسابقون إلى إحراز الكثير من هذه العلوم، بل لعل الروس مثلاً يتجسسون على خصومهم في الغرب ليروا: هل سبقوا إلى تقدم ذري أو تفوق فني في أي مجال لينقلوه عنهم!! لكن هل ينقلون عن خصومهم الفكر الاقتصادي أو التنظيم الاجتماعي أو فلسفة القيمة والعمل[١]؟

لا. . !

إنَّ الثقافة الذاتية للأمة شيء آخر غير العلم العام! هذه الثقافة هي التي تصنع «شخصية» الأمة، وتبرز معالمها، وتحدِّدُ خصائصها، وتقرر تقاليدها وقوانينها، وتستحسن لها أشياء وتستهجن أخرى، بل هي التي تكوِّن مزاج الأمة العام وأدبها وغناءها وما يطربها أو يشجيها، ثم تخطُّ لها مجراها الخاص في الحياة الإنسانية. .

ولا نزعم أن كل ثقافة ذاتية لأمة تستند إلى أساس صحيح، ولكننا نؤكد أنَّ كل أمة ترى في هذه الثقافة الخاصة كيانها الأدبي وملامحها المميزة وتعتبرها

---

(١) كُتب هذا قبل انهيار النظام الشيوعي هناك، فالطبعة الأولى صدرت سنة ١٩٥٥.

ذاتها، ثم تدافع عن ذاتها بما تملك.. وبالنسبة لنا نحن المسلمين عامة والعرب خاصة ننظر إلى ثقافتنا الذاتية نظرة أخرى، لأنها تراث نزل من السماء ولم ينبت من الأرض، إنها جملة العقائد والعبادات والقوانين والأخلاق والحدود والحقوق والقيم والمثل التي حَوَتْها رسالة محمد ﷺ، وهي كذلك جملة الآداب والصور الفنية التي أُثرت عن العرب. لأن اللغة العربية هي لغة الوحي الإلهي الباقي، ومن ثم ضبطنا مفاهيم الألفاظ وصور التراكيب وديباجة الأداء في الشعر والنثر، لأنَّ خلود هذه اللغة سياج لخلود الرسالة الإسلامية، ومعنى ذلك جميعه أن ثقافتنا الذاتية هي ديننا ودنيانا، وماضينا ومستقبلنا، هي أصلنا الذي انبثقنا منه وفرعنا الذي نمتد معه، ونحن نتزوَّد بجميع ألوان المعرفة الإنسانية كي نحسن الحفاظ على ثقافتنا الذاتية والعيش بها وتقديمها للآخرين نموذجاً حياً لطريقتنا الأثيرة في الحياة وفق ما أراد الله لنا وطلب منا.

إن العرب لا يمثلون قومية خاصة وإنما يمثلون رسالة سماوية، وكل زعم وراء ذلك فهو إفك!!!

(٢) وطبيعي أن يكون لهذا الخط الإسلامي أعداء يضيقون به عن جهل أو جحود، ولكن هذه العداوات لم تنل منه! فقد بدأت الأمة الإسلامية من هذه الجزيرة مجتمعاً وسيمَ الملامح جميل القسمات مبارك الآثار، واستطاع هذا المجتمع القوي الغني أن يطوي الوثنيات القائمة فتلاشت! وأن يكسر العسكرية اليهودية فتبددت! وأن يطارد الاستعمار الروماني فعاد إلى أوروبا من حيث جاء! بل لاحقه المسلمون هنالك، ولو صدقوا النية والعزم لاجتثوه من جذوره.. على أية حال استطاع الإسلامُ تكوينَ أمة بين المحيطين الهادي والأطلسي، لها ثقافة عامرة وتقاليد شريفة أسْدَت للإنسانية خيراً لا حدود له، وإن شابَتْ هذا كله أخطاء شتى ربما بدأت تافهة ثم نمت على مر الزمان فجرت على الأعقاب الكوارث الشداد..!!

... ونظرة عجلى إلى الماضي، لقد أبى الأوربيون التسليم بالهزيمة التي

أصابت الدولة الرومانية وأنزلت أعلامها عن إفريقية وآسيا، وانتهزوا فرصة من غفوة المسلمين واسترخائهم فشنُّوا حرباً صليبية طويلة الآماد، هجمت فيها ألوف مؤلفة من المتعصبين القساة، كلما انتهى زحف تبعه آخر في حركات متشنجة مشبوبة الحقد ميتة الضمير، وظلت كذلك مائتي عام دون جدوىٰ، فإنَّ المسلمين الذين انهزموا أولاً واحتلت أرضهم توارثوا المقاومة المستميتة فأمكنهم بعد بلاء شديد أن يصدُّوا العدوان ويغسلوا كل ما خلف.

والغريب أنَّ المسلمين الذين انتصروا لم يستفيدوا من هذا النصر ولم يأخذوا منه العبر الواضحة، أما الصليبيون الذين انهزموا فقد درسوا أسرار الهزيمة وقرروا أن يتلافوها في هجوم آخر يدكُّون به أسوار الإسلام! وأكد ذلك «لويس» التاسع في وصيته.

ويسوءني أن أقول: إنني ما كنت أعرف شيئاً عن وصية لويس التاسع حتى الأربعين من عمري، ومن أين أعرف، ودراستنا للتاريخ رديئة كل الرداءة، ثم قرأت ترجمة للوصية المذكورة في كتاب عن «العلاقات بين الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى اليوم» فعرفت العلل الكامنة وراء كثير من المصائب الاجتماعية والعلمية التي نواجهها.

إنَّ لويس التاسع يرى أن يُؤخِّر دور السيف ويُقدِّم دور الخديعة، وأن يُجنِّد جيشٌ كثيف من المبشرين لتحويل المسلمين عن إيمانهم، وعلى أوروبا أن تنظم هذا الجيش وتحميه، ويرى لويس التاسع أنَّ المعالنة بالقضاء على الإسلام خطأ، ويوصي قومه باستبطان ذلك وإظهار غيره، ويرى ضرورة دراسة الشرق الإسلامي وأحواله ـ أي إنشاء طائفة المستشرقين ـ لتيسر وضع اليد الصليبية عليه، كما يرى ضرورة الانتفاع بنصارى الشرق في الكيد للمسلمين عموماً. .!! وقد قتل لويس في حملة صليبية على تونس بعد فشل حملته الصليبية على مصر. ولكن خطته التي وصَّى بها تعتبر الأساس الدبلوماسي والعسكري للسياسة الأوروبية من قرون طوال، ورأيي أن الرجل الفاشل هو

الذي وضع دعائم الغزو الثقافي ليحقق انتصاراً أعياه نيله في ميادين القتال، فلننظر إلى اتجاهات هذا الغزو الخطير لنعرف ما حقق، وكيف يسير. . ؟ فإنَّ أوروبا في علاقاتها بالعالم الإسلامي سارت على خطة علمية مدروسة لا مرتجلة، تغزو بالسيف والقلم، وتجمع بين اللطف والعنف، تعرف هدفها وتسير إليه في ثبات ودهاء. .

(٣) استطاع الغرب أن يضع يده على العالم الإسلامي كله منذ قرن أو أكثر، وكان المسلمون في حال يرثى لها من التخلُّف المادي والأدبي، على حين كانت النهضة الصناعية مزدهرة في أقطار أوروبا وتيقظت معها علوم وفلسفات إنسانية كثيرة، فلما قدم الصليبيون الجدد كانت الأرض ممهدة لهم كي يصنعوا ما شاؤوا، وقد شرعوا لفورهم يعملون ضد الإسلام فمزجوا الختل بالقتل ومشىٰ الغزو العسكري بين طلائع من الغزو الفكري، وأحكم المغيرون خطتهم هذه المرة فإذا الغارة الجديدة تفتك بالإسلام فتكاً ذريعاً، وتحقق في القرن العشرين ما لم تحققه في حروبها من عشرة قرون، ونريد أن نذكر صوراً من المحو أو التشويه الذي أصاب الإسلام وأمته في شتى الميادين، نتيجة لنجاح هذا المخطط. .

(٤) ظهرت في العالم الإسلامي بدعة ازدواج التعليم، وانقسامه إلى ديني ومدني. فالتعليم الديني يقوم على مخلَّفات بالية أو قشور من الفكر الإسلامي واللغة العربية، ويحرم من دراسة العلوم الحديثة أو يأخذ منها أنصبة تافهة، ويكتفىٰ في هذا التعليم المحدود بحفظ ألفاظ القرآن كلاً أو بعضاً، وبدراسة العلوم الشرعية واللغوية على نحو سقيم، ويوزع خريجو هذا التعليم على نواحٍ جانبية من المجتمع الإسلامي ريثما يتمُّ الخلاص منهم ومن قصورهم الملحوظ.

أما التعليم المدني فتتوفر فيه دراسة الكون والحياة، وتتَّسع فيه الدراسات الإنسانية المجردة، وربما حصل الطالب العربي على أنصبة ضخمة من هذه

المعارف المحترمة تساوي ما يحصل عليه زميله في موسكو أو لندن، أما العلوم الدينية والعربية فإنَّ الطالب لا يُكلَّف بها ولا يتناول أنصبة محترمة منها. وإذا قدم له شيء تحت ضغط ظروف معينة فذراً للرماد في العيون، ويكاد التعليم الثانوي والجامعي أن يقفر كل الإقفار من المعرفة الإسلامية النافعة، ومن هنا يتخرج المهندسون والأطباء والكيماويون والضباط والمحاسبون وغيرهم وهم لا يدرون شيئاً طائلاً عن دينهم، بل إنَّ دارسي الحقوق لا يعرفون عن الشريعة الإسلامية إلا مثل ما يعرفون عن القانون الروماني البائد. وقد نشأ عن ذلك أنَّ قادة المسلمين ـ وجملتهم من هؤلاء ـ يحيون مقطوعي الصلات بدينهم، بل قد يضيقون به ويعملون ضده، أما من يسمَّون علماء الدين فهم صرعىٰ قصورهم وانقطاعهم، وقلَّما يصلحون لعرض الإسلام والحديث عنه، والفجوة بين التعليم الديني والمدني تعمق على مرِّ الزمن.

والهدف الذي خطط له الغزو الثقافي أن يتلاشى التعليم الديني وتتحول جامعاته الكبرى إلى جامعات مدنية، وأمله ـ إن لم يقع ذلك قريباً ـ أن يكون المتنسبون إلى الدين موضع الإهمال والزراية بضحالتهم وعجزهم وتنكر الدنيا لهم..

ونرى أنه لن تنتهي هذه المأساة إلا إذا محت بشكل حاسم بدعة ازدواج الثقافة، وتقرر أن يكون كل متعلم حاصلاً على حظٍّ معقول من علوم الدين واللغة يربطه بتراثه وحضارته ومثله العليا، ويجعله يحيا لأمته لا لأعدائها، يحيا لدينه وتراثه ولا ذنباً يتبع كل تيار، ويصدِّق كل ناعق.

(٥) واتَّجه الغزو الثقافي إلى لغة القرآن فأصابها إصابات قاتلة، إذ عزل هذه اللغة عزلاً تاماً عن تدريس العلوم، فلا وجود للغة العربية في كليات الطب أو الصيدلة أو الهندسة أو العلوم أو غيرها من الكليات التي تدرس الكون والحياة.

واللغة الإنجليزية هي لغة العلم في البلاد التي خضعت للاستعمار الإنجليزي، واللغة الفرنسية هي لغة العلم في البلاد التي خضعت للاستعمار

الفرنسي، واللغة الروسية طبعاً هي لغة العلم لملايين المسلمين الذين عاشواأو ذابوا في الاتحاد السوفيتي.

وكما أميتت اللغة العربية في هذا الميدان أميتت في ميدان التقدم الحضاري على اختلاف أبعاده المدنية والعسكرية والمنزلية والاجتماعية، فإنَّ الألفاظ الأجنبية وحدها التي تستخدم لألوف الأجهزة والسِّلع والمصطلحات الحديثة. وزاد الطين بلة أنَّ لغة التخاطب والحوار أخذت تتجه بقوة إلى اللهجات العامية، واستطاع الغزو الثقافي في كثير من الإذاعات والصحف أن يبعد العربية عن هذا المجال كذلك! بل إن بعض الزعماء أخذ يخطب بالعامية المحلية لقطره، ويدع الحديث بالعربية، وإذا تحدث بها فبعد إعلان حرب شعواء على قواعد اللغة وضوابطها. إنه يستحي من أيِّ خطأ يقع فيه لو تكلَّم بالإنكليزية أو الفرنسية ويرى ذلك نقصاً شائناً. أما اللغة العربية فإنَّ الخطأ فيها لا حرج فيه لأنه لا مكانة لها..

والمقصود بعد موت العربية ـ لا قدَّر الله ـ أن يوضع القرآن في المتاحف، لأنه لا يوجد بعد ذلك من يفهمه!!.

واقتضت الحرب المعلنة على اللغة أن يحقر أدبها العالي وشعرها الرصين فأهيل التراب على أسماء شوقي وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وأحمد محرم، وعزيز أباظة، وظهر شيء آخر دميم الصورة والسريرة اسمه الشعر المنثور، وانضمَّ إليه الزجل والموَّال وغير ذلك من الهراء الذي سقطت به مكانة الفن العربي، وانقطعت به العلاقات بين أدبنا القديم والحديث.. وأحب أن أعالن بأن الحفاظ على لغة العرب من شعائر الإسلام، وأنَّ دحرجة هذه اللغة إلى منزلة ثانوية خيانةٌ لله ورسوله، وأنَّ تعلم النحو والصرف كتعلم التفسير والحديث، وأنَّ إقرار الأخطاء اللغوية كإقرار المعاصي الدينية سواء بسواء.

(٦) واتَّجه الغزو الثقافي إلى الشريعة الإسلامية ليخلع عن رأسها التاج ويعزلها عن مكان الصدارة! لقد كانت هذه الشريعة تحكم في الدماء والأموال

والأعراض وتحرس الحقوق الخاصة والعامة، وتقرر الحدود في العلاقات المحلية والعالمية، والمدهش أنَّ الرومان يفخرون بقانونهم ويخلِّدون مبادئه ومواده! وما القانون الروماني إلى جانب الشرع الإسلامي؟ إنه كبئر آسنة إلى جانب النيل أو الفرات أو كأكوام تراب إلى جانب الجبال الشُّم!!

إنَّ الفقه الإسلامي استبحر في حضارتنا واستوعب من مصالح الدنيا والدين ما يبهر ويعجب، وقد كتب الفقهاء المسلمون ألوفاً مؤلفةً من المجلدات التي عمرت بالآراء الذكية والاجتهاد الحر. وظل هذا الفقه يحكم المسلمين وغيرهم بين الأطلسي والهادي حكماً راشداً كافياً مغنياً حتى دخل الاستعمار الحديث فأخذ ينفِّسُ عن حقده على الإسلام بمكر وخبث، فأُلغيت شرائع الحدود والقصاص، وعُطِّلت المقررات الإسلامية في شتى القضايا الحسَّاسة، وتُركت إلى حين قوانين الأسرة، وها قد بدأت بعض البلاد صيحات العملاء لتغيير أنصبة المواريث وتنصير بقية الصلات العائلية!!

لقد اتفقت جميع الدول الاستعمارية على إلغاء التشريع الإسلامي، وقصدت بذلك إلى أمرين:

أولهما: إبعاد الإسلام عن الحياة العامة وتجريده من سلطة الأمر والنهي واتهامه بعدم الصلاحية للبتِّ في شؤون الناس.

والأمر الثاني: تمزيق الضمير الديني عند الرجل المسلم لأنه إذا رأى أمر الله معطلاً في شأن من الشؤون هانَ عليه أن يُعطِّل في شأن آخر.. فإذا قرأ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ ورأى هذا المكتوب لا ينفذ سهل عليه أن يقرأ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ دون أن ينفذ هذا المكتوب أيضاً.

والواقع أنَّ الاحتلال القانوني الأجنبي لم يدمِّر الشريعة وحدها، وإنَّما دمَّر كذلك عقائد وعبادات. وماذا كسب المسلمون، بل ماذا كسب الناس كلهم من تعطيل الأحكام السماوية؟ لا شيء إلا انتشار الفوضى والمفاسد. لقد أبيح الزنا والربا والخمر والقمار، واختلطت الحرية الفكرية بحرية الهوى؛ والقانون

الوضعي وراء هذا كله.

(٧) ودراسة العلوم الإنسانية تحتاج إلى شيء من التأمل، وهذه العلوم هي علم الأخلاق والتربية والاجتماع والنفس والاقتصاد والسياسة وغير ذلك، وتسميتها علوماً ضرب من التجوُّز فهي فروع فلسفية تعتمد على الفكر أكثر من اعتمادها على التجربة، وموضوعها الإنسان وملكاته ورسالاته في هذه الحياة، وهذا الموضوع أشبعه الإسلام دراسة وأغناه بجملة وافرة من الأحكام والمبادىء والتطبيقات. ولكن العلوم الإنسانية تدرس في أوروبا ثم تترجم هذه الدراسة إلينا، فإذا الوالد الذي يذكر لها كلها هو اليونان، إنَّ جرثومتها الأولى لم تعرف لها من أرض الله وطناً إلا اليونان، ثم تقفز هذه الدراسة مسافة ألف سنة لتظهر في أوروبا وتبدأ عملها هناك! عجباً أين كانت خلال هذه القرون، كانت في بغداد ودمشق والقاهرة ومراكش؟ إنَّ الجواب معروف ولكن لا يجوز النطق به، لأن العرب والمسلمين لا يجوز أن ينسب لهم فضل ولا أن يعرفوا بين الناس بخير!!

ليس لعلماء المسلمين أي جهد في ميدان العلوم الإنسانية، هكذا يكذب الاستعمار الثقافي ويريد إفهام الناس أنَّ علماء المسلمين لم يسهموا بشيء في مجال العلوم أو الفلسفة، ثم أطلق إشاعة سَرَت للأسف بين بعض القاصرين عندنا، وهي أنَّ العصور الوسطى عصور ظلام، لقد كانت عصور ظلام في أوروبا حقاً، لكن هذه العصور كانت تتألق بالسَّنا في عواصم الإسلام، إنَّ المدن العظام في آسيا وإفريقية كانت عامرة بالجامعات والمكتبات، وكانت تتأنَّق في ألبسة زاهية من التفوق الحضاري العالمي. وقد استفاد الأوربيون معرفتهم بالعلوم الإنسانية والعلوم التجريبية من الحضارة الإسلامية الغلاَّبة في هذه العصور، ولكن الحقد الأعمىٰ يريد تزوير التاريخ وإنكار الحق..

ثم يجيء دور الغزو الثقافي في هذه الأيام العجاف يحاول إفهامنا أننا لسنا بشيء وأن آباءنا ما كانوا شيئاً؟! فإذا قلت للأوربيين: مكثتم ـ قبل عصر

الإحياء ـ خمسة عشر قرناً تأكلون خشاش الأرض وتعصف بكم الأوبئة لكثرة ما يحفُّ بمساكنكم من أوحال وقمامات فمن أين تعلمتم ونهضتم؟ لقالوا: تعلَّمنا من المريخ أو من الزهرة ولأبوا أن يعترفوا بالفضل لأهله ويقولوا: هو فضل العرب علينا وعلى الناس!!

وللمستشرقين دور كبير في تزوير التاريخ وتحريف حقائقه؟ وهناك نفر من الأدباء الذين اتصلوا بهم وتلقوا عنهم شاركوا في خدمة الاستعمار الثقافي وهدم الكيان الإسلامي، ولكن سرعان ما ضبط بعضهم، ونحن إن شاء الله ماضون في القبض على الباقين..

إنني أرفض التعاظم بالآباء ولكن إذا كانت الأمم التي لا تاريخ لها تصنع لنفسها تاريخاً يكون منطلقاً لنشاطها، والأمم التي لها تاريخ حافل بالتعصب والمآسي تستر أخطاءها وتحاول الاعتذار عنها فهل المسلمون وحدهم هم الذين يُستباح تاريخهم ويُنكر جميلهم وتُلتمس العيوب لتراثهم؟ ذاك ما يريده الغزو الثقافي، إنه يريد أن يعرِّف أولادنا الكثير عن نابليون، وواشنطن، ومونتجمري، ولا يعرفون شيئاً عن خالد أو صلاح الدين أو قطز وبيبرس...

(٨) وفي بعض الأقطار الإسلامية ظروف اجتماعية واقتصادية معقَّدة، أمكنت التبشير أن يتوغَّل فيها ويستفيد منها، بل إنه رَتَع فيها كما يرتع الداء في جسم لا مناعة له ولا تماسك به!! وهو يستغل المال الكثير المبذول كي يربي اللقطاء ويكفل اليتامى ويزيغ بهم جميعاً عن الصراط المستقيم. وقد وضع يده على الألوف من الأطفال في أعقاب الانقلاب الشيوعي الفاشل في «إندونيسيا» ولعله الآن يتلمظ ليضعَ يده على عشرات الألوف من اليتامى العرب الذين قتل آباؤهم في الحرب اللبنانية الأخيرة.. وظاهر أنَّ الاستعمار التبشيري يتوسَّل بالخدمات الاجتماعية والتعليمية، كي ييسر الارتداد على أبناء المسلمين، والغزو الثقافي هنا كما يبرز في ملجأ أو مستشفى يبرز في مدرسة حضانة، أو دار نشر، أو معهد فني، أو رواية تمثيلية.

ونحن لا نلوم الآخرين على انتهاز الفرص لخدمة ما يعتقدون، ولكننا نلوم أنفسنا إذ تركنا فراغاً امتد فيه غيرنا. ومن ترك باب داره مفتوحاً لا يلوم اللصوص إذا سرقوا مدخراته، وقديماً قيل:

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولىٰ رعيَها الأسدُ!!

وهذا يجرُّنا إلى الحديث عن المقاومة الإسلامية للغزو الثقافي وضرورة تقوية حصوننا المهددة.

(٩) الإسلام جدير بسيادة الدنيا لو وجد رجالاً يجيدون عرضه كما جاء من عند الله دون نقص أو تزيُّد. وقد كان العلماء في العصور الزاهرة كثرة تسر. وكان معارضو الإسلام قانطين من مواجهته في ميدان فكري. لأنه يجتاحهم اجتياحاً، لكن الجبهة الإسلامية اليوم تتَّسم بالعجز أو القصور في الميدان العلمي حتى طمع فيها من لا يدفع نفسه، والحديث مستفيض عن الأزمات التي يعانيها الإسلام في الدعاة وفي الفقهاء، وهي أزمات ـ إن بقيت ـ فالعاقبة وخيمة.

من ربع قرن كان لدينا علماء يعرفون جوانب حسنة من الإسلام، وأذكر أنَّ أحدهم وهو من شيوخ الأزهر المحترمين اعترض خطبة لي كنت حَبَّذت فيها الإشهاد على الطلاق، وعدم وقوع الطلاق البدعي، قال لي: كيف قلت هذا الكلام؟ قلت: مذهب إسلامي أعجبني، ورأيته يعالج بعض مشكلات الأسرة! قال: هذا مذهب مهجور، والفتوى عندنا على مذهب أبي حنيفة!! قلت له: أنا ألتمس العلاج في أي مذهب إسلامي، ولأن نعتمد في التشريع على مذهب إسلامي قديم خير من أن يستورد النساء مذهباً كفرانياً من أوروبا. واستتليت: إنَّ قوى الكفر كلها تحارب الإسلام فينبغي أن يدافعها الإسلام بمجتهديه ومفكريه كلهم، لا بواحد منهم وحسب. إنَّ الإسلام هو الذي صنع أبا حنيفة وغيره من الرجال، وليسوا هم الذين صنعوا الإسلام. . .

كان ذاك من سنين وفي العالم الإسلامي فقهاء يعرفون جوانب محدودة من دينهم، والآن يوجد متحدثون عن الإسلام يتمنى المرء لو سكتوا فما قالوا حرفاً، إنَّ فقرهم مدقع في الكتاب والسنة. . والقليل الذي عرفوه لم يفهموه على وجهه الصحيح، وإدراكهم لتراث الأئمة المتبوعين في الفقه وغيره ضعيف، وإدراكهم للكون الذي يعيشون فيه، والإنسانية التي تعمره أضعف. . ولا أدري كيف أتيح لهؤلاء التحدث عن الإسلام، وهم دون ذلك المستوى. إنَّ حديثهم عنه يكاد يكون ضرباً من الصدِّ عن سبيل الله. .

إنَّ المذاهب المادية والأديان الخرافية رزقت دعاة على درجة ملحوظة من الذكاء والقدرة فاستكثرت من الأتباع وأغرت الكثير بالدخول فيها وإذا انتصر الإلحاد على الإيمان في معركة فليس العيب في الإيمان، ولكن العيب في أتباعه والمنتسبين إليه. .

ونعود إلى سماسرة الغزو الثقافي في بلادنا لنكشف خباياهم ونحذر منهم. قال حذيفة: «كان الناس يسألون عن الخير وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أقع فيه! قلت: يا رسول الله لقد كنَّا في جاهلية وشر حتى بعثك الله بالخير، فهل بعد هذا الخير شر! قال: نعم! قلت: فهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم. وفيه دَخَل، قلت: وما دخله؟ قال: أناس يهدون بغير سنتي تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. . دعاةٌ على أبواب جهنم مَنْ أجابهم إليها قذفوه فيها!! قلت: صِفْهم لنا! قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. وقلت: ما تأمرني إنْ أدركتهم؟ قال: اعتزل هذه الفرق كلها، ولو أن تعضَّ على أصل شجرة حتى تموت على ذلك خير لك. .».

فِي مَيْدَانِ التَّشْرِيع

إنَّ نبذ شرائع الإسلام واستجلاب قوانين مما صنع الأجانب لأنفسهم كي تحل مكانها، لم يتمَّ دفعة واحدة.

بل كان نتيجة أخيرة لسلسلة من التحلل والاستهانة وقعت في أعصار متطاولة ثم انتهت بهذا الختام المعتم.

والذي أتصوره أنَّ الحكام والقضاة والمفتين تراخوا أولاً في تطبيق ما كتب الله من ذلك رعاية للأكابر مثلاً، أو اتباعاً لبعض الأهواء.

ثم تطور هذا الإهمال إلى غض من حرمة النصوص، وجرأة على وقفها.

وأعان على هذا التطور فساد الملوك والولاة، وتكاسلهم عن فعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه في شؤون العبادات الأخرى..

وأعان عليه أيضاً كساد سوق العلم واختفاء الفقهاء المجتهدين من ربوع العالم الإسلامي، وانشغال العامة بقشور مما خلَّف الأقدمون لا تحفظ حياةَ أمة بله أن تطيل بقاءها وتقوي ثمارها.

فكان ما لا بد منه، وماتت شرائع الحدود والقصاص في أيدي أخلاف عتَتْ عن أمر ربها ورسله..

وما دام الإيمان الحق ـ وهو ملاك النظم كلها ـ قد ضعف وهان فهيهات أن تتماسك بعده أمة.

ولا تستغربن عندئذ ما يقع فيها ولا ما يقع منها.

أضف إلى ذلك أنَّ الصليبية الغربية بالمرصاد، وهي نَهَّازة للفرص، فإذا

وجدت ثغرة تنفذ منها إلى النيل من الإسلام وإصابة مقاتله فهي تهتبلها لا محالة.

وفي الغزو الثقافي والاجتماعي الذي رَمَتْنا به كان حرصها بادياً على ضرورة إقصاء التشريع الإسلامي وإحلال القوانين الغربية محله . .

وقد بدأ ذلك في مصر ـ من عهد محمد علي باشا رأس الأسرة المالكة التي قضت عليها الثورة باسم الإسلام وتحت شعار المصحف الشريف.

ومحمد علي هذا قائد تركي، خانَ دولته واستقلَّ بمصر، لا ليقيم عوج الأمور فيها، بل ليجعل منها مزرعةً تدرُّ عليه وعلى أولاده! . .

وقد أجمع مؤرخو عصره على أنه بلغ المدى في القسوة والجبروت.

ووجدت فرنسا ـ عدو تركيا يومئذ ـ أنَّ مصالحها تقضي عليها بمساعدة الوالي الثائر بتغليب كفته على دولة الخلافة توسيعاً لفتوق في كيانها فأمدَّت محمد علي باشا بالعون العسكري والعلمي والتشريعي أيضاً!!

وكان هذا التدخل (الأدبي) بداية انتشار الثقافة الفرنسية وما يتبعها في مصر وجاراتها.

قال الدكتور عبد العزيز عامر: «إنَّ المسلك الذي كان يجدر بمحمد علي لعلاج الفوضى في البلاد أن يصلح الأداة القائمة على تطبيق الشريعة الإسلامية مع الإبقاء على هذه الشريعة مصدراً أصيلاً لكل تقنين تدعو إليه الحاجة، لا أن يلجأ إلى القانون الفرنسي الصادر سنة ١٨١٠ فيجعله أساساً لما سنَّ من تشريعات . .

ولم تكن شريعتنا لتتخلَّف عن أي إصلاح منشود، فلماذا يعدل عنها؟

لكن الذي وقع من محمد علي باشا أنه فتح الطريق لنقل القوانين التي أُستُحدِثت في عهده، ثم التي جدَّت حتى سنة ١٨٨٣ من قانون العقوبات الفرنسي!!

فجاءت خليطاً منكراً متنافراً من تشريعات مختلفة لا تمتُّ بسبب إلى بيئتنا الإسلامية.

بل جاءت علاجاً لا قيمة له في محاربة الجريمة وعقاب أصحابها، ولم تزد البلاد إلا خبالاً . .

هذا من ناحية موضوعها، أما من ناحية الشكل فقد جاءت يسودها الارتجال في الأحكام والاضطراب في التنظيم والتبويب، كما جاءت خالية من الأفكار العامة في مكافحة الجريمة وأسلوب العقاب.

وظاهر أن الفرنسيين استغلوا حاجة«محمد علي» إليهم على نطاق واسع، إنه دفع ثمن الخبراء والموظفين ـ الذين دعموا حكمه ـ من صلة البلاد بالإسلام وتمسكها بتعاليمه . .

والفرنسيون الذين أُسرَ مليكُهم في مصر إبان الحروب الصليبية الأولى ظلوا حتى أيام «نابليون بونابرت» طامعين في إعادة الكرة على الشرق.

فإذا فشلوا حربياً في هزيمة الإسلام، فيجب ألا يفشلوا سياسياً وثقافياً، وذاك ما أغراهم بمساندة «محمد علي» وتمهيد طريق الإلحاد أمامه.

ولم يكن الرجل على نصيب من التقوى يعصمه من هذه الشِّراك فما لبث أن انزلق.

وهكذا أصيب التشريع الإسلامي بضربةٍ موجعةٍ منذ خمسين ومائة سنة . .

وتفلت المسلمين من قيود التشريع الإلهي ليس بِدْعاً في تاريخ الأمم، فإنَّ اليهود والنصارى جميعاً سبقوا المسلمين إلى هذه المهارب.

والعلَّة التي جمعت بينهم في العصيان أن تشريعات السماء صارمة، هدفها تطهير الأرض من الجرائيم الخلقية وصيانة الأموال والدماء والأعراض بأسلوب حاسم.

فكيف يحتال البشر لارتكاب ما يشتهون، أو كيف يتخلصون من وَرطات الجريمة إذا سقطوا فيها؟ .

ليشرِّع بعضهم لبعض، ولن يكون المشرع ـ مهما ارتقت منزلته ـ إلا إنساناً منهم، تسبح في دمه جراثيم الخطيئة، فهو إن لم يواقعها رفيق بمن يقارفونها.

إنه يتصور نفسه في موقف المجرم المعاقَب فيصوغ مواد القانون وبها من المرونة وتقدير الملابسات ما يفسح المجال للمتَّهم كي ينجو أو يخلص من سقطته بعقوبة يسيرة.

وذلك سرُّ جعل الزنا عملاً لا نُكر فيه، وكذلك الخمر.

وهو السرُّ في إبطال القصاص بالنسبة للعاهات والأطراف وما إليها، وتضييق القصاص في جرائم القتل إلى حدٍّ مستغرَب، وإحاطته بشروط ما أنزل الله بها من سلطان كالترصُّد وسبق الإصرار!!

ونحن نوافق كل رقيق القلب على رحمته بالناس وتلمس الأعذار الملطفات لزلاتهم.

بَيْدَ أننا ذهلنا عن أصل ضخم جداً، وهو أنَّ الله أبر بعباده.. وأستر.. وأغير على حرماتهم وحقوقهم من أيِّ مشرِّع آخر، فعندما شرع القصاص مثلاً قال مبيناً حكمته: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

أي أنَّ تخفيض عدد الجرائم، وحماية الألوف من أخطارها ورحمة الجماهير من مغبتها نتائج يضمنها حتماً تنفيذ «القصاص».

أما هذه الرقة التي تثور ابتداءً فهي رقة لو تملَّكت قلبَ كل طبيب قبل إجراء الجراحات المطلوبة للشفاء فلن يصح عليل أبداً ولن يستأصل مرض!!

على أنَّ اعتبار المجرم إنساناً تطلب له السلامة ويدرأ عنه العقاب، ويفرح بستره وبراءته، وتوضع النظم لإقالته من عثرته، أمرٌ لم يفت الفقه الإسلامي ولم ينسه العلماء في شروحهم وفتاويهم.

بل أظن التوسع في ذلك بغير فقه كان الذريعة الأولى لتعطيل أحكام السماء.

فإنَّ ملاحظة جانب المخطىء تحولت إلى فوضى ثم إلى جحود، ومكَّنت للهوى أن يعيثَ فساداً في أغلب أقطار العالم إن لم يكن فيها كلها . .

وقد حرص الأجانب في علاقتهم بالأمة الإسلامية ـ خصوصاً إبان ضعفهم ـ أن يتخلَّصوا من أحكام الله ولو وردت في كتبهم التي بين أيديهم.

* * *

«وفي سنة ١٨٨٣ أسست المحاكم الأهلية ووكل إليها أن تطبق قوانين العقوبات بعد أن أخذت صورة متناسقة بالنسبة إلى التشريعات السابقة.

واعتمد الواضعون لهذه القوانين على التشريع الفرنسي الذي سبق أن استمد عنه محمد علي باشا.

وترك للمحاكم الشرعية يومئذ أن تحكم في الأحوال الشخصية والحسبة وشؤون الوقف وما شابه ذلك . . !!

ثم عدلت قوانين العقوبات سنة ١٩٠٤ تعديلاً شاملاً. وانضمَّ إلى التشريع الفرنسي كمصدر أول للتشريع، القانون البلجيكي الصادر سنة ١٨٦٧، والقانون الإيطالي الصادر سنة ١٨٩٩، والقانون الهندي الصادر سنة ١٨٦٢، والقانون السوداني الصادر سنة ١٨٩٩، والأخيران مقتبسان من القانون الإنجليزي.

وهكذا تسوَّلت أمةٌ مسلمةٌ مادةَ فقهها العملي من كل قطر كأنها نبتت على صعيد الدنيا بغتة فليس لها ماضٍ تستمد منه، ولا تاريخٌ مشحون بالذخائر الرائعة . . تاريخ لو كان لأمة أخرى لكاثرت الناس به وأغرتهم أن يلجؤوا إليه . . !!

. . لا أن تقبع هي تحت موائدهم تنتظر الفتات»[1].

---

(١) من رسالة خاصة للدكتور عبد العزيز عامر مع تصرف وإيجاز.

وقد تساءل الدكتور عبد العزيز عامر عن السبب الذي ألجأ المشرِّع المصري إلى هذه المصادر الأجنبية، تاركاً الشريعة الإسلامية التي ظلت تلبي حاجة الأجيال قروناً طويلة؟

قال: «والذي يريد تقصِّي الحقيقة يجب أن يرجع إلى محضر الجلسة التي عقدها مجلس النظَّار في ٢١/ ٢/ ١٨٨٢ لمناقشة ناظر «الحقَّانية» عندما أمر بتشكيل لجنة لترتيب المحاكم الأهلية وتحضير القوانين التي تتبع. فقد رأى «رياض باشا» أن تكون القوانين المطبقة في المحاكم المختلطة هي نفسها التي تطبق في المحاكم الأهلية.

وأيده في ذلك «خيري باشا» الذي شرح مزايا هذا الرأي بأنه الخطوة التي ستوحّد القانون في البلد، والتي يعقبها إمكان الاستغناء عن المحاكم المختلطة إذ تصبح لا مكان لها بعد أن قامت لها نظائر تؤدي عملها. !!».

وكلام هؤلاء (الباشوات) يستدعي التأمل.

فالمحاكم المختلطة تنظر في قضايا الأجانب ومن يشتبكون معهم، وقانونها يمثل البلاد التي نزح منها أولئك الأجانب المدللون.

وبدلاً من أن يخضعوا لشريعة البلاد التي انتقلوا إليها، أو يتركوها إلى غير عودة، ننتقل نحن وتنتقل بلادنا إلى شرائع البلاد التي رمت بهم!

وبذلك يمكن الخلاص من المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية القضائية!!

أرأيت مبلغ ذوبان الشخصية الإسلامية وسقوط اعتبارها؟

أرأيتَ طريقة القوم في الحصول على الاستقلال ومكافحة الاستعمار الغربي؟

إننا نسوق هذا الحوار ليعرف القارىء المسلم أنَّ عناصر الإيمان بالله، والانصياع لأمره، والأخذ عن كتابه، والاعتماد على نشره.. كانت قد ذبلت أشد الذبول في هذه النفوس الفارغة.

فلا غرو إذا انساح المستعمرون في بلادنا لا يرون كيداً ولا يخشون صداً.

على أن ذكر الإسلام قد جرى في «مجلس النظَّار» مرَّة أخرى كما تجري التوبة على بال امرىء أحاطت به خطيئته فما يستطيع من حصارها فكاكاً.

ذلك أنَّ التفكير اتَّجه إلى سنٍّ قانون مدني من أحكام الشريعة الإسلامية، ومثل ذلك الصنيع ميسور، ووجوه الشبه قريبة بين ما يجيء من الخارج وبين ما يستنبط من أحكام الإسلام.

ومن ثم فالاعتراض عليه مستبعد أو قد يمر سليم العواقب..

والحق أن القانون المدني الحاضر لو حُذِفت منه المواد الربوية لأمكن جعله إسلامياً، ورد أصوله وفروعه إلى مذاهبنا الفقهية العتيدة، ولأصبح الحكم به عبادة متقبلة.

ولكن للربا أنصار كثيرون، وهم بدل أن يفيئوا إلى أمر الله فيه، حاولوا أن يؤولوا نصوص الكتاب والسنة، وأن يحرِّفوا الكَلِمَ عن مواضعه..

ولو أنَّ القانون المدني سوَّى في التحريم بين الربا الفاحش واليسير، وأقرَّه «مجلس النظَّار» القديم على صورته الباقية لفزنا بنصف تشريعنا إسلامياً.

ولكنهم خشوا أن يقال: لم اعتمدتم على الإسلام هنا، واستوردتم مواد العقوبات والجنايات من الخارج؟ والذي يقول هذه بداهة هم أهل البلاد المحافظون على عقيدتهم وشريعتهم.

وفكر «مجلس النظار» ثم رأى أن يدع الإسلام جانباً مخافة قوة أكبر من قوة الأهلين، هي قوة جيش الاحتلال البريطاني.

إنَّ الإنكليز يأبون أن تكون هناك حركة تدل على أنَّ في الإسلام بقيةَ حياة، فلتطبق إذن التشريعات الأجنبية التي بدأ بالتعويل عليها محمد علي باشا ساكن الجنان!!

والغريب أنَّ المجلس الموقَّر عندما قرَّر صرف النظر عن التشريع الإسلامي اختشى أن يرد ذلك إلى ضرورات الاحتلال، بل قال: إن ذلك «بالنسبة للحالة الجارية بين الأهالي».. !!

وإليك فقرات ملخصة من مذكرة «ناظر الحقانية» إلى «مجلس النظار» في «٢٦ محرم سنة ١٣٠٠ و ٧ديسمبر سنة ١٨٨٢» قال: «عند انعقاد «القومسيون» الأول تقرَّر اتّخاذ القوانين المختلطة للتشريع المصري على أن تعدل وفق طباع الأهلين ومعاملاتهم.

ثم إنَّ الحكومة رأت بعد ذلك وضع قانون مدني مطابق للشريعة الإسلامية، وأحيل عمله على «قدري باشا» ولم يتم عمل هذا القانون إلى الآن.

وأرى أنه إذا قيل بلزوم جعل القانون المدني مطابقاً للشريعة الإسلامية فربما يقال ـ من باب أولى ـ بلزوم أن يكون الحكم في الجنايات وسير المرافعات ونظر الدعاوى على مقتضى الشريعة الإسلامية..».

وقال: «وفي هذا ما لا يحتاج لتعريف من الصعوبات بالنسبة للحالة الجارية بين الأهالي (وإن المترائي) ـ يعني ما يراه ـ أن تأخذ القوانين المصرية الموجودة في ذلك الوقت أساساً للعمل بالمحاكم.

وبعد مناقشة هذه المذكرة بمجلس النظار المنعقد في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٢ تمَّت الموافقة على الإسراع في تشكيل المحاكم الأهلية المستجدة على أن يكون التقاضي أمامها حسب قانوني العقوبات وتحقيق الجنايات المعمول بهما في المحاكم المختلطة بعد تعديلهما بما يلائم حالة البلد ـ وحسب القانون المدني المعمول به من غير تعديل.

قال الدكتور عبد العزيز عامر: «والذي نستنتجه من هذه الوقائع التاريخية أنَّ الدافع الذي حدا بأولي الأمر إلى التأسي في تشريعهم الجنائي والمدني بالقانون المختلط (أي بالقانون الفرنسي الذي هو مصدره) ما كانت عليه البلاد

من ضعف شديد أمام الأجانب لوجود الامتيازات الأجنبية العامة، والاحتلال العسكري البريطاني. وذلك واضح في مذكرة «ناظر الحقانية» إذ قال رداً على القول بجعل الشريعة الإسلامية أساساً لقانون العقوبات: إنَّ في ذلك ما لا يحتاج لتعريف من الصعوبات للحالة الجارية بين الأهالي!!

وإذا كان مما يرقى إلى مرتبة اليقين أن ليس المقصود بهذه العبارة عادات الناس والعرف السائد بينهم وظروف بيئتهم، إذ أنَّ ذلك كله يلح أن تكون الشريعة الإسلامية أساس التقنين لبلد دينه الإسلام: فلم يبقَ إلا أنَّ المقصود هو الاحتلال البريطاني ونفوذ الأجانب الذي لا حدَّ له في هذه البلاد. خصوصاً أنها كانت في مستهل عهدها الأسود، عهد الاحتلال البغيض».

وقد ذهب الاحتلال العسكري، وانقَضَتْ سطوة الاستعمار، غير أن الإلف جعل للغريب نسباً، وللبغيض مودة!!

فإنَّ التشريع الغربي له عشَّاق يدفعون عنه ويعيشون به.

ولو لم يكن لانتصار «أوروبا» على بلاد الإسلام من أثر إلا أنَّ أبناء الإسلام ينفضون أيديهم منه ومن تشريعه لعُدَّ ذلك نجاحاً للصليبية الحديثة لم تظفر في تاريخها بمثله..

ومعروف أنَّ «أوروبا» اشترطت على مصر وهي تلغي الامتيازات الأجنبية أن تحكم بقوانين تشبه قوانينها.

وهذه الشروط بقية من إملاء القوي على الضعيف، فما لأحد أن يلزم أمة من الأمم أن تهدر كتابها وتترك دينها وتتبع أهواء الآخرين.

* * *

إنّ القانون الذي يحكم بلداً ما يعتبر الحارس الحي لما يسود هذا البلد من قيم روحية وتقاليد اجتماعية وأخلاق ومُثُل رفيعة يلتزمها، وعقائد وشعائر يحرص عليها..

ففي بلد مثل روسيا تسوده الفلسفة المادية لا ينتظر من القانون أن يرجو لله وقاراً، أو يرى إنكاره جريمة، أو رفض طاعته إثماً!!

بل إنَّ القانون قد يعدُّ الصلاة تمرداً والصيام ردةً منكورة[1]!!

وفي العالم الحر ـ كمايتسمى ـ تَشيع نظرة معينة إلى الخطيئة، إنها نداء الطبيعة الذي لا بد منه، والهوى الذي يطاع دون حرج، بل إنّ المصارحة بهذه الخطايا لا يجوز استغرابها ولا اعتراضها. . !!

ونشأ ـ مع خفوت صوت الدين ـ أن عَلَتْ صيحات التحلل، ثم طال إلفها، واستطال أصحابها، وقام مجتمع يألف شربَ الخمر مع كل طعام، ويسهل اختلاط الجنسين بالليل والنهار.

والقانون الذي صنعه الناس لأنفسهم يُقرُّ هذه الفوضى إقراراً مطلقاً.

ومطلوبٌ منا نحن المسلمين أن نستريح إليه، وألا نشغب عليه!!!

والمهم أن نستيقظ نحن لنعرف نفاسة ما عندنا ووضاعة ما عند الآخرين.

تأمل في الذي نشرته صحف الصباح في ١/١٢/١٩٥١ تحت عنوان «فضيحة في إنجلترا»:

«اعترفت «مارجانيتا لاسكي» وهي مؤلفة لقصص مشهورة وأم لطفلين، بأن ٦٠٪ من جميع الزوجات البريطانيات كنَّ على علاقات مع أزواجهن قبل أن يتم الزواج، وقالت: إنَّ هذه النسبة ترتفع إلى ٧٠٪ بالنسبة لمن هنَّ دون العشرين من أعمارهن.

وقد ألقت «مارجانيتا» بتصريحها هذا في اجتماع المجلس الأهلي للنساء غير المتزوجات، وقالت: إنها لا ترى في هذا العمل أي خطأ يدعو إلى اللوم ما دام ينتهي إلى الزواج!!

وفسَّرت هذا بقولها: إنه من العادات المعروفة من قديم الأزل بالنسبة

---

(١) كتب هذا الكلام قبل انهيار النظام الشيوعي هناك، فالطبعة الأولى صدرت سنة ١٩٥٥.

للشباب غير المتزوجين، أن تنشأ بينهم علاقات جنسية ما دامت لديهم النية الصادقة في الزواج.

وقالت إنَّ ٣٠٪ من الفتيات الإنجليزيات يتزوَّجن . . وهنَّ حوامل، وأن هذا الرقم يرتفع إلى ٥٠٪ بين من هنَّ دون العشرين من أعمارهن.

وقد أقرَّ مستشار الجمعية القانوني رأي «مارجانيتا»، وأقرَّها على رأيها المستشار الصحي لمجلس بلدية لندن.

وعلَّق رئيس محكمة الأحداث السابق على خطاب «مارجانيتا» بقوله: إنه يجب على الفتيات أن يحافظن على أنفسهن استعداداً للزواج، وإنَّ فتيات العصر الحاضر لا يفكرن في هذا الأمر كثيراً. . وإن الشبان يسيرون في الطريق الذي تقودهم إليه الفتيات. . ».

هذه صورة لا يختص بها المجتمع الإنجليزي فهي شائعة في أغلب أمم الغرب.

وهذا إحصاء آخر نشرته جريدة الجمهورية عن المرأة الأوربية في إيطاليا:

«هزأت الممثلة الإيطالية «جينا لولو بريجيدا» بالعالِم والأخصائي الأمريكي الكبير الدكتور «كينسي» في حديث لها مع أحد الصحفيين الذين سألوها عن رأيها فيما يعتزمه الدكتور من عمل إحصاء عن المرأة الأوروبية في النواحي الجنسية. . . ».

ويروي لنا هذا الصحفي ما تمَّ في هذه المقابلة فيقول:

«ذهب إلى فندق «رافاييل» حيث تقيم «جينا» في أثناء تصوير الفيلم الأمريكي «ترابيزة» ولم يبدُ عليها أي تأثير أو اهتمام لهذا النبأ، بل قالت ببساطة: من هو هذا الدكتور كينسي؟ ولما أجبتها بأنه عالم وأستاذ وباحث في الأخلاق الجنسية، للرجال والنساء، قالت: وماذا ينتظر أن يكتشفه عن الأوربيات؟

.. إني لا أظن أنه من اللائق أن يتدخل في حياتنا الخاصة، وعلاوة على ذلك فهل سيغيِّر اكتشافه هذا شيئاً؟

.. قلت لها: إنَّ الدكتور «كينسي» يريد أن يخرج بإحصاء عن حالة المرأة الأوربية من الناحية الجنسية.. فأجابت «جينا» بعصبية: وهل يعقل أن تحدثه المرأة هنا عن أدق أسرار حياتها الخاصة بصراحة؟ لا.. إنَّ القبيحات سيبالغن في هذه الناحية، والجميلات سيحاولن الإقلال منها!.

.. والنساء عادة يكذبن على أزواجهن فلماذا لا يكذبن على الغرباء!

ولما سألتها: وهل توافقين على أن يستجوبك الدكتور كينسي؟ قالت بشدة: طبعاً لا.. إنَّ هذه الناحية سرٌّ من أسرار المرأة.. ولن أقول الحقيقة لهذا الرجل مهما فعل، والإحصاءات لا تفيد مطلقاً في هذا الميدان. إني أفهم أن يعمل الطبيب إحصاء لمرضى السرطان حتى يخرج بنتيجة، أما المسائل الجنسية وأمور الغرام فهذه في نظري لم تتغير وسائلها منذ أربعة آلاف سنة.

.. فهل ينتظر هذا الدكتور أن يغيرها في شهور بهذا الإحصاء؟

.. ثم ماذا نتج عن استجوابه للمرأة الأمريكية؟ إني واثقة أنه استخلص أنَّ المرأة في أمريكا رديئة وسيئة السيرة.. فهل يود أن يقول ذلك عن المرأة الأوربية. وإذا قال إن ٩٠٪ من النساء المتزوجات لهنَّ عشاق.. فهل سيساعد هذا الإحصاء المرأة أم الزوج أم العشيق؟!.. إنه لن يساعد أحداً بل سيعقّد الأمور!!!!».

إنَّ الممثلة الإيطالية لا تريد أن تزيح الستار عن حياة المرأة الأوروبية لأن الأمر كما قيل قديماً:

الستر دون الفاحشات وما ... يلقاك دون الخير من ستر!!

ودعك من أن هذه الحياة ترضي «عيسى» وربه، فإنَّ القوم أبعدوا الدين عن هذا الميدان، وعدوا الاتصال الجنسي ضرورة بدنية لا حكم لله فيها!

وعلى هذا الأساس وضعوا قوانينهم التي يحتكمون إليها.

ثم يجيء نقلة القانون وعُشّاق الغرب إلى هذه القوانين، فيطبقونها على بيئتنا التي لا تزال تفرِّق بين الزنا والزواج، وتعرف أنَّ لله حرمات ينبغي أن تصان!!

فإذا قيل: إنَّ البيئة الإسلامية لا تلائمها هذه القوانين، وإنَّ الله يأمر بغير هذه الجاهلية!! انطلق الصحافيون الذين يعملون لتحقيق مآرب الغرب ليصيحوا في كل مكان:

يجب أن (ترقى) بيئتنا حتى تلائمَ الحياة الحديثة والقوانين الجديدة.

أي أننا نشتري الخنزير، ولكي يحيا يجب أن نعدّ له (زريبة) مملوءةً بالأقذار! لِمَ؟ . . . لتلائمه!!

ولماذا نشتريه؟ لأنه خنزير الخواجة. .

. . الخواجة الحاكم بأمره، أو بهواه. . ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤].

* * *

إنَّ أمواج الشر تتدافع، كلما انساحت بيننا موجة هجمت بعدها أخرى. . وقد نجح الغرب في أن يجعل الحكم بغير ما أنزل الله قوانين مقررة في المجالات الجنائية والدولية.

وبقي أن يجتاح كذلك ميدان الأحوال الشخصية.

فإذا استكان له هذا الميدان الآخر فعلى الإسلام كله العفاء:

ويا موت زُرْ إلى الحياة ذميمة ويا نفس جُدِّي إن دهرك هازل

وطلائع هذا الغزو الآثم بدت فيما قرأناه هذه الأيام من لَغَط حول تسوية المرأة بالرجل في الميراث. .!!

والمصيبة المضحكة أنَّ المرأة التي كتبت هذا الكلام ترى أن الإسلام يجيز هذه التسوية بل يباركها!! لأنَّ الإسلام دين الفطرة والتطور!

وصحيح أن الإسلام دين الفطرة، ولكن هذه الفطرة تظلم أشنع الظلم حين يقال: إنها تجعل المرأة مضارعة للرجل في كل شيء.

وظيفتها في الحياة هي وظيفته، ومكانتها هي مكانته.

فإنَّ طبيعة الحياة أن يكون الرجال قوَّامين على النساء، ولا بد من الاعتراف بأنَّ للرجال فضلَ قوة مادية وأدبية يرجح كفتهم على الجنس اللطيف!!

والإسلام حين أعطىٰ البنت نصف سهم الابن في الميراث، أوجب على الرجل ـ زوجاً كان أو والداً أو أخاً ـ أن ينفق على بيته وعلى ولده وعلى رحمه.

فربما ذهب نصيبه كله في وجوه النفقة القائمة.

على حين يبقى للبنت نصيبها موفوراً، إلا أن تتطوَّع هي بما تحب من معاونة. ولا تقولن: المرأة تعمل وتكدح في الحياة، ومن تكسبها في أي حرفة شريفة تكلف هي الأخرى بالنفقة.

لأنَّا نقول: إنَّ الوظيفة العتيدة للمرأة أن تكون ربة بيت.

واحترافها في الحياة يجب أن يكون عملاً موقوتاً ما بقيت ظروفه الملجئة، ثم تنصرف بعده بأكثر وقتها وفكرها وجهدها إلى رجلها وأولادها.

إنَّ الحالة في الغرب تفرض على المرأة أن تجيء بمهرها، وأن تشرك الشبان في أعمال لا مسوِّغ لها.

وليس يمسك هذه الحال ـ وما يتخللها من اضطراب حيوانيَ ـ إلا فقدان الضمير الديني الصحيح والتواصي بإشباع الشهوات على نطاق واسع!!

والإسلامُ يوزِّع اختصاصات العمل على الأحياء فيجعل حصن المرأة بيتها، ويكلفها من العمل ما يصون شرفها، ويشرع من الآداب والقواعد ما يجعل كل

اتصال جنسي حراماً إلا عن طريق الزواج المشروع.

وفي هذا الزواج يُكلَّف الرجل لا المرأة بسَوْق المهر.

ويناط بعنقه ضمان النفقة للبيت الذي بناه.

فإنْ أعانته امرأته في عمل، فهي عونٌ مضاف مؤقَّت وليست عاملاً أساسياً في حياته.

ومن ثم جعل نصيبها من الميراث على النصف من نصيب الرجل إقامة للتوازن في الحياة العامة، وتمشياً مع العدالة في توزيع المغرم والمغنم.

* * *

أما أنَّ الإسلام دين التطور فنعم.. ولا؟!.

هو دين التطور في الوسائل التي تخدم الحق، والمظاهر التي تتضح بها دعوته وتتأدى بها رسالته.

لكن بالله، ما هو التطور الذي يتوقع في عقائده وفضائله وشعائره!

ربما احتاج تحقيق العدالة إلى إجراءات تتطور مع العصور، بَيْد أن العدالة نفسها والنصوص الحاسمة التي أقامها الله لحمايتها لا يمكن أن يلحقها تحوير أو تبديل...

وقوانين الميراث من هذا القبيل، قال الله عزَّ وجل: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ...﴾ [النساء: ١١] ثم بعد أن أعطى كل ذي حق حقه وفق ما قضت حكمته قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ - ١٤].

فهل بعد هذا الوعيد، وهذا الترغيب والترهيب تجيء امرأة مخبولة العقل أو

صحافي مدخول القصد، يتملَّق النساء لأمر في نفسه، فنسمع منهما أن تسوية المرأة والرجل في الميراث يقبله الإسلام ويتَّسق مع تعاليمه؟

شاهت الوجوه. . !!

* * *

ولنترك هذا الكلام الذي نشرته مجلة حواء إحدى مجلات دار الهلال «إميل وشكري زيدان».

وإليكِ مثلاً آخر لتزوير الفتوىٰ، والاختلاق على الإسلام.

فقد نشرت «روز اليوسف» مقالاً زعم فيه صاحبه أنَّ المسلمة يجوز لها أن تتزوج يهودياً أو نصرانياً، لأنَّ القرآن نصَّ على تحريم اقترانها بالمشرك فقط.

ثم أسفر الكاتب عن خبيئة نفسه فقال: « لا يوجد بيننا مشركون ولا كفار وإنما يوجد مسلمون ويهود ونصارى ».

والكاتب الذي أرسل هذه الفِرْية ـ وهو في مأمَنٍ منْ عواقبها ـ يعلم أنه لا يخدم حقيقة علمية، ولا يصور شريعة إسلامية.

ويوقن أنه اجترأ على فِعلةٍ لم يسبقه إليها مسلم من الخاصة أو العامة طوال أربعة عشر قرناً!

إنه يريد إيهام القرّاء أنَّ جحدَ رسالة محمد ليس بكفر!.

وبديهي أن يكون رفض القرآن كله والسنة كلها أمراً لا خطأ فيه ولا حرج منه بعد ذلك.

وصاحب هذا الرأي لا يستغرب منه أن «يتزوج» بمحارمه، بله أن «يزوِّج» أمه وأخته لمن شاء من الإنجليز والأمريكان!. .

إنَّ القرآن وَصَفَ أهل الكتاب الذين يفرِّطون في تنزيهه وينسبون إلى ذاته المقدسة ما لا يليق، ويطلقون عليه نعوتاً هي بطبيعة المخلوق ألصق وعن

حقيقة الخالق أبعد ـ وصفهم بأنهم مشركون.

فقال في اليهود: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ ﴾ [البقرة: ٩٦].

وقال في النصارى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴾ [المائدة: ٧٣].

وما معنى أن يجيء امرؤ ما ليقول بعد ذلك: إنَّ القرآن سوَّى بين المسلم واليهودي والنصراني، وأباح للمسلمة أن تختار بعلها من هؤلاء على السواء، لأنَّ اليهود والنصارى ليسوا مشركين ولا كفاراً؟

نعم، إنَّ هناك فرقاً دقيقاً بين شرك هؤلاء وشرك الوثنيين من العرب الأقدمين وأمثالهم.

فأهل الكتاب أصحاب ديانات نزلت من السماء ثم عرا أصلها الإلهي من اضطراب الفهم وغلوِّ الخَلَف ما شرَد بها عن طبيعتها الأولى.

أي أنها حق مالَ به أصحابه إلى الباطل.

أما الوثنيون عبَّاد الأصنام فهم وإن عدوا تماثيلهم وسائط إلى الخالق الأعلى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] فهم أصحاب باطل حقيقي أرادوا تسويته بإعطائه صورة الحق.

وذلك هو الفرق بين كفر وكفر، وشرك وشرك..

ورعايةً لهذا الفرق أباح الإسلام لأبنائه أن يتزوجوا من نساء أهل الكتاب على طريق الاستثناء من النصوص الأخرى.

أما النساء المسلمات فمن المقطوع به ألا يتزوجنَ كافراً أبداً مهما كانت نحلته، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقال في تحديد المباح من أطعمة الكتابيين وأنكحتهم: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٥] أي أن لكلا الفريقين أن يأكل من أطعمة الآخر. ثم قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] أي أنَّ للمسلمين فحسب التزوج بالمؤمنات والكتابيات، ولم يجعل النكاح كالطعام في تبادل الإباحة بين الطرفين.

وليست كل يهودية ونصرانية يصح البناء بها، بل العفيفات منهنَّ، اللاتي يعرفن كرامة العقد، وحرمة الزنا، فإذا تزوَّج المسلمون بهنَّ فعلى ما شرط الله عز وجل من وفاءٍ لهنَّ وبرِّهن وإعفاف ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

ذلك وللدولة حق تقييد المباح دفعاً لخطر متوقع أو متوهم.

والقانون الآن يحظر على ضباط الجيش، ورجال السلك السياسي أن يتزوجوا بهؤلاء الكتابيات، وذلك حماية للقوات المسلحة ولأسرار الدولة من أن تتعرَّض لشائبة تفريط..

ونحن لا نرى في هذا المنع خروجاً عن تعاليم الإسلام..

* * *

وظاهر أنَّ هذه الحملات على قوانين الأسرة أو ما يسمى قوانين الأحوال الشخصية، محاولة لزعزعة ما بقي سليماً من تراثنا الإسلامي في ميدان التشريع.

إنَّ الأفاكين لا يهدؤون، ولن يرضَوا حتى يروْا شرعة الهوى تصبغ كل علاقة وتفسد كل حكم.

والشبهة التي تلوكُها الأفواه لرد أحكام الله كلها، أنَّ الإسلام يقسو على المجرمين، وأنَّ صرامة حدوده وأقضيته بحاجة إلى كثير من الملطفات والمخففات في عصر ارتقتْ فيه الحضارات، وتطوَّر الإنسان إلى أعلى. . !

ونحب أن نقول على عجل: إنَّ نسبة الشرائع القائمة على القصاص، والحدود إلى الإسلام وحده، واتهامه بالوحشية والرجعية بناء على ذلك هي ضلال في ضلال!.

فإنَّ هذه القوانين الشديدة ـ كما يقولون ـ سبقت إليها التوراة والإنجيل، ثم تفلَّت البشر منها نزوعاً مع غلبة الهوى.

والسؤال الذي يوجَّه إلى الناس جميعاً، مسلمهم، ونصرانيهم، ويهوديهم هو: هل تخضع الأرض لأحكام السماء، وتستهدف مرضاة الله؟

أم تسير وفق ما يزيِّنُ الشيطان ويملي الهوى؟؟

* * *

إنَّ القِصاص في القتل وسائر الجراحات ليس حكماً مبتدعاً شَرَعه القرآن الكريم لينهج به سياسةً من القسوة في معاملة المجرمين لم تؤلف في العهود الأولى. . كلا، فالقرآن إنما أكَّد أحكاماً بدأت بها التوراة والإنجيل.

وكل ما أحدثه من تغيير أنه خَفَّفَ بعض الشدة التي اتَّسمت بها هذه القوانين، فَقَبِلَ العفو من وليِّ الدم، وأحلَّ محله الدية، وخفَّف العقوبات في جرائم الزنا والسرقة. فإنَّ التوراة تحكم برجم مقترفيها جميعاً، أما الإسلام فيكل المرابين مثلاً إلى أولياء الأمور يعالجون جريمتهم بما يرون.

ويكتفي في السرقة بالقطع ـ بعد شروط دقيقة ـ.

ويحيط جريمة الزنا بإطار خاص، ويفصل في عقاب مرتكبيها فلا يسوي بين الزوج والأعزب.

وما بقي من التوراة في أيدي أصحابها يشرح حقيقة ما ذكرناه هنا. .

وأما أسلوب الإنجيل في محاربة الجرائم فاسمع إلى هذه المقتطفات التي لا تزال بين أيدي النصارى يقرؤونها إلى يوم الناس هذا:

(١) «سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم، وأما أنا فأقول لكم: إن من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه: يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم».

(٢) «سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزنِ، أما أنا فأقول لكم: إن من ينظر إلى امرأة يشتهيها فقد زنا بها في قلبه. فإنْ كانت عينك اليسرى تعثرك فاقلعها وألقها عنك خير من أن يلقى جسدك كله في جهنم. .».

فهل هذه النصوص تهادن الإجرام، وتشيع بين الناس الفاحشة على النحو الذي تسبح فيه أوروبا الآن؟

إنَّ الله يغار، وغيرته على عباده سرُّ الحكمة في تحريم المناكر والغلظة في مؤاخذة ذويها.

لكن اليهود والنصارى لما وهىٰ إيمانهم، واستمرؤوا المعاصي في بيوتهم ومجتمعاتهم تراخوا في إنفاذ شرائع الله بينهم، ثم تدرجوا من ذلك إلى تعطيلها والإتيان بأحكام تدلل الغرائز المريضة وتهادن المسالك المعوجة، وتترفق في مواجهة الإثم، وكأنها تقول له: سر ولكن بعيداً عني وبرضىً مني. .

ولن يعجز هؤلاء المميتون لشرائع الله أن يجيئوا بألف عذر لما فعلوا.

وسيسوِّغون اختلاقهم لقوانين أخرى بأن ذلك إحسان إلى المخطىء، ورفق به، وتوفيق بين رغائب الكبراء إذا أساء منهم أحد، وضرورة المجتمع في مصادرة الجريمة بعقوبة ما.

وقد رفض الله عزَّ وجلَّ هذا الاحتجاج وعدَّ الباعثَ على تغيير شرعه هو الكفر به وبما أنزله.

وقال مخاطباً رسولَه محمداً ﷺ يكشف هذه النيات والسيئات ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠].

إلى أن قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

إنَّ الإحسانَ والتوفيقَ لا يكونان إلا في إقامة أحكام الله وتقديس أوامره كلها، فلا يجاب منها ما نرغب ويرجأ ما نرهب.

وانتظار السلامة للمجتمع من وراء التشاريع التي صنعها الناس لأنفسهم تعلّق بالمستحيل، وحريٌّ بالعقلاء ألا ينتظروا منها إلا الخلل العام والفتن العمياء..

ومرة أخرى أؤكّد أنَّ الله إذا قال: ﴿فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فمعنى ذلك أن تركه موتٌ وبلاءٌ وكروبٌ ومصيبات..

وأنَّ الله إذا وضع للبشر حدوداً، فمن الخير لهم أن يرعوها، فإنَّ من يتعدَّ حدودَ الله لا يظلم أحداً بعيداً عنه، ولكن الأمر كما قال الله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

* * *

وتوجد شبهة أخرى عند خريجي التعليم الحديث، تخيَّل إليهم أن التشريع الغربي قد وصل في تناوله لشتى الأحوال إلى مرتبة من تقعيد القواعد وتفريع الفروع لم يصل إليها التشريع الإسلامي.

وهم معذورون في هذا الوهم، لأنهم أمام تشريع يحييه التطبيق المتجدد، وتصله بواقع المجتمع أوامر شتى، أما التشريع الإسلامي فهو كنوز مدفونة في الثرى لا يدري نفاستها إلا الأقلون.

والحقيقة أنَّ الفقه الإسلامي بَلَغ في العصور الأولى درجةً من النضج والروعة تضارع ما بلغه التشريع الحديث في أزهى مواطنه اليوم، ومع فارق أنَّ هذا يعتمد على نزوات بشرية وينبثق من جذور شيطانية. أما ذاك فهو يقوم على

أصول من الوحي الأعلى، وينطلق في مجراه الممهد بين حصانات من هدي السماء.

ولا بأس أن ننقل طائفة من الشواهد التي أثبتها الأستاذ «محمد جمعة» عضو مجلس النواب السابق في مذكرة له يدافع بها عن التشريع الإسلامي ويصوِّر المدى الذي بلغه من الكمال. قال:

«عرف الإسلام القضاء الإداري على شكل محكمة عليا تفصل فيما يفصل فيه مجلس الدولة الآن. وكانت تنظر أيضاً في قضايا الاستئناف التي ترفع من أحكام أول درجة.

واختصاصات هذا النوع من القضاء فصلها أبو الحسن الماوردي وهي:

١ ـ النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة وعمال الخراج إذا اعتسفوا في جمع الضرائب وعلى كتَّاب الدواوين إذا حاولوا إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة.

٢ ـ النظر في تظلم المرتزقة (موظفي الدواوين) إذا نقصت مرتباتهم أو تأخر دفعها لهم.

٣ ـ تنفيذ ما يعجز القاضي والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

وكما عرفت الشريعة الإسلامية القضاء الإداري في قوانينها، عرفت الضمان الاجتماعي الذي لم تعرفه أعرق الدول مدنية إلا حديثاً.

كان الفقه الدستوري القديم في الغرب يقنع من العدل بصورة سلبية يُكتفى فيها بمنع الحاكم من الاعتداء على حقوق الفرد، ولكن الفقه الدستوري الآن لا يقنع بذلك، بل يفرض اتجاهاً إيجابياً يلزم الحاكم فيه أن يهيىء الظروف للفرد كي يمارس حقوقه. فنصَّت معاهدة حقوق الإنسان الأخيرة الصادرة عن «هيئة الأمم المتحدة» على حق كل فرد في أن يجد عملاً بشروط عادلة، وأجر مجزٍ، وحقه في المسكن والعلاج من المرض. . . إلخ.

هذا ما وصل إليه الغرب أخيراً بعد عدة قرون من التشريع الإسلامي.

إذ أنَّ الإسلامَ سبق الغرب في هذا الميدان بمراحل.

وليس[1] أدل على ذلك من أن أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - وقف يوماً يودع أحد ولاته قبل سفره إلى الأقليم الذي سيحكمه وألقى عليه هذا السؤال:

ماذا تفعل إذا جاءك سارق؟

فأجابه الوالي: أقطع يده..

وعقَّب «عمر» على جوابه قائلاً: «وإذن فإن جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك» واستمر قائلاً: «إنَّ الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفّر لهم حرفتهم، فإذا أعطيناهم هذه النعم تقاضيناهم شكرها، يا هذا إنَّ الله قد خلق الأيدي لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية».

لله ما أعظم هذا التشريع وأحقه بالإنفاذ.

وكتب «خالد بن الوليد» بعد فتح العراق يقول: «أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت عنه جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام».

وإليكم ما قاله الفيلسوف «نيتشه» الألماني تعليقاً على تعاليم الإسلام: «لقد حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ـ يقصد فلسفة الإغريق ـ ثم حرمتنا بعد ذلك من شريعة الإسلام.

---

(١) لا يحضرني الآن سند هذه القصة.

لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة في الأندلس! ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن غرائز شريفة، نعم من غرائز رجال الإسلام، إنَّ تلك المدنية الإسلامية لم تتنكر للحياة بل تجاوبت معها وفتحت لها صدرها، ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية بعد ذلك، وكان الأولىٰ بهم أن يسجدوا على التراب ـ شكراً لله ـ ويأخذوا بها، وما مدنيتنا في هذا القرن إلا متخلفة وآلية بجانب مدنية الإسلام في ذلك الوقت».

وفي سنة ١٩٣٨ عقد في لاهاي مؤتمر القانون المقارن وقد تقرر فيها اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً مهماً من مصادر التشريع، وذلك بعد أن أشاد الأعضاء الأجانب على اختلاف مللهم بأحكام تلك الشريعة.

وقد ذكر وقتئذ أنَّ من العقبات دون هذا الغرض الكريم عسر فهم الشريعة من مصادرها الحالية لكثرتها وتشعبها ونأيها عن الطرق المذللة التي جرت عليها دراسة القانون.

وفي عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق بالمجتمع الدولي للقانون المقارن مؤتمراً للبحث في الفقه الإسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم (أسبوع الفقه الإسلامي) ودعت إليه عدداً من المستشرقين وأساتذة القانون في الدول الغربية والعربية، وقد حاضر الأعضاء في خمسة موضوعات فقهية حددها مكتب المجتمع الدولي للقانون المقارن وهي:

(١) إثبات الملكية.

(٢) المسؤولية الجنائية.

(٣) الاستملاك للمصلحة العامة.

(٤) تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها في بعض.

(٥) نظرية الربا في الإسلام.

وكانت المحاضرات كلها باللغة الفرنسية، وخُصِّص لكل موضوع يوم،

وعَقِبَ كل محاضرة كانت تدور مناقشات طويلة بين المحاضر والمؤتمرين وتسجل خلاصتها.

وفي خلال بعض المناقشات وقف أحد الأعضاء وهو نقيب سابق للمحامين في باريس يقول:

«أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يُحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامي وعدم صلاحيته كأساس للتشريع يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور وبين ما نسمعه الآن في هذه المحاضرات وفي مناقشاتها مما يثبت خلاف ذلك تماماً ببراهين النصوص والمبادىء».

كما وقف غيره من المستشرقين ورجال القانون وأشادوا بالفقه الإسلامي وأقروا أنه صالح لجميع الأزمنة والأمكنة.

وفي ختام المؤتمر وضع المجتمعون بالإجماع القرار الآتي:

«نظراً لما ثبت للمؤتمرين من الفائدة المحققة التي أتاحتها المباحث المعروضة خلال (أسبوع الفقه الإسلامي) وما دار حول هذه المباحث من مناقشات أثبتت بجلاء أنَّ الفقه الإسلامي يقوم على مبادىء ذات فائدة أكيدة، وأنَّ اختلاف المبادىء في هذا الجهاز التشريعي الضخم ينطوي على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفنية تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة.

فإنَّ أعضاء المؤتمر يعلنون رغبتهم في أن يظل (أسبوع الفقه الإسلامي) يتابع أعماله سنة فسنة، ويكلِّفون مكتب المؤتمر بأن يضع قائمة للموضوعات التي أظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث في الدورة القادمة.

ويأمل المؤتمرون أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه فيكون موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات القانونية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة».

هـذا هـو الفقـه الإسـلامـي، وهـذه هـي آراء علمـاء القـانـون الغـربيين والمستشرقين أيها المستغربون المتعالمون، أقول:

فماذا صنعنا لخدمته؟

أو ماذا سنصنع؟؟

جَاهِلِيَّةٌ حَدِيثَةٌ

رُؤُوسٌ حَافِيَةٌ

هل عرف جمهور المسلمين عصابة الكُتَّاب الذين يريدون هدمَ دينهم، وتحقير شعائرهم، وصرفَ الأجيال الجديدةِ عن الأخذ به؟

إنَّ هؤلاء الكُتَّاب كشفوا عن أنفسهم، فاستبانَ ما في قلوبهم من ضغن هائل على الإسلام وإصرار شديد على التخلص منه، وكانت «مهزلة الشيخ بخيت» هي الحدث الأصغر الذي أسقط النقاب عن وجوه القوم، فإذا النفاق يتحوَّل إلى كفرٍ صريح، لقد ظنوا الفرصة سانحةً للطعن في عبادات الإسلام بعد ما فرغوا من الطعن في أحكامه، فروَّجوا ـ باسم حرية الرأي ـ لإهدار شريعة الصوم، وتنادوا من كل ناحية ليشدُّوا أَزْرَ الرجل الذي منحهم حق الإفطار في رمضان..

ما هذا الحماس كله؟ لقد أعلنوا أن من حق كل مخلوق أن ينقض أركان الإسلام، وأن يجادل في البديهيات، وأن يخطىء دون حرج، وألا يدع مقرراً جاء من عند الله إلا ألقى عليه ظلالاً من الريبة كيف شاء، وأن... وأن...

وذهب أحد الكُتَّاب من «دار أخبار اليوم» إلى شيخ الأزهر ليستوثق من أنَّ «مفتي الفطر» لن يصاب بأذى، ولوَّح مندوب الدار الحرة «؟» بأنَّ خرافة قرار الحرمان التي عرفتها القرون الوسطى لا ينبغي أن تحيا في هذا العصر...!!

وانطلقتْ ألسنة المحررين والمحررات تتناول الشيخ الأكبر بالتقريع والتوبيخ، بل إنَّ بعض الفتيات كتبن في تسفيهه مقالات منكرة..

وفجأة رجع الشيخ بخيت عن رأيه، واعتذر بأنَّ أخطاء وقعت في كلامه جعلته يبدو شاذاً ومخالفاً لما عرف المسلمون من أحكام الله ورسوله..

وهنا تجنُّ عصابة الكُتَّاب المدافعة عن حرية الرأي، فقد أفلتَ الصيد

الذي تريد إهانة الإسلام به، فيجب أن تستدير للشيخ بخيت كي تصفه بالجبن والمهانة وكي تؤنبه على عودته للحق وهي التي كانت تتحدث قبلاً عن حرية الخطأ!!

ويكتب السيد علي أمين: «إنَّ الشيخ بخيت وجد نفسه فجأة فوق قمة الجبل. فلما أحسَّ بالبرد خلع جميع رجال الفكر معاطفهم وأحاطوه بها. ولكن الشيخ كان عارياً من الإيمان بفكرته، فارتعش وارتعد واختلَّ توازنه وهوى إلى السفح».

ثم يقول: «لقد انتحر الشيخ بخيت ولم يقتل، ورمى نفسه في بحر النسيان بعد أن كان واقفاً على شاطىء الخلود، فرحمة الله عليه إن كان الله يرحم الجبناء والمنتحرين».

* * *

ماذا كان يصنع هذا الشيخ ليرضي هذه العصابة، عصابة حرية الرأي كما تقول؟ كان يجب أن يوغل في الخطأ وأن يزيد جراحات الإسلام عمقاً، كان يجب ليظل على القمة أن يستهينَ بمقدَّسات الإسلام، وأن يعلِّم الأمة مع غيره من المهرجين أن الانفلات من قيوده تقدم، والشغب على فرائضه تجديد!!

كان يجب أن يسبَّ علماء الإسلام قاطبة، وأن ينفُذَ على أنقاضهم إلى حقيقة الإسلام نفسه ليلوثها بالتراب «كما فعل غيره من رجال الفكر».

هكذا تكتب «الأخبار» عن الذين حرقهم خصومهم بالنار، وعلقوهم في المشانق، وبقوا إلى النفس الأخير يدافعون عن رأيهم بالحجج والبراهين.

هكذا يكون التحريض على الله ورسوله، وهكذا يكون الإغراء بالهجوم على الإسلام.

إنَّ المصيبة المضحكة في هذه الضجة أنها اتخذت عنواناً برّاقاً لتستر سوءتها، هو حرية الرأي، وحرية الرأي هذه تنكمش وتذوب عند مناقشة قضايا

جليلة لها خطرها في اليوم والغد، وتتسَّع وتتماع عندما تكون غطاء للنَّيْل من الإسلام والمسَاس بقداسته.

باسم حرية الرأي يصدر في أيامنا هذه العدد «١٤٠٩» من «روز اليوسف» طافحاً بالدعوة إلى الخلاعة، بل إلى الفسق. كأنَّ حرية الرأي مرادف جديد لحرية الزنا فينشر تحت عنوان: «إباحة العلاقات الجنسية بين تلاميذ المدارس»، «بيان من مجلس وزراء السويد يحبِّذ هذه العلاقات»:

«ماذا تصنع المدرسة إذا أنجب اثنان من تلاميذها؟

كانت السويد ـ أكثر بلاد أوروبا تحضُّراً ـ تسأل نفسها هذا الأسبوع هذا السؤال الخطير..

لقد أبلغ مدرسُ الدين في إحدى المدارس عن تلميذتين حملت كل منهما من زميل لها في المدرسة، وطالب بفصل التلميذَتَين، والتلميذَين!!

ولكن ناظر المدرسة رفض فصلهم، ومنحهم الدرجاتِ الكبرى في حسن السلوك!!

وطُرِحَ الأمر على هيئة التدريس فأيَّدت الناظر، لأنَّ المدرسة ليست لها أن تعاقب على شيء لم يعد المجتمع يعاقب عليه!!

فضلاً عن أنَّ العلاقات الجنسية تُدَرَّس الآن للتلاميذ في مدارس السويد!!

ورفع مدرس الدين الأمر إلى الحكومة واجتمع مجلس الوزراء برئاسة الأمير «بريتل» ولي العهد، وأصدر قراراً برفض شكوى مدرس الدين ورفض مطالبته بفصْل التلاميذ!!

وقال الناظر مفسِّراً ذلك: بأنَّ التلاميذ المذكورين متفوقون في الدراسة وسلوكهم العام حسن. وأنه ليس من حق أحد أن يرغمهم على الزواج ويكفي أنهم يعيشون في سعادة!».

وقالت إحدى التلميذات الأمهات ـ وسنها ١٩سنة ـ : «إنَّ الحمل والولادة

قد عطلاني أنا وزميلي «أي صديقها» عن الدراسة قليلاً فقط.

أما الدين فإننا نحترمه، ولكننا نعارض آراءه التي أصبحت عتيقة!!».

وقالت التلميذة الأم وصديقها: «إن أملهما أن يشتغلا بالتدريس!!».

ويكتب السيد إحسان عبد القدوس في هذا العدد «إنه لم يعد من حق رجل الدين أن يأمر بتحريم الرقص على المرأة.

لم يعد من حقه أن يدع الطلاق معلّقاً بإرادة الزوج.

لم يعد من حقه أن يحرم ارتداء المايوه، فالمايوه أصبح حقيقة أقوى من هيئة كبار العلماء!!»..

ثم يمضي السيد المهذَّب «!» في شرح حرية الرأي، فإذا هي حرية الفتاة في مصادقة من تشاء، أما الزواج فنظام عتيق ينبغي أن نختار صلة أفضل منه، وتحت عنوان «بيت الطاعة وأركانه المنهارة» يقول المحرر التقدمي:

«يا رجال التشريع.. إنَّ بيت الطاعة.. نظامٌ فاسد لا يتفق وملابسات حياتنا الاجتماعية الجديدة.. فلنستبدل به نظاماً آخر أكثر اتفاقاً وملاءمةً لهذه الحياة.. وإلا فلتمنح المرأة هذا الحق الذي يتمتع به الرجل وحده. وليجرب الرجال كيف يعيشون تحت سقف واحد مع امرأة لا يحبُّونها.. عندما تجبرهم الشريعة على الدخول في بيت الطاعة!!

لا.. إنه نظام عقيم.. ما أحوجنا إلى تغييره..».

ولا بأس بعد هذا كله من غمز فريضة الصلاة غمزةً تحطُّ من مكانتها، فتحت عنوان «الطعام قبل الصلاة» تقول المجلة: «إننا نريد أن نتقدم، وأن نصنع مجتمعاً صالحاً ومواطنين صالحين فماذا نفعل؟ هل نصلي مع «هكسلي» أو نأكل الزبد مع «شو»؟ ... إننا نصلي. نصلي منذ ألف عام. ونصوم أيضاً.. وفي الهند يصومون عن الماء والهواء أحياناً..

لقد صنعنا الصلاة، وصدرناها إلى «هكسلي» وأجداده، وجربناها على

المذاهب الأربعة!!

ولم يبقَ إلا أن نجرِّب الطعام الجيد!» .

أغلب مواد المجلة هزءٌ بالإسلام على هذا النحو الوضيع باسم «حرية الرأي» السلاح الذي يُشْرَع في وجه الإسلام وحده، دون غيره من الأديان والمذاهب.

نعم، فإنَّ ضراوة هؤلاء الكُتَّاب بتعاليم القرآن والسنة تتحول نعومة وزلفى عن المسَاس بغيرها من شرائع الأرض والسماء.

وإنه ليطنُّ في أذني وأنا أكتب هذا الكلام دويُّ قرار الحرمان الذي أصدره «بابا روما» ضد رئيس حكومة الأرجنتين.

إنَّ الجنرال «بايرون» فصل الكنيسة عن الدولة، وأعطى الرجال حق الطلاق ـ برغم تعاليم الكنيسة ـ وصبغ التعليم العام بالصبغة المدنية البحتة، وألغى بعض الأعياد الدينية . .

فكان جزاؤه على هذا السلوك أن يؤدَّب بقرار الحرمان!!.

إنها لأقدار غريبة أن يصدر هذا القرار في الوقت الذي يحاول فيه الأزهر إصلاح فتوى خاطئة، فتناوشه الأقلام من كل جانب. ويتحدَّث الساخرون عن سلطة كهنوتية يراها الأزهر لنفسه وقد مضى زمن الكهنوت!!

فها قد صدر بالفعل حرمان ضد حكومة كبيرة أعقبته ثورة سفكت فيها الدماء وجرّت وراءها الخراب. فماذا عرا «عصابة حرية الرأي» حتى انقطعت ثرثرتها وَخَفَقَتْ أصواتها؟ .

أهي شجاعة ضد الإسلام وحده، فإذا كان اشتباك مع غيره رفع أفراد العصابة أذرعهم . . وسيقانهم أيضاً؟ أين اختفى الصخب المفتعل باسم حرية الرأي؟

إنَّ التعليق الفذ نشرته «أخبار اليوم» هو أنها شرحت قرار الحرمان فقال

المحرر الجريء الذي طالما سمع هديره وهو يصول ويجول منِّداً بعلماء الأزهر وهم يدافعون عن الإسلام. قال تحت عنوان «عندما يصدر البابا قرار الحرمان»:

«إنَّ معنى قرار الحرمان الذي أصدره البابا ضد الجنرال «بيرون» وأنصاره هو أن يعتبروا بيرون منبوذاً بالاسم والفعل!

فلا يجوز أن يتزوَّج في كنيسة، وكل فتاة كاثوليكية تتزوجه تعتبر أمام الكنيسة كأنها ترتكب جريمة الزنا، وكل ابن يرزق به يعتبر غير شرعي وإذا مات لا تصلي عليه الكنيسة.

وهذا القرار يمنع أي كاثوليكي من التعامل مع المحروم، فلا يطيعه إذا كان حاكماً، ولا يتعامل معه إذا كان تاجراً، ولا يشترك معه في أي عمل.

والحرمان من التقاليد القديمة في الديانة اليهودية، وقد انتقل منها إلى الديانة المسيحية.

وحرمت الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا القيصرية، الأديب الكبير «تولستوي» لأنه لم يؤمن بألوهية المسيح.

وحرمت الكنيسة الكاثوليكية الأديب الفرنسي «أرنست رينان» لأنه أخرج كتاباً عن المسيح باعتباره إنساناً عظيماً».

هذا الشرح هو التعليق الشجاع على قرار الحرمان.

أرأيت؟ إنَّ عصابة الكُتَّاب التي تحترف الحرية في بلادنا تعرف الحرية في إطار معَيَّن، إنهم يعملون لحساب جهات يهمها أولاً وآخراً أن تمزق الإسلام وأن تأتيَ على معالمه. الإسلام وحده..!!

وواضحٌ أنَّ تحقيرَ الإسلام وخذلان أهله، وتقديسَ الديانات الأخرى وإكبار سدنتها خطة تعمل لها أقلام معينة وتساندها الدول التي تقيم المؤسسات التبشيرية وتعين موظفيها.

وذلك كلام لا نلقيه على عواهنه، فَلِحساب مَنْ تتحدَّث صحف معروفة عن «بابا روما» وكيف جاءه المسيح وهو نائم مريض، وكيف صافحه وشفاه!!؟.

ثم لا تمضي أيام حتى تنقل أسلاك البرق أنباء معجزة أُخرى (!) أن «البابا المذكور» عانق طفلة عمياء فردَّ إليها بصرها، وأنَّ الإجراءات لرسم نيافته قديساً تتخذ الآن..!!

إنَّ دار أخبار اليوم تنشر هذا اللغو في الصفحة الأولى! إن لم يكن بدون تعليق فهو بكل تأدب وتوقير. على حين تتبارى هذه الدار مع مجلة «روز اليوسف» في نشر صور تهزيء مستمر «للشيخ متلوف» رمز «العالم المسلم» في نظر هذه الدور النزيهة المصونة..

أتراها تجرَّأت يوماً فنالت من مكانة واحد من رجال الكهنوت برغم ما نُسبَ إلى بعضهم من شذوذ جنسي وانحراف خلقي؟؟

إنَّ علماء الإسلام وحدهم هم الذين تُتَلمَّس لهم العيوب أما غيرهم فموكول أمره ـ بكل إجلال ـ إلى علاَّم الغيوب..

ولو أنَّ أحد شيوخ الأزهر زعَمَ لنفسه بعض ما زعمه البابا الأقدس لكانت هذه الصحف أول ما يطالب بنقله إلى مستشفى العباسية.

ومنذ أيام زعموا أنَّ الأستاذ «خالد محمد خالد» رأى السيدة زينب في منامه فهدته إلى الله.

فلما سارع خالد إلى نفي النبأ نَشَرت الجمهورية تطميناً للقراء: أنَّ خالداً بخير..

وجنون الإعجاب بالأقوياء فنون.

ولله في المائعين المستضعفين من خلقه شؤون.!!

تطوُّرٌ إلى الوراء

لقد اشتدت وطأة الغزو الثقافي، وأخذت آثاره المرة تبدو في الأجيال الجديدة ورأينا الألوف يشبون وهم غرباء على البيئة التي نبتوا فيها.

إنَّ هذه الناشئة تنكر دينها وتاريخها وتقاليدها الفاضلة وتتجهَّم إذا قيل أنَّ الإسلام أوصى بكذا وصدَّ عن كذا.

مضى عهد إذا ذكر الناس فيه بقول الله خشعوا، وإذا لفتوا إلى سنة نبيِّه انتبهوا.

كانت للنصوص قداسة لا تحتاج معها إلى مقدِّمات وشروح مسهبة.

وأقبلت أيام كالحة تساق فيها الآية إلى المجتمع وكأنها متهم يدفع به إلى التجبيه والاستهزاء، فإذا هذا يرد، وإذا هذا يدير ظهره..

أيُّ نجاح يبغيه الاستعمار أكثر من هذا؟

أقصى أمانيه أن يكسر شوكةَ البلاد بانكسار شوكة الإسلام، وها هو ذا قد نال ما يشتهي.

فجماهير المتعلمين الجدد تنتشر في كل مكان، حاملة معها جراثيم التحلل والشك.

وحملة الأقلام الملوثة يحدون الركبَ ليذهبوا به بعيداً.. بعيداً عن الله.

إنَّ الإلحاد لا يجيء إلى هدفه قصداً فيقول لك: اكفر بالله، واعكف على ما سواه.

بل يجيء إلى ما أوجب الله على العباد فيميته، وإلى ما حرَّم عليهم فيحييه.

ومن ثم تمدُّ بصرَك فتجد أقواماً خرست بينهم أحاديث الفرائض، فهم لا يحترمون فريضة ولا يقيمون عبادة، وعلت عندهم أصوات المنكر فهم طلاب لهو وأحلاس فسق.

ومثل هذه النابتة الملعونة هي أمل الشيطان. وهي ثمرة ما صنع الاحتلال الأجنبي، وهي مثار الفزع الذي نخشاه على مستقبلنا مصداق قول الله: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

في يوم واحد، وفي صحيفة واحدة قرأت للدكتور «طه حسين» مقالاً يندِّد فيه بمشروع إنشاء جامعات للفتيات.

«إنَّ هذا رجعية ومسخرة لأنَّ التقدُّم والحرية يوجبان ـ في رأي الدكتور ـ خلط البنين بالبنات في طور الشباب.

إنَّ هذا الاختلاط الحر ليس مباحاً فقط، بل هو واجب!».

ونضيف ـ نحن ـ إلى رأي الدكتور أنه أوجب ما يكون في بيئة لا صلاة فيها ولا صيام، ولا احتشام فيها ولا تصوّن، لأنَّ عزل الطالبات عن الطلاب في دور التعليم مغاضبة لله وإحراج للفضيلة وابتعاد عن العفاف. !

* * *

مم يغتاظ الدكتور «طه حسين» وأضرابه من محترفي الكتابة في الصحف إذا احترمنا رغبات الطالبات المحتشمات والآباء الغُيَّر على أعراضهم وأولادهم فخصصنا فصولاً أو مدارس، أو جامعات للبنات وحدهن؟.

هل أمست الدعوة إلى الفضيلة معرَّة يهاجمها المفتونون من غير وجل ولا خجل؟

هل يباح للبعض أن يحبِّذ خلط الذكور بالإناث في حمامات السباحة، ويعده مرحلةً في طريق الرقي، ويعبِّر عن أمله في انتشار الميوعة والخلاعة

واندحار الإيمان والعفة، فإذا تحدَّث مسلم عن استنقاذ بناته من هذا المصير هاج الدكتور طه وحزبه هياج الزنابير المحنقة، وانطلقوا يطنون ويلسعون!!؟

ماذا يحرسه أولئك النفر من عبيد الغرب وغرقى شهواته؟

أيحرسون أماني الشيطان في أن يعُمَّ العالمين الإثم والفسوق والعصيان؟.

أيحرسون أماني الشيطان في أن يحتضر الإسلام، فلا تبقى لفضائله شارة ولا يقوم لتعاليمه بناء؟

أمامي الآن الرسائل التي بعثتْ بها إلى «الأخبار» طالبة من كلية الحقوق في جامعة عين شمس وقالت فيها: «قسمتنا الكلية في الدراسة إلى قسمين، الأول للمستجدين، والآخر للمعيدين والطالبات، غير أن الطلاب الجدد لم تعجبهم هذه القسمة.

فحشروا أنفسهم في مدرج الطالبات..

والدكتور طه وحزبه يعلمون الغرض السافل من وراء هذا المسلك.

لماذا يترك الذكور أماكنهم المعدَّة لهم إلى الأماكن التي يوجد فيها البنات؟

قالت الطالبة: «أقسم بالله أني لا أفهم أية محاضرة إلا محاضرة العميد لأنَّ الطلبة مكرهون فيها على التزام الهدوء.

أما بقية المحاضرات فلا نسمع فيها أية كلمة من أستاذ.

بل نسمع كلام الغزل والعشق والغرام!.

وأصبحنا لا نتعلم القانون، بل نتعلم دروس الحب!.

وتصوَّر أن زميلاً لنا يدعي أنه رسام عالمي، لا عمل له إلا رسم زميلة جميلة، يطلقون عليها اسم «ناريمان» ليظهرها في أوضاع منافية للأدب.

وهي تقبِّل شاباً..

بالله عليك هل هذا خلق؟.

زد على ذلك هذه الضحكات العالية المائعة التي يطلقها الزملاء في أثناء المحاضرات . . .

فهل لهذا حضرتُ من الريف طالبة مثلي تريد أن تتعلم لتتسلح ضد أخطار المجتمع؟

أرجو أن يتدخل العميد ليضع حداً للمهازل . . » .

وقد علقت صحيفة «الأخبار» على رسالة الطالبة المحرجة، بأنها لو صحتّ لوجب على مكتب الآداب أن يوجه نشاطه إلى داخل الجامعات لا إلى شوارع العاصمة . .

وهل ينتظر من دار أخبار اليوم أفضل من هذا التعليق؟

وهو على كل حال أشرف من تعليق صحيفة أخرى هاجمت عميدالحقوق لأنه اكترث بفصل الطالبات عن الطلاب في مدرجات الجامعة! !

ياغوثاه، أكذلك تحاك المؤامرات ضد الشرف والحياء والحشمة والعصمة؟

إنَّ باطن الحياة الناشئة عن الاختلاط المطلق ظافح بالمآسي والمناكر . .

وما يظهر أقل مما يخفى .

ولو تكشَّفت الأستار لتلطخت آلاف الوجوه بالعار .

ومع ذلك ، فإن طائفةً من الدُّعَّارالمولعين بالإثم لا يعنيهم إلا أن يقدموا مزيداً من الوقود للغرائز الملتهبة . .

إن الدين لديهم تقاليد بادت .

فلا تستغربن إذا سمعت الدكتور طه يقول كلاماً لا يفرح به إلا الزناة والعراة والقوَّادون والأفاكون .

وفي الصحيفة نفسها وفي اليوم نفسه، تساءل كاتب ماجن :

«لماذا لاتتزوج المرأة أكثر من رجل؟

وتحت هذا الاستفهام الرقيع يقول: «. . . إنني لا أؤيد تعدد الزوجات، بل احتقره لأنه ـ ولا مؤاخذة ـ بقية من حيوانية الغابة، وسيطرة الجنس القوي ذي العضلات الفتية».

وكلمات هذا الصحفي المخنَّث هي التعليق المتداول في طبقته على قول الله سبحانه: ﴿ . . . فَانكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾[النساء: ٣] . مع أنَّ كتَّاب الغرب بدؤوا يتحدثون عن ضرورة التعدد ـ الذي يحتقره هذا الوغد ـ .

ولننشر هنا ما نقلته الأخبار في هذا الشأن، تعدد الزوجات:

«هل تكفي الرجل زوجة واحدة؟ هل تستطيع امرأة واحدة أن تسعد الرجل طوال العمر؟!

هل تستطيع امرأة واحدة أن تكون ملهمة وطاهية، وأن تكون صديقة ومربية أطفال؟؟

وهل تستطيع المرأة أن تحتفظ بزوجها طول الحياة الزوجية من غير أن تتطور؟.

فتكون يوماً سكرتيرته، ويوماً أمه! وتكون ساعة صديقته وساعة خادمته؟

هل تستطيع المرأة أن تلعب هذه الأدوار كلها في حياة الزوج؟

. . إنَّ القاضي الإنكليزي، مستر(جيرالدسبارو) يجيب عن هذا بقوله: لا!

إن هذا الرجل مكث قاضياً ٢٣ عاماً في «انكلترا»، وفي «سيام».

وكان قاضياً في المحكمة الدولية في «بانكوك» وألَّف كتاباً باسم «أرض القمر والورد».

وفي هذا الكتاب يطالب القاضي المرأة الإنكليزية بأن تقبل«ضرة» معها!.

إنه يقول: إننا في عصر لا يمكن أن يكتفي فيه الرجل بزوجة واحدة.

إنه في حاجة إلى نوعين من الزوجات على الأقل!

إنه في حاجة إلى الزوجة التي تصبح رفيقته دائماً، وأم أولاده.

ولا يمكن لرجل أن يستغني عن هذا النوع من الزوجات.

ولكنه في الوقت نفسه في حاجة إلى امرأة تجعل خياله يتجدد، وروحه تضيء، وتمنعه من أن يتحوَّل إلى حيوان أليف!

إنَّ جميع الرجال يؤمنون بهذه الحقيقة، ولكن ليس لديهم الشجاعة في أن يواجهوا بها النساء!

ويقول المؤلف: «إن المرأة تبدأ في فقد جاذبيتها في سن الأربعين.

وإنَّ الرجل يستطيع أن يسعد امرأتين في وقت واحد بغير أن ينقص احترامه وحبه لزوجته الأولى!».

ويقول القاضي في كتابه: إن الزواج في «سيام» أسعد من الزواج في أي بلد آخر.

وفي «سيام» عندما تبلغ الزوجة الأولى سن الخامسة والثلاثين، تقرر أنَّ زوجها يستحق زوجة ثانية، وتختار بنفسها الزوجة وتقدمها إلى زوجها.

وتكون الزوجة الثانية تابعة للزوجة الأولى.

وتكون مهمة الزوجة الثانية أن تجعل الزوج سعيداً، وتمنعه من أن يجري وراء النساء خارج البيت!! قال السيد علي أمين:

«ومن الغريب أن درية شفيق تطالب بمنع تعدد الزوجات في مصر.

ويقوم قاضي إنجليزي يطالب بإباحة تعدد الزوجات في إنجلترا!

لا بدَّ أن إنجلترا بدأت تتأخر!!

«لا بد أن انجلترا بدأت تتأخر»!! ـ هكذا يقول الكاتب المتحرر!!

ماذا يريد إذن هذا الكاتب؟ هل يريد قصر الرجل على امرأة واحدة؟ ذاك هو المتبادر من حملته على التعدد!

ولكنه بعد فقرة أخرى من مقاله [١] يكتب تحت عنوان «الرقص للشباب» فيقول:

«ولا تصدقوا أنَّ الحفلات الراقصة تعطي الفرص للمؤامرات! الحفلات الراقصة للشباب الأعزب تنفِّس عن الكبت، وتهبط بحرارة الجنس. وتعطي الفرصة للاختلاط على أسس رياضية روحية (!)

أما رقص الزوجات مع غير أزواجهن فهو يعطي فرصة الخيانة في بعض الأحيان».

هكذا يتناول الوغد رذائل التسوّل الجنسي وسرقة الأعراض!

أما التعدُّد الذي شرعه [٢] الإسلام وأحاطه بحدود صارمة، فهو لون من همجية الغابات كما يقول..!!

إنَّ هؤلاء الأولاد صنعهم الاستعمار الغربي ليشبع بهم حقده على الإسلام.

فهم ـ لما لقنوه من دروس صليبية ـ يحاربون شريعة التعدد مراغمة للإسلام فحسب لا حرصاً على احترام المرأة.

إذ هم يجتهدون بعد، في تحويل المجتمع كله إلى طوائف من الزناة والعراة والقوَّادين والأفاكين.

و «أوروبا» لا تفرح لشيء فرحها لتفكك الإسلام وأهله في هذه الميادين.

فهذا التفكك إما عون على بقاء استعمارها المباشر، وإما ضمان لوجود شبيه بها، يوم تكرهها الظروف على الخروج من بلادنا.

---

(١) هذا التعليق عودة إلى مناقشة الصحافي الذي يحتقر التعدد والذي ذكرنا عباراته آنفاً.

(٢) ليس التعدد واجباً ولا مندوباً، إنه مباح بشروط فلم هذا السعار؟.

وفي الصحيفة نفسها، وفي اليوم نفسه، نشر الأستاذ «قاسم جودة» حديثاً آخر يريك مبلغ ما بثته الصليبية الغازية في أفكار الشعوب الإسلامية المحتلة.

فالمعروف أنَّ الكنيسة في الغرب تحرِّم الطلاق وتؤيد الزواج.

وهذا الحكم كان مبعث تململ ومتاعب لألوف الأسر، وقد تناوله فريق من الكتَّاب بالنقد.

بل إنَّ ضرورات المجتمع الإنساني قَسَرت القوم قسراً على أن يبيحوا الطلاق في نطاق واسع، ولأسباب بلغت من التفاهة حداً يبعث على السخرية.

وهكذا يجيء رد الفعل جامحاً إلى اليسار، لأنَّ الفعل نفسه كان جانحاً إلى اليمين..

إنَّ الطلاق جراحةٌ لا بدَّ منها إذا استفحلت العلة بالأسرة، وخشي على الزوجين من تفاقمها.

وفي الحالات المرضية المخوفة قد يحكم على الشخص ببتر جزء من جسمه.

فكيف نحكم باستحالة التفريق بينه وبين شخص آخر. إذا كان اقترانه به مصدر عذاب له.

إنَّ الإسلام قرر الحل الحاسم في هذه الأحوال، فأباح للناس التخلص من هذا الرباط.

ولكل من الزوجين بعد مندوحة عن صاحبه وسلوى.

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠].

إلا أنَّ الكنيسة لم تزل عند موقفها القديم من تحريم الطلاق تحريماً باتاً.

والفتية والنسوة من هواة الثرثرة في الشؤون الاجتماعية، لا يريدون الإقرار

بأنَّ للإسلام فصلاً في إباحة الطلاق.

فهم ـ كما صنعتهم الصليبية الغازية ـ يرون تأبيد الزواج هو الحكم الذي يذكر ولا يذكر غيره.

ومن ثم نشر الأستاذ «جودة» خطاباً حوى آراء بعض النقَّاد حول تأبيد الزواج.

«فأميل لودفيج» يرى أن القانون سوف يحرّم في المستقبل ذلك العقد الذي يستمر مدى الحياة بين شخصين لم يجرب أحدهما الآخر!

ويؤيد «لودفيج» رأي «جيته» في أن تكون مدة عقد الزواج خمسة سنين تحت التجربة.

ويتساءل كاتب الخطاب عن رأي المفكرين في زواج التجربة هذا قبل أن يكون العقد أبدياً؟

ويجيب الأستاذ «أحمد قاسم جودة» على هذا السؤال فيقول:

«لا أحسب الرأي سيختلف حول دعوة «لودفيج، وجيته» إلى تجربة الزواج فترة من الزمن قبل أن يكون عقداً دائماً، ولا بد أن تلتقي الآراء أيضاً على فكرة الكشف الطبي الإجباري على الزوجين... إلخ».

أسمعت هذا الهراء كله؟

إنه فرار من التسليم بوجهة نظر الدين الحق في إباحة الطلاق عندما لا يكون منه بد!!

ما معنى زواج التجربة؟. وما قيمة أي كشف طبي على أعضاء الرجل أو المرأة؟ أهذه ضمانات الخلود لعقد الزواج؟

لماذا لا يتعلم هؤلاء الكُتَّاب أحكام الإسلام ويتعرَّفون حكمة التشريع، بدل أن ينحصروا في نطاق المعلومات الاجتماعية العفنة التي تلقوها عن الاستعمار؟

ماذا يريد أولئك الكتاب أن يصنعوه بأمتهم وبدينها الكريم؟

إنَّ إصرارهم على حرب الإسلام وهدم قداسته، لن يَهِبَ لمصر ولا غير مصر تقدماً أو حرية أو كرامةً، ولن يمنح النصر قوماً بعد عنهم النصر لأنهم ليسوا بأهله. . !!

هل الدين إلا معقل نحتمي به ... إذا دلف العادي إلينا فأسرعا!
هو الدين، إن يذهب فلا عزَّ بعده ... وإن جدَّ ساعينا على إثر من سعى!
ولا دين حتى ينزعوا عن ضلالهم! ... ويصبح منهم موطن الغي بلقعا!!
وحتى يصونوا للكتاب زمامه ... وحتى يكونوا ساجدين وركعا!
هنالك يقوى منهم ما تضعضعا! ... ويثبت من بنيانهم ما تزعزعا!!

إنني أؤكِّد أنَّ الإسلام نفسه ـ لا تقييد التعدد والطلاق ـ هو المقصود وراء هذه المجادلات السَّمجة. .

ولو أنَّ النصرانية هي التي كانت تبيح التعدد والطلاق، وكان الإسلام على العكس هو الذي يقيِّدها لانبرى هؤلاء الكُتَّاب أنفسهم يمرغون الإسلام في الوحل، ويصفونه بالتنكر لطبيعة الحياة والتجاهل لآلام الناس، والنفاق في حنوِّه على الأسرة. . !

إن أمر التعدد لا يعني هؤلاء الكتبة لأن أغلبهم يعيش على التسول الجنسي وابتذال الأعراض دون أدنى التفات إلى حلال أو حرام.

وكذلك تقييد الطلاق.

وإنَّ الواحد من هؤلاء الكَتَبَة لينشر مقالاً في هذه الموضوعات، يهدر به كل مقدسات الإسلام ليمتلق به امرأة يريدها. .

أما خدمة الحقيقة المجرَّدة فآخر ما يخطر ببالهم. .

واللوم لا نوجهه إلى هؤلاء، وإنما نوجهه لمن مكَّن لهم واحتفى بهم، وهيَّأ الفرص أمامهم كي ينشروا في الأرض الفساد.

* * *

لقد قلت: إنَّ التعدد ـ من حيث هو مبدأ ـ مسلَّم به، وإن التطبيقات السيئة من بعض الأفراد قد تكون هي التي أساءت إليه..

وقلت: إنه لا حرج على حاكم إذا حجر ـ باسم الإسلام ـ على هذه التصرفات.

وبديهي أنه لا رعاية للإسلام ألبتة إذا حرم على رجل ما أن يتزوج امرأة ثانية وأحل له أن يزني بها، وأن يتخذها لنفسه خليلة ما شاء، فقبل أن نفكر في تقييد التعدد المباح يجب أن نفكر في منع الزنا الحرام، أما اللغط حول التعدد مع تيسير المنكر فهو عمل يتقنه أهل الدياثة والفحش، لا أهل الإيمان الفكر..!!

وقلت: إنَّ الطلاق جائز، وإنَّ هذا الجواز حقٌّ لربِّ الأسرة لا يسوغ أن يكون موضعَ قيل وقال، وإنَّ الإسلام إذهاباً لبعض الأسى عن المطلَّقة ـ سنَّ سَوْق المتعة إليها، وقد تكون بعض المطلقات فرحات بانتهاء عقد لم يثمر الخير المتوقع لطرفيه جميعاً ـ ومع ذلك فإنَّ الإسلام وضع مبدأ تمتيع المطلقة جبراً لخاطر الكسيرات منهن، وهو مبدأ يستطيع القضاء الواعي لحكم الشريعة أن يعتمد عليه في تخفيف الضرر عن المرأة أو منعه إذا كان هناك ضرر ثابت من التطليق. ﴿... وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٣٦]، ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

أما إبقاء عقد الزوجية، وإعطاء حرية التصرف للزوجين المنفصلين فهذه شناعة لا نقبلها، وقد كرهها النصارى على أنفسهم، فكيف يكلف أتباعُ محمدٍ بقَبولها، لأنَّ بعض الكتَّاب المشتغلين بخدمة الاستعمار الغربي يروِّجون لها؟

إنَّ تقييد الطلاق، أو ما يسمى تعويض المطلقة مسلك ـ كما قلت ـ لا يراد به حماية الأسرة ولا إنصاف الحقيقة، وإنما المراد به الشغب على تعاليم الإسلام لحساب جهات لا تخفى أحقادها على دين الله.

* * *

ولننظر: هل الذين يحاولون تحرير الشرق ـ ولو على أنقاض الإسلام ـ كسبوا شيئاً من وراء هذه المحاولات؟ كلا.

فعناصر الكفاح كلها تستمد حرارتها وتألقها من الإيمان المتجرِّد النظيف.

وما من معركة أحرزنا فيها كسباً جليلاً أو قليلاً، إلا كان الإسلام موقد جذوتها ونافخ ثورتها.. أو كان عزاء ما انتهت به خسائر في الأموال والأرواح.

أما عبيد الغرب، وأذناب التوجيه الأوربي فما تراهم إلا في زحام المنافع ومضلات الهوى.

إننا نخط هذه السطور، والدم الإسلامي يسفك بغزارة في أرجاء المغرب[1].

مَنْ الذي يحمل أثقال هذا الكفاح المعنت الرهيب؟ من الذي يصارع الدبابات والطيارات وهو شبه أعزل، هائماً على وجهه في الجبال، والفرنسيون من فوقه ومن تحته يتبعونه بالموت؟ من؟

إنهم الرجال الذين غُذّوا بلبان الإسلام وتطلعوا إلى ما عند الله!

أما الأجيال التي تربَّت في حجر الاستعمار وتعلَّمت الجرأة على الله ورسوله فهي في وادٍ آخر، يُنادَون من مكان بعيد، ولا يسمعون!!

الأحرار يستبسلون في تطهير البلاد من أوساخ الاحتلال، وهؤلاء ـ بقلوبهم أو بجسومهم ـ مع الدخلاء الظالمين.

وأعرق خلق الله في الذل أمة ... تضام ومنها للذي ضامها جُندُ

قرأت لكاتب معروف كلمة التنديد بمسلك هؤلاء الأقوام في هذه الأيام:

---

(1) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥ وفرنسا تحتل المغرب.

إنَّ فرنسا تبطش بطش الجبابرة بالثائرين على غشمها، وهؤلاء العرب المسلمون (!) ـ كما يوصفون ـ في أرض فرنسا يصطادون المتع!! أما غضبهم المفروض أن يتظاهروا به تضامناً مع بني جلدتهم فهو تمثيل منكور.

قال هذا الكاتب تحت عنوان «العرب غاضبون»:

«يقال اليوم: إنَّ العرب ـ حكومات وشعوباً ـ غاضبون من فرنسا حانقون عليها..

ومن مظاهر هذا الغضب أنَّ عربياً كبيراً يوجد الآن في فرنسا ـ وعلى وجه التحديد ـ على ساحل «الريفييرا» عند مدينة «كان» في يخت خاص، يتنزَّه ويستريح ويستجم.. ويستنشق نسيم عدونا فرنسا.. ولعل شيئاً مما ينفقه يذهب في شراء الأسلحة التي تذبح بها فرنسا إخوانه المجاهدين في مراكش والجزائر.

ولم أسمع حتى اليوم أنَّ أحداً من رجالات بلدة العربي الواعي أو أحداً من مستشاريه أرسل إليه يقول: إنَّ الظرف غير مناسب لإطالة الإقامة في «الريفييرا» الفرنسية.. بينما طائرات ودبابات فرنسا تدك قرى الجزائر ومراكش وتحصد أرواح إخواننا المجاهدين!

ومن آيات هذا الغضب ـ غضب العرب أقصد ـ أنَّ عربياً كبيراً عاد أخيراً على ظهر سفينة فرنسية وأهدى قبطان السفينة سيارة «كاديلاك» إظهاراً لامتنانه وسروره.. مِنَ القبطان الفرنسي، والسفينة الفرنسية، وكل ما هو فرنسي.

ومن مظاهر هذا الغضب كذلك، أنَّ فنادق باريس الكبرى لا تزال مملوءة بعدد كبير من أصحاب الملايين العرب الذين قصدوا باريس للراحة والاستجمام في الكباريهات والحانات و «صناديق الليل».

وثم يسمعون هناك، ولا شك، ويقرؤون كل يوم عن حرب الإبادة التي تشنُّها فرنسا إلى إخوان لهم في الجزائر ومراكش.. وعدد القتلى في الجزائر

وعدد القتلى في مراكش وعدد القرى التي أبيدت. . .

وقد يسمع الواحد منهم ـ وهو جالس في الكباريه وإلى جواره غانية فرنسية ـ قد يسمع حديثاً بين الفرنسيين الجالسين ـ كيف أن العرب (الكلاب) قد قتلوا اليوم اثني عشر فرنسياً في الدار البيضاء، وأن القوات الفرنسية قد أخذت لهم بالثأر فقتلت ثلاثمائة عربي قذر!!

قد يسمعون، ولكنهم يرفعون قدح «الشمبانيا» ويتظاهرون بأنهم لم يسمعوا. . حتى لا يضطروا لأن يغضبوا، وهم لا يريدون أن يغضبوا ويتركوا باريس. .

ومن مظاهر هذا الغضب كذلك أنَّ البضائع الفرنسية لا تزال تباع في أسواق القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد وعمان!.

وتوجد أسواق في تعز وصنعاء والرياض!.

والشمبانيا والنبيذ الفرنسي يُحتسى في قصور الصحراء!».

* * *

«نعم. العرب غاضبون وحانقون. . وغضبهم ـ نزولاً على حكم العادة وحكم التقاليد ـ مقصور على الورق. .

خطب وقصائد!. واستنكارات واحتجاجات؟. وشكاوى ترفع إلى مجلس الأمن وهيئة الأمم! كأنَّ مجلس الأمن وهيئة الأمم سوف ينصفان العرب ويخذلان فرنسا؟

وهما اللذان خذلا فلسطين والعرب، إكراماً لخاطر إسرائيل. .

فهل تكون فرنسا عندهما أقل قدراً ومكانة من عصابات اليهود؟!

ونحن ندرك ونعرف! ولكننا نتجاهل لأننا نخاف مواجهة الحقائق!»

* * *

ونحب أن نسجل هنا أن الدكتور « طه حسين » كتب مقالة ضد إنشاء جامعة للفتيات وهو في فرنسا مع غيره من العرب الأشاوس.

وسواء كان يستجم أو يصطاف أو يجدِّد العهود، فإنَّ آلام المغاربة ودماءهم المسفوكة لم تمنعه من أن يضحك طويلاً على أفكار الذين ينشدون فصل الذكور عن الإناث في معاهد الدراسة؟

هل عرفت ما صنع الغزو الثقافي بعقول كثير من الكتَّاب والناشئة؟

إنه مسخ صلتهم بالإسلام، وقطع علائقهم بأهله، وحصرهم في حدود منكرة من فقه الدنيا والدين.

* * *

وقد كشفت مجلة «تايم» عن ناحية جديرة بالنظر في العراك العنيف القائم اليوم بين فرنسا ومراكش.

فإنَّ ساسة فرنسا عزلوا سلطان مراكش «محمد بن يوسف»، ونفوه إلى جزيرة مدغشقر، ومزقوا شمل أسرته وبطشوا بمن يمتُّ إليه، وحصدوا برصاصهم الجماهير الهاتفة له، وفعلوا ـ وما يزالون يفعلون ـ المنكر بأنصار السلطان المنفي.

لماذا؟ وما علة هذه الضغينة؟

العلة أنَّ السلطان خطب في الشعب يوماً فدعا أهل البلاد أن يستمسكوا بالحرية، وأن يتضامنوا مع الدول الإسلامية!.

حرية وإسلام؟ كيف يجرؤ الرجل على النطق بهذا الكلام؟.

وهاجت نيران الغل والتعصب في دماء الفرنسيين، واستثارت كوامن حفيظتهم على الإسلام وأهل الإسلام.

فإذا الجمهورية الضخمة ترسل أكبر قادتها إلى المغرب ليقمع الشعب

المطالب بما ليس له.

ثم تهجم بزبانيتها وسماسرتها على قصر الحاكم المسلم لتنتزعه من وطنه وتطوح به وراء البحار..

وقال «مسيو بيدو» وزير خارجية فرنسا في تسويغ هذا العدوان:

«كان لا بد أن أختار بين الصليب أو الهلال!!!».

- هكذا روت مجلة «تايم» -.

أسمعت أيها القارىء المسلم؟

أتذكَّر كلمة تنبع من هذه العين الحمئة قالها مارشال «ألنبي» يوم فتح بيت المقدس؟.

أليست هذه السخائم المتوارثة بين قادة الغرب وساسته ضد الإسلام وأمته! ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]!!

إنَّ حمْلَة هؤلاء الناس على دين الله لا يدركها فتور، وقد تحسبها هدأت حيناً فتحسن الظن.

والحق أنها هدأت ظاهراً لتتخذ مساربَ أدق في الكيد للإسلام والنَّيل منه.

ولديها هذا الغزو الثقافي المسموم، والمبشِّرون به من حملة الأقلام الكبار والصغار الذين لا ينقطع لهم لغو في الصحف والإذاعات.

تدليس كريه

العلماء بالإسلام ـ في أيامنا هذه ـ قلة تدعو إلى الأسف والتوجس.

ولا يخدعنَّك هذا الجمُّ الغفير من حملة الشهادات الدينية العالية.

فإنَّ جمهورهم ما نال درجته العلمية إلا على محصول من المعرفة، قليل الغناء والجدوى.

وعندي أنَّ «الأزهر» بحاجة ماسة إلى مراجعة مناهجه واختباراته العامة.

فإنَّ الغرابيل التي يمتاز بها الغثُّ من السمين، قد زادت خروقها حتى أصبحت تنفذ منها الأحجار..!!

ما معنى أن يوصف امرؤ أنه «عالِم» بالإسلام، وهو لا يحفظ كتاب الله أساس الوحي ودستور الإسلام؟

ولا يدرس سنَّة رسول الله وهي معالم الهدى ومنار الطريق؟

ولا يعرف أدبَ العرب، وهو عدَّة البيان العالي والتعبير البليغ؟

ولا يشرف على المجتمع الذي يعيش فيه لأنه يلهث في مساربه وخوافيه؟.

وهبه حفظ من القرآن أجزاءً، ومن السنة نبذاً، ومن أدب اللغة فصولاً، بل هبه استوعب حقائق ذلك كله. فما انتفاعه منه إذا كان مريض القلب واللب؟

وما انتفاع الإسلام بهذا الصنف من العلماء، إذا كانت تتجارىٰ بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يدع منه عرقاً ولا مفصلاً إلا تغلغل فيه.

لئن شكونا من قلة العلماء، إننا لنشكو من طائفة أخرى، طائفة احترفت العلم.

فبدلاً من أن تتهذَّب به، وتهذب به الناس، أخذت تسخِّره في نَيْل الدنيا.

وهكذا وجدنا في هذه الأيام العجاف من ينقل الإسلام إلى أصحاب الشهوات ليزيد ضراوتهم بالحياة، وفتكهم بالدنيا، بدل أن ينقل هؤلاء المرضى إلى الإسلام، ليصحوا في جوه، ويبصروا على سناه..!!

يقول «أحمد محرم»:

أرى علماء الدين لا يحفظونه ... ولا يعرفون اليوم رتبته العليا
هم اتخذوا ما أدركوا من علومه ... سبيلاً إلى ما يشتهون من الدنيا
فضاعوا وضاع الدين ما بين أمة ... همو شرعوا فيها الضلالة والغيا
إذا المفسد استفتى يريد تمادياً ... أتوه بأعلام الهدىٰ تحمل الفتيا!
أيعجب قوماً من أولي العلم أنهم ... يسيرون بين الناس في نوره عميا؟
ألا هل أرى من جِلَّة القوم شافياً ... لشعب مريض لا يموت ولا يحيا
محته عوادي الدهر إلا بقية ... من الدين والدنيا لمن يؤثر البقيا!

وإليك هذه الأمثلة المضحكة المبكية:

يتبجمع بعض النسوة ليحاربن مبدأ تعدد الزوجات، وليثرن شغباً مفتعلاً على رئيس وزارة تزوج «سكرتيرته».

فإذا عالم قميء يخرج من شقوق الأرض ليقول:

نعم الإسلام يحارب تعدد الزوجات، ويصفق له نفر من الصحافيين، ومن أدعياء الإصلاح الاجتماعي.

وتسمع هؤلاء وأولئك يقولون: هذا هو العالم المجدِّد!!

هو عالم مجدِّد لأنه يرضى الزنا بالخليلة ويكره الزواج بالحليلة.

هو عالم لأنه ركَّب من النصوص أدلة تحظر تعدد الزواج على طريقة الشاعر الهازل:

ما قال ربك: ويل للألى سكروا ... بل قال ربك: ويلٌ للمصلينا..!

الله يقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

ويقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

من هاتين الآيتين نفهم أن التعدد حرام، كما يفهم أحد الشعراء العابثين أنَّ الخمر حلال.

لأنَّ أبا حنيفة يبيح النبيذ، ومالكاً يقول: النبيذ والخمر سواء فقال:

أبـاح العـراقـي النبيـذَ وشـربـه وقـال: حـرامـان المـدامـة والسكـر
وقـال الحجـازي: الشـرابـان واحـد فحلَّت لنا من بين قوليهما الخمر

* * *

وهذا عالم آخر يرىٰ بعض الأدباء الماجنين، وقد ضاق ذرعاً بشريعة الصيام، لأنه ضيِّق الصدر بشرائع الإسلام كلها!

فيخرج على الناس بفتوى تجعل الصيام هواية تتبع المزاج المرهف.

فمن كان شغوفاً[1] بالجوع والعطش صام، وإلا فليفطر جهاراً نهاراً ولا تحرج ولا ملام. .

وتخرج الصحف ـ التي طالما حرضت على البغاء وطالبت الحكومة برفع الحظر عنه، والتي استنكرت تحريم القمار وعدَّت الإبقاء عليه ضرورة إنسانية ـ تخرج هذه الصحف وقد طبلت للفتوى الجليلة (!) وسلكت صاحبها في عداد الأئمة الثائرين أو الخلفاء الراشدين.

فإذا رأى الأزهر تأديب غلامه الذي مرق، صاحوا به من كل جانب: يا ظالم. . اتركه يا متأخر. .

---

(١) كذلك قال الشيخ عبد الحميد بخيت المدرِّس في كلية أصول الدين.

واقتحم الدكتور طه حسين غبار المعركة بمقال عنوانه «حق الخطأ» قصد به إلى حماية التزوير على الإسلام.

وزاد في مقاله السَّمج أنَّ لهم ـ أعني لهؤلاء المفتين المزورين ـ أجر الخطأ فيما قالوا بعيداً عن الصواب. .

* * *

إنَّ هؤلاء الناس أفسدوا حياتهم بالرذيلة والتحلل.

فهل يريد هؤلاء اللاعبون بالفتاوى أن يسوِّغوا لهم محياهم، وأن يرضوهم عن مسلكهم؟

هل نفسد الدواء نفسه ليبقى العليل أسير علته إلى الأبد؟

هل نشوِّه الإسلام ونحرِّف الكلم عن مواضعه لترضى نسوة ورجال أعرف ـ ويعرف غيري ـ أنهم ما تطهَّروا لله يوماً، ولا أدَّوا له صلاةً، ولا خافوا له لقاءً، ولا أقاموا له حداً، ولا احترموا له حقاً.

إنَّ الأرض حَفَلت بكثير من العصاة الذين قضوا شطر أعمارهم أو أغلبها في ظلام الإثم.

حتى إذا انقشعت عنهم الغمَّة، وارتفعت عن أعينهم الظلمة، عادوا إلى دين الله تائبين، فعرفوا المعروف، وأنكروا المنكر، واستأنفوا مع ربهم علاقة أزكى وأنضر. .

فماذا عرا الدنيا حتى يحاول فسدتها أن يجرُّوا الدين نفسه إلى عبثهم.

وماذا عرا العلماء، حتى يسارعوا في هواهم ويرغبوا في رضاهم؟

إنها فتنة، بيْدَ أنها تثير الغثيان والمضاضة.

إننا نرمُقُ كثيراً من أصحاب الأسماء اللامعة في ميادين الصحافة والفن والتعليم يحيون كما يهوون، غير حراص ـ البته ـ على تعرُّف أحكام الله فيما يأتون ويذرون.

وقد يستحي الواحد منهم أن يجهل تقليداً غربياً في أسلوب السلوك العام، بل في أدب الطعام والشراب.

ولكنه لا يستحيي أبداً من أنه لا يعي في تعاليم الإسلام حرفاً، ولا يدرك منها إلا ما يتخيله ويرضاه.

وربما لا نتعرض لهؤلاء إذا شربوا الخمور، واتخذوا الخليلات، وضلوا الطريق ـ طول عمرهم ـ إلى بيوت الله طلباً لمغفرة، أو إقامة لصلاة.

نعم ربما لا نتعرض لهم بالتقويم، لأنَّ ذلك ليس في طاقتنا. .

بيد أننا لا نسكت إذا حاول تارك الصلاة منهم أن يطعن في وجوبها، أو مفطر رمضان منهم أن يخدش من قداسة فريضته.

لن نسكت إذا حاولوا مدَّ آثامهم إلى نطاق الإسلام نفسه، يبغون تشويه آياته، وتقويض نظامه، وتحريف الكلم عن مواضعه.

إنَّ السكوت عندئذ لا يعني إلا إماتة الإسلام ومواراته الثَّرى.

والله إنَّ الحياة بعده هي الخسران المبين. .

ونعود مرةً أخرى إلى علماء السوء الذين يزيّنون الإلحاد، ويمهِّدون بمقالاتهم طرق الفساد، نعود إليهم لنلفت الأنظار إلى خطورة تركهم. يدلسون على الإسلام ويعوجون بدعوته الكريمة.

كيف تُصانُ الأَخلاقُ

اتفق علماء الأخلاق على ما للوراثة والبيئة من آثار ضخمة في أحوال المرء وأعماله وإن اختلفوا: أيّ العنصرين أعمق غوراً وأعظم خطراً.

ونحن نعرف أن تكوين الخلق تدخل فيه عوامل شتى، من بينها الطباع التي تقذف بها الوراثة وتتميَّز بها الملامح النفسية لكل إنسان.

ومن بينها كذلك ظروف البيئة التي تجمع البيتَ والمدرسةَ والأصدقاء وشؤون الصحة والمرض، والفقر، والغنى، والأمن والقلق، والحر والبرد. وما نقرأ من صحف وما نسمع من أنباء ومعارف. . . إلخ.

والخلق ـ لا شك ـ قوام كل سلوك، وروح كل عمل.

ويجب أن نوفِّر في حياتنا الأسباب التي تعين على إنهاضه وإنضاجه.

ولكن مزالق الأخلاق كثيرة.

ومهما قوينا الخلق الشخصي فيجب أن نُقصي عن الطريق صنوف المغريات التي تناوشه وتعرِّضه بين الحين والحين للسقوط. .

هَبْكَ رجلاً عفيفاً. .

إنَّ مما يحفظ مروءتك ويصلح سريرتك أن تحيا في مجتمع تحتشم فيه النساء وتختفي منه المثيرات. فذلك أصون للعرض وأعون على الطهارة.

وظيفة الخلق النقي عندئذ أن ينأى بصاحبه عن نطاق الريبة، وأن يعلو على وساوس الغريزة.

فإذا ما تاحت فرصة شر تغلَّب عليها. وإذا غلبته ثم عرضت له مرة أخرى هزمها.

أما أن يكلف هذا الخلق بأن يقضي العمر كله في صراع مع الإثم الهاجم عليه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، وأن ينتصر عليه في الصباح، فلا يكاد الضحى يقبل حتى يدخل مع الشيطان في تجربة أشق. وهكذا دواليك.

فهذا مما تفشل فيه جماهير العامة ولا يصبر على لأوائه إلا الأقلون ممن عَصَم الله.

ومن هنا يجب صيانة الأخلاق الخاصة بصيانة الجماعة نفسها من فنون العبث والسَّفاهة التي تذر عليها كما يذر الغبار على الرؤوس في العاصفة الهوجاء.

وأظن أن أغلب ما يذيع «الراديو» وأغلب ما تكتب الصحف لا يساعد على تقويم خلق أو تهذيب سلوك.

بل لعلنا نصيب صميم الحق إذا قلنا: إنَّ الكثرة الغامرة من الإذاعات والقراءات المتاحة للناس هي بلاء تختنق الفضائل في ضجته، وتُحتضر في أزمته.

وإنَّ ضمان العافية للأخلاق لن يتم إلا إذا خرست الأصوات الخنثة. وانكسرت الأفلام التي تدغدغ الشهوات.

إنني أفتح «الراديو» حيناً فأجتهد أن أستمع إليه وهو يهمس حتى أتبيَّن ما يقول وحدي قبل أن تخترق مسامع الأطفال الأبرياء، ألحان أنثى لذعها الهجر أو صَبٍّ أضناه الهيام!!.

والغريب أنَّ البرامج الآن أخذت تعرض روايات مسلسلة تتخللها أحداث دامية وفصول مهيجة. وذلك كله إغراق في اللغو، لا بل هو إغراق في شغل الأذهان بالهراء وصرفها عن الجد والإنتاج.

أما الصحف فإنَّ حسابها عسير على ما تنشر بأحرف كبار وصغار.

ولن أعرض للصحف التي تخصصت في تصوير النساء وهنَّ مستلقيات، أو

في إبراز مفاتنهنَّ وهنَّ على أوضاع يندى لها الجبين.

لن أعرض لهذه الصحف بنقد، فإنَّ الملام يوجَّه للحرائر لا إلى البغايا!

وما نقول لأناس يهشون للمنكر، ويودون لو نبت الجيل كله في حمأته؟.

وما نقول لأناس يمقتون الإسلام، ويريدون أن يصبحوا ويمسوا، فإذا التراب مهالٌ على فطرته وشريعته؟

لا كلام لنا مع هؤلاء، إذ لا جدوىٰ للكلام معهم.

وإنما نلوم الصحف التي انساقت ـ وهي تدري أو لا تدري ـ في نشر الجرائم المختلفة وسرد تفاصيلها بدقة، وإطلاق الخيال بعد ذلك يكمل ما عجزت الوقائع عن سبكه.

ومن ثَمَّ يطالع القراء كل يوم أنباء الانحراف والعوج، وقصص الخيانة والتهريب والشذوذ، وحوادث الغصب والقتل والعدوان... إلخ.

قال الدكور «محمد مندور»[1].. معلقاً على انحدار الصحافة والإذاعة:

«وإنك لتنظر إلى الإذاعة في عهد الثورة فتحسُّ بأنَّ الدولة قد وفرت لها من الإمكانات أكثر مما كانت تملك من قبل.

ولكنك تلاحظ أنه إذا كانت الإذاعة قد زادت من قدرتها على الإرسال كما أنها نوَّعت برامجها ووسَّعت فيها حتى أصبحت إذاعة دائمة شبه مستمرة آناء الليل وأطراف النهار.

.. إلا أنك مع ذلك تلاحظ أنها قد أصبحت خليطاً عجيباً يجمع بين الجوهر والحصى...

---

(١) الكاتب صحفي يساري، وقد رأينا إثبات كلمته ليظهر أنَّ السقوط الخلقي عافه حتى الشيوعيون!.

وأنَّ معظم التوسع كان إلى جانب الهذر والإسفاف في وقت نحن في أشد الحاجة فيه إلى الجد ونشر الوعي وتعبئة الأرواح.

ونحن وإن كنا لا ننكر على الناس حقهم في التسلية والترويح، إلا أننا نؤمن بأن طرق التسلية وفنونها واسعة متنوعة.

وإذا كنا لا ندعو إلى التزمُّت الخلقي الضيق، فإننا نحرص على التزمُّت الذوقي، ولا نستطيع أن نستسيغ لأنفسنا ولأطفالنا وشبابنا كل هذا السيل المدمّر من ابتكارات «ساعة لقلبك» وسلاسل الجرائم البوليسية والحشيشية.

وما نظن أنَّ هناك أباً يحترم نفسه ويحترم أسرته ـ يقبل أن يستقبله أطفاله وهو يدخل من الباب بألفاظ وتحيات ونبرات يلتقطونها من لغة المجرمين التي تجري في الإذاعة على ألسنة «سمارة» و «المعلم سلطان» و«دنجل» و «السيد أبو شفة»..

كما أننا لا نظن أن هناك نفوساً ممن يشجيها الطرب تستسيغ سماع تلك الآهات والأنات الجنسية القذرة التي ينكبنا بها بعض حضرات المغنين والمغنيات في إذاعتنا الموقَّرة حتى ليخيَّل إلينا أنه قد حان الحين لكي تتحرك النيابة العامة فتعمل على حماية المجتمع من هذه الكوارث.

وإذا كانت الإذاعة عاجزة عن أن تساهم مساهمةً شريفة فعَّالة في التعبئة الروحية، فلا أقل من أن تكفَّ أذاها، وأن تمنع عن العمل على هدم الروح المعنوية في الأمة وتحطيم رجولتها وحاسة الحياء في نفوس أفرادها.

وأما الصحافة فإنه لما يحزن أن نشاهد في عهد الثورة تسابقها نحو الانحلال الأمريكي الذي يسمُّونه فناً صحفياً..

فتراها تتنافس في الإثارة والتسلية التافهة وأبواب الجريمة حتى بلغ الأمر بنا إلى أن رأينا صحيفة كبرى عرفت بالجد والاتزان تضعف عن المنافسة فتزلق إلى الميدان وتستبدل بصفحتها الثقافية العميقة صفحة تسلية قصصية رخيصة

وسلاسل بوليسية غثة.

وهي ـ بانحدارها المؤلم ـ قد تفقد بعضاً من قرَّائها الجادين دون أن تستطيع جذب الهازلين الذين سيجدون دائماً في الصحف الأمريكية من الهزل أكثر مما يستطيعون أن يجدوا في الصحيفة الجادة التي انساقت في تيار العبث.

.. بل لقد بلغ بنا الأمر أن رأينا حكومة الثورة ذاتها تعطي بعض الصحف الأمريكية رخصاً لكي تصدر طبعة عربية في بلادنا!..

وكأنه لم يكفنا تسرُّب الفن الأمريكي المسف إلى صحفنا المصرية فأبينا إلا أن تنشر الصحف الأجنبية ذاتها في بلادنا لكي يبلغ الإسفاف أقصاه!

وكل هذا في وقت تناصبنا فيه أمريكا أشدَّ العداء، وتبذل كل جهد في مناصرة الصهيونية والاستعمار اللذين يُعتبرانِ أخطرَ عدوٍ لنا في حاضرنا ومستقبلنا، وتستخدم صحافتها ووسائل دعايتها في تضليلنا وتمويه الحقائق أمام أبصارنا.

وكأنه لم يكفنا ذلك الاستعمار الثقافي العاتي الذي تشنُّه أمريكا ضدنا بواسطة ترجمة الكتب الأمريكية وبيعها بثمن زهيد بفضل أموال «فرانكلين» وغير «فرانكلين»، فأبينا إلا أن نمكِّن أمريكا أيضاً من الاستعمار الصحفي، وهو أخطر أنواع الاستعمار الثقافي والروحي في بلاد تقرأ فيه الصحف أكثر مما تقرأ الكتب».

ونحن إذ نؤيِّد هذه الصيحة نضيف إليها أنَّ أول أثر لهذه الكتابة المستفيضة ابتذال الجريمة وفهمها على أنها عمل يقع من هذا وذاك.

فإذا قارفها المرء فله نظائر سبقوه.

والإسلام يحب أن يشهدَ الناس العقوبة التي تقع بالمجرمين، ولا يحب أن يشهد الناس المعصية التي وقعت ليتسلوا بمرآها أو ليقرؤوا وصفها إن غابوا عنها.

أما دعوته لرؤية العقوبة فلكي يعلّق بالنفوس شؤم الجريمة فلا يقرُّ بها أحد، ولذلك يقول في عقاب الزناة ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وأما الخطيئة نفسها حين تقع فهو يضرب حولها أسواراً من الكتمان، ويعالجها في صمت فما يكشف عن أطرافها إلا إذا فاحت ريحها وعزَّ سترها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

إنَّ المجتمع البريء تشبُّ فتياته زهراتٍ ناصعة لا يعرفن الإثم إلا كما تعرف البساتين النضرة غيوم المداخن الكدرة.

ولبعد أذهانهنَّ عنه ونزاهة ساحتهن منه صحَّ أن يوصفن بالغفلة في مثل قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣].

إنها غفلة القلب الملائكي عن لوثات الطباع السافلة، فانظر أية بيئة تتعاون الأقلام الساقطة على خلقها حين تتسابق في شرح المعاصي وفضح أسرارها وفتح عيون الصغار والكبار عليها؟

في مصر وحدها تصدر عدَّة صحف يمكن أن يؤلَّف من أوراقها كتاب متوسط الحجم ينشر بين الناس مطلع كل صبح.

تصور أنك قرأت في عام واحد نيفاً وستين وثلاثمائة كتاباً! لو كانت في الدين لكنت إماماً! لو كانت في الأدب لكنت بحّاثة حجة! لو كانت في العلم لحطمت الذرة لو.. لو! لكنها في اللغو والهزل فهي شرٌّ ذو حدين: حدٌّ يقطعك عن الجدّ وعن القراءة النافعة، وآخر يشتِّت قواك في عالم اللهو والفراغ، ويفسد ذوقك وينقل إليك حركات الغرائز الدنيا ومجاري الشهوات في أعماء الظلام.

الحق أنَّ تكوين الخلق العالي وضبط السلوك العام في حدود الشرف يطلبان

منا أن نحسنَ الإشراف على أحوال المجتمع حتى لا يتحوَّل الشر إلى تيارات عنيفة تصيب النفوس المجرَّدة بأذىً كبير.

إنَّ بثَّ الإثم في المجتمع، ثم محاولة تنميته بالمقالات والروايات والإذاعات وضروب الغثاء الأخرى أمرٌ لا يبقى معه دين ولا تستقرُّ فضيلة.

وأحسب أنَّ هذا ما أشار إليه الحديث: «يوشك أن يكون خير مال المؤمن غنماً يتّبع بها شَعَفَ الجبال ومواقع القِطْر يفرُّ بدينه من الفتن».

ولست أوصي بفرار.. فإنَّ الهزيمة بالحق أمام حَفْنة من الصحافيين الماجنين عار أي عار. بل أوصي بمقاومة الفتن وبناء محاضن نقية للأجيال الجديدة، وحياطة أهل الخير بسياج يحميهم من الزيغ، وجعل المساجد مثابات يلتقي الأخيار فيها ليأنس بعضهم بالبعض ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر.

وفي هذا المجال ـ لو صدقناالله ـ نستطيع أن نقطف أشهى الثمرات.

في الحياة

سألته معترضاً: كيف ألحقت ولدك بمعهد أجنبي وليس يخفىٰ عليك ما تصنعه هذه المعاهد بأفكار الطلاب ومشاعرهم؟.

فقال: إنني سأرعى ولدي في دروس الدين واللغة، وسأدعهم فيما وراء ذلك لعناية هؤلاء المدرسين الأجانب.

إنَّ السكينة تسود فصول المدرسة، وتقاليد الأدب تحكم صلات التلامذة ومقررات العلوم تستوعب كلها شرحاً، والامتحانات تتم في حدود الدقة، والأمانة على سلوك الطالب قائمة دائمة، تبلغ ولي أمره حيناً بعد حين، والبيئة أزكى... الخ.

قلت: إنَّ مدارسنا سائرة في هذا المضمار، ويجب أن نضع فيها ثقتنا.

فهزَّ رأسه كأنَّه لا يصدّقني...

* * *

وسألت أحد أرباب الأموال في الصعيد.

كيف تأتمن على إدارة أموالك فلاناً؟ أما وجدت في أبناء ملتك من يصلح لوظيفته؟.

فأجاب: إنه أسرع إطاعةً للأمر وتحقيقاً للرغبة. وتفانيه في خدمتي، وحفظ ثروتي أظهر من أن ينكر.

ثم هو ضعيف الشهوات، نظيف العادات، لا ينفق راتبه إلا في الوجوه المشروعة.

وأخشى لو استخدمت غيره من عمالنا أن يتعبني بشراهته، وأن لا تتسع نقوده لمباذله في الدخان والمخدرات، إلى جانب الضرورات الأخرى، فيجرّه ذلك إلى غشي وكرهي!.

فقلت: إنك تسيء الظن بجمهور العمال عندنا؟.

فحرّك كتفيه مبدياً أنه لا يحفل بهم..

* * *

وسألت آخر: ما أغراك بشراء هذه السلعة من صناعة الغرب، وقد أصبحنا ننتج نظائر لها في بلادنا؟.

فقال: إنَّ الوارد من هناك أمتن وأبقى، وربما كان أغلى سعراً ـ للضرائب التي تفرض عليه قبل وقوعه بأيدينا ـ ومع ذلك فأنا أوثره.

إنَّ إنتاجنا يجب في سوق المنافسة الحرة أن يروج بجودته وخصائصه، لا بمشاعر العطف والتعصب.

وما دام نقص القادرين على التمام لازماً لنا، فإن الذين كتبوا الإحسان على كل شيء أحق بالقبول والحفاوة منا..

قلت: تريد أن تتهمنا بالتفريط؟ قال: بل بالتبلُّد!

إنّ الرجل هناك يُفْرِغ قواه ومواهبه كلها في عمله، فإذا خرج بعد ذلك وبه شائبة احمرّ وجهه استحياء.

وهو لا يرضى بكمالٍ بلغه إلا ريثما يبحث عما هو أكمل منه.

ومن ثم يطّرد سير الحياة عندهم، ويتمخّض عن الروائع في كل ميدان.

أما نحن فالعمل يخرج من أيدينا كالسَّقْط الذي لم يكتمل خلقه.

وهو إذ يخرج كذلك ـ بعد أن أمضينا فيه أكثر من أمده ـ نطلب عليه أجراً مضاعفاً!!.

قلت: لعل ما تقوله حق. . .

* * *

يظن كثيرون منا أنَّ الشرق الإسلامي أصابه في العصر الأخير ما أصابه من ضعف وتقهقر لأنه فقير إلى بأس الحديد وفيالق الجنود، ولأنَّ أعداءه أكثر مالاً وأعز نفراً. وذلك خطأ.

فإنَّ المسلمين هانوا حقاً، ولكن لأنهم فقراء إلى العقائد والأخلاق والأعمال، وأعداؤهم عزوا حقاً لأنهم ـ ولا نفثات عليهم ـ لا يقلون غنى في قواهم المعنوية عن غناهم الواسع في آفاق الحياة المادية.

إنَّ ثقة هؤلاء الناس بما عرفوا من أوهام أربىٰ من إيماننا ـ نحن ـ بما ورثنا من إسلام.

وتضحياتهم في سبيل ما اعتنقوا من مبادىء أعظم من تضحياتنا في سبيل ما عرفنا من دين.

وصحيحٌ أنَّ كتاب الله بين أيدينا، وأنَّ الحقَّ المبين مسطورٌ في صحائفنا.

لكن بالله هبْ أنَّ قوماً ينشطون ويقدمون عقب قراءة «ألف ليلة وليلة» ألا ينتصرون في الدنيا على قوم يكسلون وينكصون بعد قراءة آي الله والحكمة؟

إنَّ الإيمان الحيَّ الشجاع ـ وإن كان بباطل ـ يغلب الإيمانَ الهامد المستكين وإنْ كان بأنفس ما عرف الوجود من حق وكمال. . !!

ألا يفزعك هذا الموت الموحش في جنَبَاتِ أمتنا؟

ذبول في الآمال، وخَوَرٌ في العزائم، وتطلُّع تعوزه الجدارة، وموهبة أقنطها الجحود، وحَيْرة نسجها الجهل، وقطيع يجري تارة نحو الشرق، وتارة نحو الغرب، وهو لا يدري ما يأخذ وما يدع.

ماذا يريد المسلمون أن تصنع لهم السماء وهم لا يصنعون شيئاً يصلحون به

حياتهم، ويعزون به معاشهم، ويكرمون به معادهم؟

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣].

إنَّ التقاليد التي تحكم الصلاتِ العامةَ والخاصة بين الأجانب بلغت حداً من الصرامة يستحق النظر..

والمعروف أنَّ هذه التقاليد لم تنبجس من ينبوع التدين باليهودية أو النصرانية، كلا..

إنَّ القوم اتَّخذوا من التسامي «بالإنسانية» المجرَّدة، ومن الإخلاص للمبادىء التي اصطنعوها وقرروا العيش بها، اتخذوا من ذلك أدياناً مقدسة الحدود، يستوحونها النشاطَ والإجادة، ويوجلون من الخروج عليها.

وبذلك أصبح القيام بالواجب طبيعة فيها لا تستريح ضمائرهم إلا في ظله.

فلا غروَ إذا استقامت أحوالهم أكثر مما تستقيم في ظلال الحق أحوالنا.

لأننا لا نعرف من الحق إلا اسمه فحسب.

إنا ندرس مئات النصوص في الوضوء والنظافة لقوم تقترب من ملابسهم، فإذا الروائح الكريهة تهبُّ منها.

على حين ينظف بدنه وملبسه امرؤ لم يبلغه من أحاديث خاتم المرسلين نص واحد!

ومنذ شهر ذهبت إلى مستشفى كبير، أعود مريضاً لي، فتفرَّست في الفراش الذي ينام عليه فلم أتبيَّن لونه الأصيل من لون الوسخِ المتراكم عليه.

إنَّه منذ صُنع إلى اليوم ما أظنه غُسِلَ قط!!

أما الغرفة التي تضمُّ لفيفاً من المرضى فهي صفراء شاحبة تحتاج إلى إصلاح كثير.

وليس المؤسف وقوع هذا.

بل المؤسف أن تألف العيون هذا دون نكير أو نذير.

ولو أشرفت على إدارة هذا المستشفى هيئة من «الغرب» لاستطاعت بنصف النفقة المقدَّرة له أن تضاعف العناية المبذولة لقاصديه.

أعرف أنَّ في الغرب انحرافاتٍ جنسية شائنة.

ونحن في الشرق نضخِّم هذه الآثام ونهون في دنيا الجريمة ما يساويها أو يزيد عليها من معاصي أخرى.

ولست أغضُّ الطَّرف عن هذه الانحرافات، فطالما حذرت منها ونددت بها.

ولكني أحسبها أشبه بالفوضى التي تلابس الأعياد والمواسم عندنا.

والقوم جعلوا حياتهم أيام السلام عيداً موصول المباهج، حتى العمل المضني في المصانع والمحاقل، جعلوا الإقبال عليه متعةً وترويحاً، لا عبثاً وتكلفاً.

وربما أرخوا العنان لأبدانهم تتقلَّب في مهاد الحلال والحرام جميعاً.

غير أنَّ ارتقاءهم العقلي يلاحق هذه الرذائل بالتخفيف المستمر من سوئها وعقباها.

وهكذا يفلتون ـ إلى حين ـ من ويلات الفسوق عن تعاليم الدين.

ومع هذا النقص فإنَّ كفتهم لا تزال راجحة، لأنهم في جدهم جن، وفي دأبهم على العمل والإنتاج، وفي إفادتهم من الزمن السائر لا يبارون.

وبماذا انتهى هذا السبق؟

.إنَّ المسلمين قبعوا في ديارهم أعصراً لا يمدون الطرف إلى ما وراء حدودها القريبة، لأنهم محصورون في سجنٍ من الأوهام العتيقة، والتقاليد التي ما أنزل الله بها من سلطان.

أما غيرهم فقد وثب من أوطانه يجوب البر والبحر، ويكتشف المعلوم

والمجهول من أرض الله.

وكان أن انتقل العمران المتحرك من القارات القديمة، إلى الأمريكيتين وإلى «استراليا».

وسارعت الصليبية الغربية إلى اهتبال الفرصة، فإذا عشرات الدول تقوم في العالم الجديد لا تعرف معبداً لها إلا الكنيسة، على اختلاف مذاهبها..

أما الإسلام فهو متزوٍ في بلاده، بين أمم توشك أن تفقد قدرتها على الخطو لطول ما قعدت..

يجب أن نوقظ الرقود بقسوة، وأنْ نصنعَ في كل شبر من أرضنا ثورة، وأن نجمع الشتات الذي مزَّقه السَّفه والخَوَر.

يجب أن نستعيد خصائص الحياة، نعم، يجب أن نحيا، وإلا فلا مكان لنا بين الأحياء.

الأُمَمُ بَيْنَ النَّمَاءِ وَالفَنَاءِ

للأمم أعمارٌ تنتهي عندها، كما أنَّ للأفراد آجالاً تحسم حياتهم.

وآجالُ الأفراد تطول وتقصر، وفق أقدار نعرف بعضها، ونجهل بعضها.

قد يموت المرء بعد أن ييبس عوده ويمضي حصاده، وقد يعجل به وهو خامةٌ رقيقة، وقد يُتوفى وهو باسق ريَّان..

وربما مات الرجل حتف أنفه، أو صريع معركة، أو طريح مرض عضال.

وقد تعدو عليه علَّة، وقد يموت منتحراً!!!

والأمم كالأفراد في هذه المصاير، قد تبقى حتى تثير الأرض وتعمرها وتترك فوقها آثار حضارات زاخرة.

وقد يعجل بها في طفولتها فما إن تظهر حتى تختفي.

وقد تواتيها قوى الشباب فتملأ الحياة عراماً واضطراماً.

وقد تعتلُّ فيضطرب مسيرها بعد استقامة.

وقد تنتحر بمسلك طائش ينكس رايتها فجأة.

وقد تحيا شيخوخة واهنة، تطبع عملها العام بالعجز والاسترخاء.

على أنه لن تهلك أمة حتى تستوفي أجلها الذي يحد محياها ـ أو بتعبير أدق ـ يختم دورة من دورات التاريخ في ثراها.

فإما تجدَّدت ـ بعد ـ على نحو من الأنحاء.

وإما دُرِسَت إلى يوم النشور.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾ [الحجر: ٤، ٥].

فما معنى أن يكون للأمم كتاب؟ وأن يسبق لها أجل؟

هل معنى ذلك أن يميت الله أمةً توفرت بين بنيها خصائص الحياة؟

أو أنَّ القدر القاهر يعترض مسير إحدى الأمم الناهضة فيوقفها، ويجيء إلى أخرى كسيح فيسعفها؟

كلا، فالأجلُ المحتوم يطَّرد مع قوانين الأسباب والمسببات، بل هو واحد منها..!!

فالأمَّةُ التي تستجمع عناصرَ الخلود، يطول في الأرض بقاؤها.

الأمة التي تستعجل دواعي الفناء، لا تلبث أن تطيح مع الأمس الذاهب.

كالرجل الذي يسيء إلى صحته، لا بد أن يقترب من منيته.

أما الذي يتحرَّى العافية في شؤونه كلها، فهو أهل لأن يسلمَ في دينه ودنياه.

* * *

في هذا العصر أممٌ ألمحُ أبناءها وبناتها، فتأخذني الدهشة.

إنهم كبواكير الرَّوْض جِدَّة وتألقاً.

تطفر الحياة مع وثباتهم، وتتجدَّد مع آمالهم، وتتقدم مع أعمالهم..!!

وهناك أمم أخرى، هي كما قال الشاعر: «تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد».

هامدة الحسّ، كأنها تستريح عقب شوط طويل.

ولو كانت راحة استجمام لظهرت فيها علائم الصحو.

لكنها راحة إعياء وخور. . ! !

وكثيراً ما أسأل النفس: أهذه أممٌ قاربت أن تفارق الحياة؟

فهي لا تعرف الصبا إلا ذكريات، ولا القوة إلا أنباء تاريخ غبر! !

أم أن هذا الوهن عَرَض ينقضي، وتعقبه عهود عمل وانتعاش؟

أجل، فربما كانت دورة التاريخ في أمة ما، كدورات الزرع في حقول الفلاحين عندنا.

يسطو الدود على أشجار القطن فيتلفها عاماً أو عامين.

ثم تزهر بعد ذلك، ويقرب جَنَاها، ويكثر خيرها.

ولكن بعد جهد عظيم من التنقية والتطهير:

كذلك الأجيال، قد يفسد المجتمع عصراً أو عصرين.

ولكن جهود المصلحين تلاحقه بالتربية والتهذيب.

ولا يزالون جادّين في علاجه حتى ينبت على أنقاض السلف خلف جديد، أبعد عن الآفات، وأرجى للدين والدنيا. .

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يحكم على أمّة بالدمار، إلا إذا قلَّ خيرها، وكثر شرها، وعزَّ صلاحها، وتحوَّل بقاؤها إلى ضرر بالحياة العامة، ومستقبل البشر جميعاً.

وجراثيم الفناء التي تنخر في هذه الأمة، هي الظلم، والبطر، والترف.

وهي جراثيم لا تزال تسري في أوصالها حتى تقرب أجلها.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [القصص].

إنَّ الأمم في شبابها تمتاز بخصال رائعة وملكات قوية.

فإذا صار أمرها إلى إدبار، ذبلت في الرجال والنساء معاً خصائص الحياة الجيَّاشة العارمة.

وتحولوا إلى صور شائهة، من حب الشهوات، ولزوم الدنايا..

وقد صوَّر النبي ﷺ أعراض الهوان في الأمم الخادمة.

الأمم التي لا تصلح للسيادة، لأنها لا تملك من أخلاق القوة نصاباً يرشحها للسيادة.

فهي جماعات من العبيد رضيت أم كرهت. قال رسول الله ﷺ:

«يكون في آخر أمتي رجال يركبون على سرج ـ كأشباه الرجال ـ ينزلون على أبواب المساجد.

نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف!!!

العنوهنَّ فإنهنَّ ملعونات، لو كان وراءكم أمة من الأمم خدمتهم نساؤكم كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم».

تأمَّل في هذه الصورة: رجال أشباه رجال.

الذكورة صفة أبدانهم، وليست صفة في أنفسهم، ومشاعرهم وأعمالهم.

ناعمون لا يألفون من الحياة إلا أُبهتها وزينتها.

فالفروسية تقتضي طاقةً على تحمُّل المكاره وامتطاءِ الخيل وهي عري.

وهؤلاء لا يحسنون إلا التبختر والاستراحة على القطيفة اللينة.

ثم هم عشَّاق مظاهر، وعُبَّاد ظهور.

لا يدخلون بيوتَ الله ليعمروها بالذكر والتسبيح بل يمرون بها، ليجعلوا منها محاط لحلهم وارتحالهم، ومنازل لمواكبهم ومساخرهم.

أما نساؤهم فلهنَّ ملابس فصِّلت لشرح العورات، وإشاعة الفتنة، واستفزاز الغرائز الساكنة، فلا هنَّ عاريات، ولا هنَّ لابسات. .

على رؤوسهن عصائب فارهة، تزيد حِدَّة التبرج، وسورة الإغراء.

ويلٌ للأمم من فتكهنَّ بالعفاف، ونشرهن للرذيلة. .

للنساء ـ في الأمم السيدة ـ أخلاقٌ فضلىٰ، تجعلهنَّ كهفاً للأمومة الواعية ومدرسة للحضانة الراشدة.

اسمع للمرأة العربية، تدلل وليدها:

أنـت ـ تكـون ـ مـاجـدٌ نبيـل   إذا تهــب شمـــأل بليـــل!!

واسمع لها تحرِّض رجلها على الموت!.

ـ قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ـ توصي ولدها عبد الله بن الزبير بالثبات في قتال الظلمة:

«يا بني، لَمَنْ قتل على باطل فلقد قتلت على حق!.

اللهم ارحم طول ذلك القيام، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة وبره بأبيه وبي.

اللهم إني قد سلَّمت لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فقابلني في «عبد الله» بثواب الشاكرين الصابرين.

ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه، واعتنقها ليودعها ـ وكانت قد عميت في آخر عمرها ـ فوجدته لابساً درعاً من حديد.

فقالت: يا بني، ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة!.

فقال: يا أماه إنما لبسته لأطيّب خاطرك وأسكن قلبك به!.

فقالت: لا يا بني انزعه. .

ثم جعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده أبي بكر، وجدته صَفيَّة بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ، وترجيه القدوم عليهم إذا قتل شهيداً. .

فخرج من عندها. وكان ذلك آخر عهدها بها».

هذه بعض أعمال المرأة في الأمم «السيدة».

أما الأمم التي لا عمل لنسوتها غير التبرج، فهي لا تصلح إلا محظيّة لفاتح أو سَرِية عند غالب، أو لعبة لواطىء عربيد. . .

إنَّ تجديد الشباب لدى الرجال الكهول، أملٌ ربما يعزُّ على الأطباء.

ولكن تجديد الشباب لدى الأمم الكبيرة عمل ميسَّر لأولي العزم من المصلحين والزعماء.

إنَّ الجنسَ الذي حطمته السنون، استطاعَ أن يتجمع على أنقاضنا ـ نحن المسلمين ـ!، فكانت إسرائيل برغم صراخ العرب!!

وإن أمتنا لا يعجزها أن تتطور مع الحياة الزاحفة.

فيكون نهوضها اليوم، امتداداً لوثبتها الكبرى منذ أربعة عشر قرناً.

متى أرى سمات الحياة الدافقة تصبغ هذه الأرض فتهتز بأجيال جديدة، وتفتح العين على أهلها، فإذا هم يركضون في سباق الحضارة والابتكار والإجادة؟؟

متى؟ فإنَّ الأمم التي تجمد تموت!!

ثَقَافَتُنَا.. أَيْنَ نَتَّجِهُ بِهَا؟

من حق العلماء والمربين أن يفكروا في توحيد المراحل الأولى من التعليم العام، إلا أن هذا التفكير يجيء في غير أوانه، أو يجيء غامضاً مهوشاً إذا لم نعرف في صراحة على أي أساس يتمُّ هذا التوحيد؟

وما هي النتائج التي ننشدها منه.

إنَّ بعض الكتَّاب ـ استجابة لعاطفة موقوتة أو تمشياً مع رأي خاص ـ يريد أن يتخلص من المعاهد الدينية. وأن يجمع أبناء الأمة كلها في فصول متجانسة. وأحب قبل أن أقضي على عمل قائم أن أعرف العوض الذي يغني عنه كما أحب أن أعرف المآخذ التي تنفر منه.

وإلا فإنَّ الهدمَ عَبَثٌ إن لم يكن بالغ الضرر.

لا تقل عن عمل: ذا ناقص! جيء بأوفى ثمَّ قل: ذا أكمل!
إن يغب عن عين سارٍ قمر فحرام أن يلام المشعل!

فلنفكر: ماذا نريد؟ قبل أن نقدم على المساس بالأزهر أو المعاهد الدينية.

وأحب أن أسائل المعنيين بشؤون الثقافة: هل نحن أمة لها ماضٍ ترتكز عليه ومستقبل تسعى إليه؟ أم نحن جماعة من البشر نريد أن نحيا كيفما اتفق؟

هل نحن أصحاب رسالة معينة نريد أن نحتفظ بخصائصها وأن نربي الأجيال الجديدة على استيعابها؟.

أم نحن أوزاع لا يضمُّنا رباط ولا تجمعنا فكرة، ننجرُّ وراء كل قوي مكنته الظروف أن يفرض وصايته علينا يوماً؟

هل نترك أولادنا يلقنهم الآخرون ما يريدون، ويغرسون في دمائهم ما يشتهون؟ أم نشرف نحن على تهيئة الزاد الأدبي الذي يقدَّم لهم. ونشترط في عناصره ما يحقق الغايات التي نقدسها!

إنني أقتطف ـ قبل أن أجيب على هذه الأسئلة ـ كلمات من رسالة «فلسفة الثورة» التي كتبها رئيس الحكومة، علَّها تلقي ضياءً كاشفاً على هذا الموضوع.

* قال: «لم يعد مفرٌّ أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله، وخارج حدوده ليعلم من أين تجيئه التيارات التي تؤثر فيه، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره؟؟».

* وقال: «أيمكن أن نتجاهل أنَّ هناك دائرة عربية تحيط بنا، وأنَّ هذه الدائرة منا ونحن منها. امتزج تاريخنا بتاريخها، وارتبطت مصالحنا بمصالحها؟».

* وقال: «أيمكن أن نتجاهل أنَّ هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب، وإنما تشدُّها حقائق التاريخ؟».

* وقال: «أليس حقاً أنَّ التراث الإسلامي الذي أغارَ عليه المغول واكتسحوا في غارتهم عواصم الإسلام القديمة ـ تراجع إلى مصر وأوى إليها فَحَمتْهُ وأنقذته كما ردّت غزوَ المغول على أعقابه في عين جالوت».

* وقال: «ما من شك في أنَّ الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا.

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانيْنا معها نفس المحن، وعشنا في نفس الأزمات، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت هذه السنابك.

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين، فنقلت مراكز الإشعاع الديني في حدود عواصمها، من مكة إلى الكوفة.. ثم إلى القاهرة. ثم جمعها الجوار في إطار رَبَطَتْه كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية».

* قال: «ثم تبقى الدائرة الثالثة.. الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات والتي قلت: إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة. وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات.

ولقد ازداد إيماني بمدى الفاعلية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامي بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء في وفاة عاهلها الراحل الكبير.

لقد وقفت أمام الكعبة وأحسَست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام».

* ثم قال: «أخيراً أعود إلى الدَّور التائه الذي يبحث عن بطل يقوم به. ذلك هو الدَّور، وتلك هي ملامحه، وهذا هو مسرحه..

ونحن وحدنا بحكم (المكان) نستطيع القيام به»[1].

هذه الفقرات من كلام رئيس الحكومة تجلو في وضوح حدود الحياة السياسية والاجتماعية التي يجب أن نحمل أعباءها، ونحفظ حقائقها وأسماءها.

وعلى هدى هذا البيان الحاسم نستطيع الإجابة على الأسئلة التي سقناها في صدر هذا الكلام.

فنحن لسنا أمة تطلب أي لون من العيش، وتلتحق بأيِّ ركب من البشر. كلا، إننا أمة تؤمن بتاريخها، وترسم مستقبلها وهي على بصيرة من ماضيها، وتعرف أنَّ الزمان والمكان جميعاً يفرضان عليها أن تكون الوصية على حضارة ضخمة، يضيء سَنَاها من أمجاد العروبة والإسلام، وتستنبت شَطْأَها من تربة

(١) كان هذا الكلام هو ما عرفه الناس عن الثورة يوم قامت.

مخصبة باليقين والفضيلة والإصلاح، أي من تربةٍ لا إلحاد فيها ولا فسوق ولا فوضى..

ومن هذا النطاق المضروب على أهدافنا السياسية والاجتماعية نعرف اتجاهات الثقافة التي نأخذ بها أنفسنا وأبناءنا.

ومنه نضع مناهجَ التربية والتعليم التي تقدِّم للمستقبل المرموق رجاله ونساءه..

أي أنَّ للإسلام وفضائله وللغة العربية وآدابها منزلةً في دراستنا يعتبر الغض منها انسلاخاً عن قوميتنا وخيانة لقضايانا، وتعويقاً لهذه الثورة وكفراً بأهدافها التي شرحناها.

إن العقولَ الدائبة على الإنتاج في هذه الأيام ينبغي أن ترعى أمانة التوجيه التي حملتها.

وإنه لمن الكنود أن تخرِّج المعاهد والجامعات فتياناً وفتيات يرتابون في ربهم ويكفرون بشرائعه، أو يجحدون عروبتهم ويمارون في حضارتها.

نعم. فمثل هؤلاء الخرّيجين لا تقوم بهم نهضة ولا ينهض على مناكبهم بناء.

إنَّ العقائد المكينة هي التي تصون الأمم وتخلق العجائب، والعقائد لا تتكون في بيئات مبتوتة الأواصر إلا بنوازع الهوىٰ ومذاهب الإباحة.

* * *

العناية بوطننا القريب في هذا الوادي، والعناية بوطننا الكبير في أرض العروبة كلها، والعناية بوطننا الأكبر في الدائرة الفسيحة التي تضم المسلمين جميعاً، تلك أصول نتقيَّد بها ونحن نفكر بعقولنا أو نحس بأفئدتنا.

وهي مصادرُ لا يمكن الغضّ من شأنها في تكوين الناشئة الحديثة.

وأي تثقيف يتجه لواحد منها فهو خليقٌ بأن يُتوجَّس منه.

أما التسامي بملكات الفرد ووصلها بأنقى المنابع الإنسانية في الشرق والغرب فأمر مفروغ منه، ولا منافاة أبداً بينه وبين ما قررنا. .

وتوكيدنا للحقيقة التي شرحها صاحب «فلسفة الثورة» آنفاً يرجع إلى أن من كُتَّابنا من يتجاهلها أو من ينكرها، وهو يحاول خدمة الثورة أو تملقها.

فالدكتور (طه حسين) في كتابه (مستقبل الثقافة) يخيّل إليك أن حضارة مصر جزء من حضارة البحر المتوسط، وأنَّ صلتها بالإغريق واللاتين أدنى من صلتها بعرب الجزيرة أو عرب السودان. ثم هو يذهب مع الخديوي (إسماعيل) إلى ضرورة جعل مصر قطعة من (أوروبا).

والجري وراءه في هذا الضرب من التفكير منتهٍ حتماً إلى سَلْخ مصر عن عروبتها وإسلامها وإلى عزلها عن تاريخها وحضارتها ورسالتها.

وهذا السَّلخُ أو العزل بعض ما يصبو إليه الغزو الثقافي الوافد مع الاستعمار. وأثره مدمِّر للقيم التي ظللنا قروناً نحيا بها.

ومضلل للسياسة التي سلكناها مع جيراننا وإخواننا فأعزت جانبنا في كل مكان.

إنَّ للدكتور (طه حسين) ولغيره من النقَّاد أن يشددوا الحملة على الأزهر؟ وأن يندِّدوا بما لحقه من عجز.

ولكننا في غمار هذا النكير نفرِّق بين صنفين من النقاد.

صنفٌ يعيب على الأزهر توانيه في خدمة الرسالة التي نيطت به، وينقم من رجاله أنهم فرَّطوا في الأمانة التي ألقتها الأقدار بين أيديهم.

وصنفٌ آخر يتوسَّل بإغلاق الأزهر إلى مأرب هائل، هو القضاء على دين ولغة. واستقبال عهد يجيد كل لغة إلا لغة العروبة، ويحتفي بكل تقليد إلا تقاليد الإسلام.

وأود أن أوصي هؤلاء بالإياس! فإنَّ ما يطلبون لن يكون!!

أما مؤاخذة الأزهريين أنفسهم على تفريطهم في جَنْب الله، ومحاسبة معهدهم العتيق على مقدار ما يؤدي في سبيل اللغة والشريعة فبابٌ مفتوح لكل غيور على مصلحة هذه الأمة، حريص على ضمانات التوفيق لشؤونها الكبرى.

ويوجد في الكبار والصغار من علماء الأزهر من يعرف مكمن الداء ويصف أنجع الدواء.

على أنَّ هناك ملاحظات يجب أن نلفت إليها حين نتحدث في التعليم الديني والثقافة الإسلامية. أولاها أنَّ المفاهيم المختلفة يدركها على مر العصور ما يرتفع بها حيناً وينخفض بها حيناً.

وكما ترى اللُّجَج في جوف البحر تعلو فتعلو معها السفن وما ضمت، وتهبط فتهبط معها حتماً. كذلك تاريخ الأمم يرتفع فيكون لكثير من الحقائق مداها الرحب. فإذا كبا ضمرت هذه الحقائق وضؤلت حتى لكان لها اسماً آخر. غير ما عرفت به أمس.

الأدب مثلاً إحدى هذه الحقائق. كان للعرب في العصور الأولى أدب نقي العبارة صادق المشاعر، تتنفس فيه العواطف البشرية من أعماقها، وتسترسل فيه كيف شاءت. حتى إنَّ أبا تمام يرد إلى الشعر ما ارتسم في الأذهان من صور المجد ونماذج الكمال، ويقول:

ولولا خلال سنَّها الشعر ما درى ... بغاة العلا، من أين تُؤتى المكارم

هذا الشعر الذي استبحرت دواوينه خلال القرون الأولى طرأ عليه من المسخ والتفاهة ما جعله كلاماً لا وزن له، وإن انتظمت عروضه وقوافيه.

إذ أصبح الشاعر يصوغ القصيدة ملغزاً في خاتم، أو مسفاً في مدح.

وتستطيع أن تقيس البون البعيد بين الشعر في العصر الأول، والشعر أيام المماليك والأتراك.

وما يقال في النظم يقال في النثر الذي تحوَّل من سلاسته وحفوله إلى أسجاع مصنوعة وأساليب مهلهلة وفراغ من المعاني الجيدة والأغراض الكريمة.

إنَّ مفهوم الأدب شعراً كان أو نثراً أدركه في عصرين متغايرين تفاوت ظاهر.

وهذا القول نفسه يساق في الدين. فإنَّ مفهومه كَبَا في عقول الأخلاف وقلوبهم حتىٰ لتكاد الصلة بينه وبين معنى الدين في عهود السلف تنحصر في العنوان وحده.

- كان الدين شارة حياة وقوة فأمسى شارة بلى ومعجزة.
- وكان مصدر طاقة على مواجهة الصعاب فأمسى مهرب المتخلفين في الدنيا ومسلاة الفاشلين في ميادينها.
- وكان جداً وحقاً فأمسى لهواً ولعباً.
- وكان فطرة جميلة فأمسى صناعة دميمة.

وخُذ كلمة فقه مثلاً على تغير المفاهيم في الأذهان. إنها الآن تعني علم تشريح الوضوء والصلاة وما إليهما. فهل ذلك ما يعنيه سياق الكلمة في الآية الكريمة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]؟

كلا. إنَّ الفقه في الدين كان يعني فهمَ العبادات والمعاملات والأخلاق والسياسات وشرائع الله في الدنيا وما بعد الدنيا.

وكان يتطلَّب حذقاً في فهم الحياة لا يتمُّ الفقه إلا به، فإنَّ الجهل بالحياة يحول يقيناً دون تطبيق أحكام الله عليها.

* * *

وملاحظة ثانية حين نتحدث عن الثقافة الإسلامية إنَّ الإسلام ينتقِ الإنسان من قوقعته التي يعيش فيها، ويخرجه منها إخراجاً، ليصل لبه وقلبه بالشمس والقمر والأرض والسماء والحياة والأحياء.

وينابيع الإيمان فيه لا تفورُ بالري ولا يتَّصل دفقها إلا إذا أمدَّها عقل جَوَّاب في الآفاق غوَّاص وراء أسرار الكائنات، واقرأ إن شئت هذه الآيات: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية].

نعم تلك آيات الله، وفيها دلائل صارخة بأنَّ الإنسان لا ينضج له يقين إذا انعزل في كهف معتم من القصور والجهالة بما حوله من مظاهر الكون.

ولو أنَّ التفكير الإسلامي أخذ مجراه العتيد في ضوء من هدايات الله التي رأينا قبساً منها لكان له شأن آخر في هذا العصر.

لكنه التوى وتراجع لظروف لا مكان لذكرها على حين واتته فرص التقدم والانطلاق في بيئات أخرى.

ومن حق الحياة علينا، ومن حقنا على أنفسنا أن نقتبسَ ونستفيدَ ممن أحسنوا حيث أسأنا، وممن تمرسوا بعلوم الطبيعة وتفقهوا في أسرار الوجود، في الوقت الذي انشغلنا فيه بعلوم الجدل وأمثالها..

ولا عيب علينا في ذلك. فنحن بهذه الاستفادة نستأنف السير وفق المنهج الذي خطَّه لنا القرآن وحضَّنا على التوغُّل فيه.

ثمَّ إنَّ هذا اللون من المعرفة تتداوله أقطار الدنيا دون تحرج، ويتعاون الأعداء والخصوم على إبلاغه تمامه.

وقد بذل آباؤنا أنصبةً ضخمة في النهضة به، وعنهم نقل الفرنجة المهاد الذي بنوا فوقه فأعلوا البناء:

قلنا إذن يد سلفت لا بأس أن نستردها.

وفي هذا يقول الدكتور «محمد البهي»:

«الغرب له حضارة صناعية تمكّن بها من الاستيلاء على منافع الطبيعة وتسخيرها في رفع مستوى معيشة الإنسان ورفاهيته، وهي حضارة مقدورة إذا قيست بنتائجها وفائدتها في الحياة العملية الإنسانية، وكذلك إلى المجهود العقلي والفني في تصميمها وتنفيذها.

.. هذه الحضارة تتمثل في صناعات كثيرة تقوم على الآلات الميكانيكية ويشرف عليها نفر قليل من العمال الفنيين والمهندسين المتخصصين، فصناعات السفن والسيارات، والطيارات، وقطارات السكك الحديدية، ومولدات الكهرباء، وأجهزة الرصد والاختبار، وآلات الطباعة، والسينما والراديو، والتلفزيون والمواصلات السلكية واللاسلكية.. وغيرها هي من الآلات التي يكثر إنتاجها، وتؤدي خدماتٍ متنوعة لا يستطيع تأديتها المجهود البشري العادي بوسائله المحدودة.

وللغرب بجانب ذلك صناعات كيماوية فائقة. كصناعة الأدوية، والمركبات العضوية وغير العضوية.

وللغرب تطور واسع في بحوث العلوم الطبيعية التجريبية والكيماوية.

ونتائج هذه البحوث تبلغ في الدقة درجة اليقين. لأنه لم يكتفِ فيها بالمراقبة والملاحظة لظواهر الطبيعة وأحداثها، وتفاعل العناصر التي يضم بعضها إلى بعض، ثم رصد التغيرات التي تصاحبها، بل استعان في ذلك بالتجربة، وبتحكيم مقاييس الاختبار الآلي والصناعي في استحداث هذه التغيرات، حتى لا يكون فهمه للطبيعة وقفاً على الصدفة، وحتى لا يتأخر الانتفاع بها على الوجه الصحيح إلى وقت قد يطول أجله.

وهذه البحوث الطبيعية والكيميائية هي مقدمات حضارته الصناعية في

الأرض، والماء، والهواء، وكلها تتصل اتصالاً مباشراً أو غير مباشر برفع المستوى الصحي، والاجتماعي، والاقتصادي للإنسان.

هذا التطور الحضاري في ناحيتيه: ناحية الصناعة، وناحية البحث الطبيعي والكيميائي، له أثره الإيجابي المحايد في الحياة الإنسانية. سواءٌ في جانب رفع المستوى المادي في المعيشة، أم في جانب الإنتاج العقلي والفني. إذ مما لا شك فيه أنَّ الإنتاجَ الذهني مرتبط ارتباطاً وثيقاً ـ ارتفاعاً وانخفاضاً ـ بالحالة الصحية والنفسية للإنسان.

وإذا كان أثر هذه الحضارة الصناعية ومقدماتها من البحوث الطبيعية والكيميائية إيجابياً ومحايداً، فموقف الشرق منها يجب أن يكون موقف الغرب: سعى لاقتباسها، وتفهم لأصولها وبحوثها، واستمرار في تنميتها وترقيتها، وتوسيع لدائرة تطبيقها. ويوم يقف الشرق منها موقف المتفرج فقط، أو موقف المتردد في تقويمها وتقديرها ـ يومئذ يكون أخطأ فهمها، وبالتالي تكون نتيجة تخلفه عنها على حساب نفسه وكرامته وعقيدته.

* * *

وملاحظة أخيرة..

إن المعارف الوافدة من الغرب يندسُّ فيها ما ليس منها. وقد يختلط فيها الخير بالشر اختلاطاً يحتاج إلى حسّ دقيق وبصرٍ لمّاح، والنبات المتسلق خلال جذوعها الباسقة كثير، وخاصة هذا النبات أنه لا ينمو إلا محمولاً على غيره.

وقد انتهزت بعض الجهات الحاقدة على الإسلام، الطامعة في دياره فرصة ازدهار الحضارة الحديثة، فتطفلت عليها، ومشت في موكبها وأخذت تكيد وتفسد.

ومن ثم يجب أن نميز الخبيثَ من الطيب، حتى لا ينقلب إلينا وسط منافذ المعرفة التي افتتحناها، هوى جامح، أو مبدأ هادم أو إعجاب بتافه من المذاهب والمعتقدات.

* * *

ونعود بعدئذ إلى ثقافتنا العامة لنقول: إنَّ استبانة أسسها وغاياتها على النحو الذي أوضحنا يجب أن يسبق أي تفكير آخر، وأن نصل فيه إلى قرار لا تثور حوله الأقاويل.

فإذا انتهينا إليه فليس يعنينا: من الذي يعلم؟ أو من الذي يحكم؟ وإنما يعنينا ما الذي يعلم؟ وما الذي يحكم به؟

لكن الدكتور (محمد البهي) يصارح بأنَّ الفاقهين للروح الإسلامي، الآخذين بنصيب ضخم من علومه وتوجيهاته هم أقدر الناس على المواءمة بين أصول حضارتنا والثمرات الطيبة في الحضارة الحديثة.

أما الذين انماعوا في الغرب وفقدوا تجاهه خصائص أمتهم ومشخصات تاريخهم كالدكتور طه حسين وتلاميذه ـ فلا يصلحون لهذه الوظيفة الدقيقة.

ولنسمع له يتساءل: «هل يمكن لنا في حياتنا الشرقية أن ننتفع بحضارة الغرب الصناعية، مع الاحتفاظ بتراثنا الثقافي الإسلامي والروحي على العموم؟

إننا لو استطعنا ذلك لرفعنا مستوانا الصحي والاجتماعي والاقتصادي، وسلمنا من الهزات العنيفة في التوجيه وفهم الحياة، واحتفظنا في ذلك بمقوماتنا الأصيلة كأمةٍ من مجموعة الأمم الشرقية والإسلامية!.

وإنَّ مدى استطاعتنا يتوقَّف إلى حدّ كبير على عناية الأزهر برسالته، وعلى أن يمكَّن من تأدية هذه الرسالة. إذ ليست الجامعة المصرية الحديثة هي التي تلائم بين تراثنا الثقافي الإسلامي، وبين الحضارة الغربية الحديثة في مجتمعنا الشرقي الإسلامي، بل هو الأزهر، ويكاد يكون وحده.

إن قبول البيئة الريفية في مصر لآثار الحضارة الصناعية الحديثة ومظاهرها مهمة لا يؤديها المرشد الاجتماعي، وإنما يؤديها صاحب الثقافة الأزهرية إذا فهم هذه الحضارة على وجهها الصحيح وفهم موقف الإسلام منها.

والنظام الذي يستخدم الصناعات بمصر لا يقرّبه من العقلية المصرية العامة

ـ حتى تؤمن به ونتائجه الإيجابية في الحياة المصرية ، فتساهم فيه، أو تستسيغه عن رضا واطمئنان ـ إلا العقلية النابتة في البيئة الأزهرية».

قال: «وموجز الرأي: أنَّ في حياة الغرب (حضارة) صناعية تسايرها تعاليم الإسلام.

وفيها بحوث طبيعية بحتة، وكيميائية ـ هي الأسس لتطور الحضارة الصناعية ـ لا تجافي الإسلام ولا تعادي رسالته.

وفي حياة الغرب أيضاً (ثقافة) توجيهية. هي ما تعرف بالثقافة الغربية الحديثة:

للاتجاه المادي في هذه الثقافة سيطرة وشأن، إذ هو يناوىء الإسلام تماماً.

وفي الاتجاه الروحي والمثالي هزال وضعف ولسنا في حاجة إليه، مع قوة إسلامنا وسلامة توجيهه الروحي».

وطابع الاتجاه الاستشراقي في هذه الحضارة يتسّم بالحزبية والغرض، ويقوم على فكرة صليبية أو سياسية. وهذا أيضاً لسنا في حاجة إلى استيراده، ثم الأخذ به في توجيهنا، لأنه مصدر ضعف من جانب. وحائل بيننا وبين الفهم المستقيم لتراثنا الثقافي من جانب آخر.

إنَّ كل توجيه ثقافي غربي في أية صورة من صوره إذا سرنا وراءه فقدنا شخصيتنا أولاً، ثم اضطربنا في توجيهنا ثانياً، ثم كنا أخيراً لا في عداد الغربيين، ولا في عداد الشرقيين.

ذلك أن وجودنا كجماعة أو كأمة ليس وجوداً مادياً فحسب، إنما قوامه قبل ذلك أننا شرق إسلامي له ماضٍ عريق في الثقافة والحضارة الإنسانية».

أُسُسٌ صَالِحَةٌ لِتَوحِيدِ الثَّقَافَةِ

طالعت مقال الدكتور «أحمد زكي» في هذا الموضوع.

ويمكن القول بأنه أحصىٰ جملةً من القواعد التي يتفق علماء الإسلام على أنها تصلح لإقامة وحدة فكرية واجتماعية بين أبناء الأمة الإسلامية الكبيرة.

بل إنَّ هذه القواعد ـ لو أحسنَّا فوقها البناء ـ سوف تنتهي بوحدة أشمل وأعم، أعني: «وحدة في المشاعر والغايات» لا في مناهج الحياة وخصائص الشعوب.

فإنَّ اختلاف الأجناس في هذه هو ـ كاختلاف ألسنتها وألوانها ـ من آيات الله في خلائقه المختلفة، ينظر إليه بإعجاب لا بإنكار..!

وسأتابع الدكتور فيما كتب لأشرح على ضوء الفقه القديم سير الحقيقة التي ينشدها، وموقف بعض العلماء الذين تتوقع خصومتهم لهذا الاتجاه أو لهذا التوجيه ـ وفي أطواء المقال ما يومىء إلى هذا التوجس ـ.

كما أني سأناقش الدكتور في بعض الآراء التي عرضها، وأحسب أن الصواب لم يكن حليفه فيها.

ولأنوِّه قبل كل شيء بأنَّ تعريف الثقافة في قواميسنا العتيقة قريب المشابه من التعاريف التي نقلها الدكتور عن أساطين النهضة الحديثة.

وإن كانت القواميس ـ وتلك وظيفتها ـ لا تكترث بغير ألبسة اللغة وصور الألفاظ.

أما التطورات الإصلاحية فهذه شأن آخر.

ولغة العرب تجعل الثقافة فوق المعرفة المجردة.

قد يكون الحذق والفطنة والذكاء بعض ما يدل عليه الوصف في قولنا رجل مثقف.

بَيْدَ أن هذا من الناحية النظرية.

أما من الناحية النفسية فيجب أن تتغلغل المعرفة في الإنسان تغلغلاً يسمو بطبيعته ويصلح من سريرته.

فإن كان في خلائقه عوج قوَّمه ما نال من ثقافة.

وعلى هذا لا ينبغي أن يعدّ مثقفاً من حفظ معلومات شتى، وظل مع كثرة علومه مدخول الأخلاق رديء المسالك.

ولعل هذا الملحظ هو الذي جعل العرب يصفون الرمح بأنه مثقف، إذا ذهب ميله واستقام عوجه.. !!

فلا الرمح المائل مثقفاً، ولا الرجل المائل يعتبر كذلك!

ومن ثم يتضح الوفاق بين المعاني البدائية لمدلول الكلمة عندنا وبين قول «هكسلي»: «إن الثقافة شيء فوق جميع المعارف واكتساب الحذق في صناعة ما».

وقوله أيضاً: «إن رجلاً ذا أدب ولا علم له رجل غير متوازن، يميل جنب منه عن جنب. وكذلك رجل ذو علم ولا أدب له».

ويوسّع «باكون» هذا المعنى الكامل للثقافة، حين يرى أنها تشمل ما يتصل بالحياة الروحية للإنسان، من خلقية ودينية... وعقلية.

* * *

أما مواد الثقافة التي نريد جمعَ المسلمين عليها، فيحسن أن نستعرضها، ناظرين - في حدود العدل والواقع - إلى المدى الذي يمكن أن تبلغه وسائل التثقيف المعتادة.

ولا بأس أن ننتفع بعبر التاريخ ـ وما أكثرها في ماضينا ـ انتفاعاً يغيِّر أفكاراً قد نكون ألفناها، ولا ضَيْرَ من اطراحها.

ولنبدأ باللغة. إنَّ العربية لغة القرآن. وللناس لغات شتى.

ولم يقل أحد: إنَّ من أهداف الإسلام العظمى تعريب العالم كله.

فهذا أولاً مستحيل.

وهو ـ ثانياً ـ محاولة لتعطيل آيةٍ من آيات الله في الأنفس والآفاق.

قال عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فلتبقَ لكل شعب مسلم لغته الخاصة ما شاء البقاء عليها.

وليبقَ معها هذا الرباط الذي اختاره الوحي الأعلى ترجماناً له وعنواناً، وهو لسان العرب.

وجعل العربية لغة عامة للأمة الإسلامية ضرورة حيوية.

وإني لأحسب أنَّ وحدة اللغة بين الإنكليز والأمريكان هي السبب الأول في أنَّ الشعب الأمريكي هبَّ عن بكرة أبيه ينجد حلفاءه في حربين هائلتين، كادت الهزيمة في كلتيهما تأتي عليهم.

ومنزلة اللغة الإنكليزية في الهند وباكستان وجنوب أفريقيا وسائر أجزاء الإمبراطورية المرنة لا جدال في رفعتها.

إنها لغة الألوف المؤلَّفة في هذه الأقطار الشاسعة.

وليست لغة قبيل من الناس، أو طائفة من الموظفين.

ومع سيادة اللغة الفاتحة فقد ظلت اللغات المحلية أسلوب الفهم والتفاهم بين الجماهير.

ومن حق هذه الجماهير على الإسلام وحملته، ألا تُحرم من نوره، وألا تُحجب عن هدايته، خصوصاً أن الإسلام للجميع.

وأعترف بأننا قصرنا تقصيراً شائناً في نقل معاني القرآن إلى العاجزين عن اللسان العربي، وأننا أسأنا إلى أنفسنا وإلى رسالتنا.

والعلماء مجمعون على أن نقل هذه المعاني إلى اللغات الأخرى لا جناح فيه بل هو من صميم الدعوة العامة.

إلا أنَّ هذه الترجمة ـ على ما بلغت من دقة وضبط ـ هل تسمى القرآن عينه الذي نزل على محمد؟

إننا نعلم أنَّ هناك تفاوتاً قائماً بين الأصول الأدبية في لغة ما، وبين النقول المترجمة لها في لغات أخرى.

وأن هذا التفاوت قد يكون في القيمة الفنية، وقد يكون في جملة الحقائق والأغراض.

ومن هنا يجب إذا وضعنا ترجمة للقرآن أن نلفت الأنظار إلى هذه الفروق فنفيد قرّاء اللغات الأخرى بمعاني القرآن، ونتجنَّب ما ينشأ عن التراجم من اختلاف، يجعلها لا تنطبق على الأصل تمام الانطباق.

ولو وضعنا على كل ترجمة للقرآن تنبيهاً يحمل هذا المعنى لارتفع الحرج وعمَّ النفع.

* * *

ولكل شعب مسلم أن يحتفظ للغته الخاصة بآدابها وفنونها.

ونحن نؤيد تلون الآداب بألوان البيئات التي نشأ فيها.

ومن المستحسن أن تتهادى الشعوب ـ قاطبة ـ روائع ما لديها من ثمرات الشعر والنثر، كمثل من تبادل العواطف الإنسانية الراقية.

على أني أرجو أن يسحب ذيل النسيان على الآداب المكشوفة والمنحرفة. فتبقى ـ حيث ولدت ـ مقصورة الضرر على المجتمعات التي بليت بها.

فلا ينقل العرب ما عندهم إلى غيرهم، ولا يجلبون ما لدى الآخرين منها.

* * *

ودراسة تاريخ الإسلام السياسي والتشريعي مادة لا بد من جمع المسلمين عليها.

ومن المؤسف أن تاريخنا كتب بطريقة أدنى إلى الهدم منها إلى البناء.

وأن الأطماع السياسية والمنابزات الجنسية تدخلت تدخلاً منكراً في تصوير الوقائع ومضاعفة آثارها.

والتمزيق الذي يقسم أمتنا في هذه الأيام كما قسمها بالأمس، يرتد إلى هذا التاريخ المغرض المشوه.

إنَّ النزاع بين العرب والفرس، وبين العرب والترك، وبين بيوتات العرب أنفسهم، جعل الاشتغال بالمعايب وتتبع السقطات أهم من دعم الفضائل وتسجيل الحسنات.

وبذلك تحوَّل تاريخنا إلى قصائد هجاء وإحصاء مثالب.

ثم اختلطت الأهواء السياسية بالتوجيهات الدينية فتأدى ذلك إلى زلازل حاطمة، جعلت المسلمين فِرَقاً يأكل بعضها بعضاً، حتى جاء الاستعمار الحديث فأتى عليهم جميعاً.

وأرى أن يؤلف «مجمَع علمي» يتعاون رجاله على غربلة التاريخ الإسلامي كلّه غربلة قوامها نشدان الحق، وعلاج الهفوات الفردية، بما يرد للشعوب الإسلامية اعتبارها ويجمع شتاتها.

فمن الجَوْر أن يتحمَّل الترك أو الفرس، أو السود أو الصفر أوزار حاكم

منهم، جارَ عن الصواب يوماً، فتكتب سيئته على الأخلاف أبد الدهر.

يقول الدكتور: «بحسب الشيع الإسلامية الحاضرة أن تتسع صدورها، وأن تتسع آفاقها، وأن تجتمع كلها على القرآن الكريم، وما صحَّ عقلاً من أحاديث رسول الله ﷺ.

وأن نظهر بهذين على الملأ وفي الأسواق العامة.

أما ما عدا هذين الأصلين فيكون للاستهلاك في المنازل، أو في الحظائر، فلا يرمى به أحد من وراء الجدران. !

إنه كفى بالقرآن هدياً للمسلم، وكفى بالحديث. وعلى غير هذين العفاء.

إنه كان في عهد الرسول مسلمون اكتمل عندهم الدين، وهو قد اكتمل في ظل القرآن والحديث ولا شيء غير هذين.

فلم يكن فقه ولا فقهاء ولا شيعة ولا أشياع».

هذا كلام حسن، والدكتور الفاضل لا ينفرد به ولا ينبغي أن يحس حرجاً في التصريح به، فإنَّ جمهور المسلمين معه فيه.

ماذا بعد الكتاب والسنة؟ إنه لا قداسة لشيء بعد وحي الله وهدي نبيه!

وأجلَّ علماء الإسلام وفقهاء الشريعة قدراً لا يعطى كلامه أية قيمة ما لم يعتمد من قريب أو بعيد على نصٍ في الكتاب أو في السنة.

والسؤال الذي نوجهه بعد ذلك للدكتور هو:

كيف توفق بين هذا الكلام الواضح وبين قولك قبل ذلك: «الإسلام لا يمكن أن يبقى بدون فلسفة مؤسّسة على العقل؟.

إنَّ أهل النص في الإسلام يسرفون على أنفسهم وعلى المسلمين، حينما يجعلون النصوص وحدَها مصادر الدين.

والإسلام عانىٰ من أصحاب النصوص ـ في ماضيه وفي حاضره ـ الشيء

الكثير، فكان من المسلمين من اعتزل، وكان منهم من كفر، وكان منهم من بقي بين الكفر والإيمان. لا يدري على أي جانبيه يميل . . !!

ذلك لأنَّ المسلم يعلم أن الإسلام بنى الإيمان به على العقل، ودعا إليه حجة وفهماً، لا يرضى أن يقال له في سائر أشياء الإسلام بعد ذلك:

أغلق عقلك أو اتهمه فما أنت في فقه الإسلام من قليل أو كثير».

هل يريد الدكتور أن نحترم الكتاب الكريم والسنة الصحيحة، أم نهملهما إلى فلسفة عقلية لا تتقيَّد بما ورد فيهما؟

إنَّ حفاوته بالكتاب والسنة تذكّرنا بمدرسة أصحاب الأثر في الصدر الأول ممن يزهدون في كل حكم وراء النص.

ولذلك نحن في حَيْرةٍ من دعوته الأخيرة إلى فلسفة عقلية يزعم أن لا بقاء للإسلام إلا في ظلها!

ما خطوط هذه الفلسفة، ومن أين تبدأ، وإلى أين تنتهي؟

قد يريد الدكتور ـ وإن قصرت العبارة عن مراده ـ أنه يوقِّر ما قاله الله ورسوله. ولكنه يكره تحكُّم المفسرين والمتكلمين باسم الإسلام، ويرفض مذاهبهم في الفهم والاستنباط . .

إن كان هذا مراد الدكتور الفاضل فالخَطْب سهل.

ومثله ممن يعلنون ولاءَهم للكتاب والسنة، لن يخشى منهم أن يحكموا الهوى أو الجهل في النصوص الكريمة.

إنَّ النصوص التي قام عليها الإسلام كلام عربي عالٍ، لا يدرك مراميه إلا أديب حسن الفهم في اللغة.

وأديب كأبي نواس ـ مثلاً ـ لا يُعرف بالعفاف والشرف، قد يجود فهمه للكلام، ولكن لا يؤمن هواه في الحكم!

فيجب إذن أن يؤخذ تفسير النص عن رجل فَطِن في اللغة، وثيق في الخلق.

وقد تكلَّم الأقدمون في هذا الشأن كلاماً مستفيضاً، ليس الغرض منه خلق طائفة تحتكر الفتوى باسم الله.

بل الغرض منه ترشيح مواهب معينة لمنصب الفتوى والقضاء والتفسير والتحديث... إلخ.

وشروط الاجتهاد المدوَّنة في صحائف الفقهاء لا تزيد في شأنها عن التقاليد الجامعية المعروفة الآن في منح الإجازات، وتقرير مراتب المعرفة وتحديد الفروق بين التلاميذ والأساتذة.

فليقل من شاء: إنه لن يتقيَّد بأقوال الفقهاء في شؤون دينه، ولكن ليطمئننا أولاً كيف سيفهم النصوص!

أكما يفهمها العرب العقلاء العدول؟

أم أنه سيدوس القواميس والقواعد والتاريخ الثابت، لأنه يريد تحوير النص إلى هوى في نفسه هو!

هذا هو الفيصل الذي نقف عنده.

* * *

على أنَّ في كلام الدكتور ما يجعلنا نسأل مرة أخرى: عن كنه الفلسفة العقلية التي يريد أن يدعم بها الإسلام.

فإنَّ المنهج العلمي الحديث ضَيَّق دائرة الفكر الفلسفي بعد ما جعل عمدته في استكشاف الحقائق منطق التجربة والملاحظة والاستقراء.

إنَّ الفلسفة في المجالات الباقية لها أصبحت كالشعر الحالم، يهيم في كل واد ثم يعود من تجواله بعاطفة خاصة أو خيال مستلطف.

وقد قرر الدكتور نفسه ذلك إذ قال:

«إنَّ العلم لم يُبْقِ منها ـ أي الفلسفة ـ إلا ذلك الجانب، جانب ما وراء الطبيعة، وفيه تَشيع معانٍ أخرى قوامها فلسفة الحدس والتخمين، يدورون فيها ما يدورون ـ يعني الفلاسفة ـ ولا يقرّ علماء الطبيعة أنهم يجيؤون بشيء ينفع أحداً. . ».

وهذا صحيح، وخير للمسلمين، وللعالم كله أن يهمل هذا الضرب من التفكير الفلسفي، وأن يمنع تسلّطه على الإسلام. .

إنَّ للعلم كلمته المسموعة في ميدان الطبيعة والحياة.

أما في العقائد والعبادات، والأحكام والأخلاق، فإنَّ الدين كلمته هي التي ينبغي أن نصيخَ إليها في خشوع.

ولن يكون هناك خلاف ـ ألبتة ـ بين داعي العلم وداعي الدين.

لأنَّ كليهما ـ إذا صحَّ ـ ينبجس من معين الحقيقة الواحدة في الأرض والسماء.

الإسلامُ والمدنيَّةُ الحَديثة

كانت مقالة الدكتور «أحمد زكي» هذه المرة مفاجئة لي ولجمهور النقاد الذين يتوقعون الإحكام في استدلاله، والقصد في عرضه وحكمه.

فلما بدأ يقول عن المدنية الحديثة: إنها مدنية نصرانية، أو على الأقل نشأت في حجر النصرانية!! وجَمَ القارىء والسامع، وعاد كثير منهم يتساءل عن قيمة الكلمات التي ألفوا من الدكتور قبولها والاطمئنان إليها.

إنَّ هذه المجازفة في الوصف أشاعت الريبة في نفوسهم وجعلتهم يكنون الحذر عندما يطالعون كتاباته في هذه الشؤون.

ذلك أن أحداً من المؤرخين للفكر أو للدين أو للسياسة لم يقل: إن النهضة العلمية الغربية تربت في حجر النصرانية.

بل إنَّ أحداً لم يقل: إنَّ هذه النهضة وجدت ذرة من عطف الكنيسة عليها. بل العكس تماماً هو الثابت.

فإنَّ هذه النهضة سارت وسط حطام من الأشلاء، ورشاش من الدماء، وقع على رجالها من سدنة النصرانية ورعاة الكنيسة.

فكيف يقال: إنها مدنية نصرانية، ترعرعت في أحضان الكنيسة؟؟.

ويظهر أنَّ الحوادث التي يستحيل نكرانها ردت الدكتور الفاضل إلى نطاق الحق مرة أخرى وجعلته يقول:

«فالعلم الحديث، والمدنية الحديثة التي هي وليدته، لم يكونا من نتاج النصرانية، بل قاما ـ أول الأمر ـ على الرغم من النصرانية!!

ويقول ـ كذلك ـ: النصرانية الرسمية لم تشجع العلم.

ولماذا نتلطف؟ فلنقلها قولة صريحة: إنها خاصمته!!.

هذا هو فهم الدكتور لصلة النصرانية بالمدنية الحديثة، وهذه هي تعبيراته الأولى والأخيرة.

ونحن ـ الذين نغالي بمكانته ـ نرجوه أن يترفَّق بنا فلا يوقعنا في هذه النقائض المبهمة!!!

إنَّ تحرير المراد وضبط العبارة المؤدية له لا بد منها في هذه السياقات الحساسة.

ذلك أننا نتكلم في شرائع الله ورسالات أنبيائه.

وقد اهتز كلام الدكتور مرةً أخرى، وهو يقول: «إنَّ الدين المسيحي لم يأتِ أهله بالشيء الكثير..

فكان لا بد من وجود شيء يُسمى الكنيسة يقيم ما فات السيد المسيح أن يقيمه، ويملأ الفراغ المتخلف، ويسد ثغرة في العقائد كان لا بد من سدها».

هذا كلام من الناحية الدينية خطأ بحت. فإنَّ الله لم يرسل واحداً من النبيين بشريعة ناقصة في مضمار العقيدة.

إنَّ أصول الإيمان أتىٰ بها موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم كاملة.

وليس لبشر، ولا لمجمع، ولا لكائن، مهما علا شأنه، أن يضيف إلى العقائد أو العبادات جديداً من لدنه.

ومن حق عباد الله جميعاً أن يرفضوا الاعترافَ بأية إضافة من هذا القبيل.

وهم بهذا الرفض يطيعون الله، ويصلون إلى رضاه.

ومن حقي ـ وأنا مسلم أؤمن بعيسى ومحمد معاً ـ أن أقول:

إنَّ عيسى لم يدع، وراءه فراغاً في شؤون العقيدة أو العبادة، يستدعي وجود هيئة ما تشرف على ملته.

أما شرائع المعاملات والأحكام وما إليها، فإنَّ رسالات السماء عرضت لبعضها إجمالاً أو تفصيلاً، ثم تركت الحكم في الأعراض المتجددة للقواعد العامة أو لآراء المجتهدين.

وليس هناك مكان لوصاية موهومة بين البشر وربهم.

ومزاعم رجال الكنيسة في المسيحية، أو رجال الطرق عندنا، لا أساس لها ولا وزن.

وليس يقبل من الدكتور «أحمد زكي» أن يتخيَّل عذراً أو مساغاً لرجال الكنيسة الأولين أو الآخرين في احتلال المكان الذي فرضوه لأنفسهم، وخصوصاً في مجال الاعتقاد.

فإن عيسى لم يترك فراغاً لأحد في هذه الناحية من الرسالة التي بعثه الله بها.

* * *

أما صلة الفلسفة بالدين، وصلة الفلسفة الإغريقية ـ خاصة ـ بالحضارة الحديثة فمسألة أحب أن أقلبها على وجوهها، ولا أريد أن أغلِّب رأيي ولا رأي الدكتور فيها.

ولعل ذوي البصر بالتاريخ يساعدوننا على استبانة الصواب.

إنَّ اشتباك الفلسفة بتعاليم الدين، هو في نظري ضرب من لَبْس الحق المقطوع به بالظن الحائر المضطرب.

وكما نجح العلم الطبيعي ودنت ثماره لما هجر الفلسفة الطبيعية ومناهجها، كذلك يجب أن يسير الدين بعيداً عن فلسفة ما وراء الطبيعة، وما تضمنته هذه الفلسفة من أوهام وخبط. .

من فلاسفة الإغريق من زَعَم أن العالم محاطٌ بغلاف من النيران الملتهبة .

وأنَّ الشمس والنجوم التي تتألق ليلاً، ليست إلا ثقوباً في هذا المحيط الناري.

ومنهم من جعل الكون مخلوقاً من عناصر معينة هي الهواء أو الماء، ومنهم. ومنهم.

وليس المهم أنَّ هذا حق أو خرافة، وإنما المهم منهج التفكير الذي يتمخض عن هذه النتائج.

إنه منهجٌ سقيم، إنه ضربٌ من اللغو أو اللهو!! . .

فلما قام في العالم المنطق التجريبي والرياضي، تحدَّدت الوسائل التي يطلب بها الحق، وظفر علماء الكون والحياة بمعارف رائعة.

وبهذا طُرِدَت الفلسفة الطبيعية طرداً من هذا الميدان.

فإن كان أسلوبِ الفلسفة كلها واحداً في تعرُّف الحقائق، فأيُّ معنى لاحترام فلسفة ما وراء الطبيعة، أو التعويل على النتائج التي تَفِدُ بها؟؟.

إنَّ الدين ثروة من الأحكام، نقلها المعصوم عن ربِّ العالمين، في مجالٍ لا اجتهاد فيه لبشر، ولا مكان فيه لتظنن.

فإذا تحدَّث هذا الإله عن نفسه، وعن صفاته، وعن شرائعه التي ارتضاها لعباده، فمن السخف أن نخلط هذا الحديث بتخيلات رجل يعتزل في ناحية ثم يقول: إنَّ الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وإنَّ مصدر الوجود تولَّدت عنه عقول ثمانية وأفلاك سبعة!!

أو أنَّ هناك عالماً من المثل تلتقي عنده نماذج الخير والشر إلى آخر ما تضمنت الفلسفة الإلهية من شطحات.

إنَّ إلزام أهل الدين بسماع هذا الهراء، كإلزام أهل العلم بقبول كلام «انا

كسيمندر» و «أنا كمسين» في خلق العالم من ماء، أو من خمر!! . .

* * *

وليت أهل النصرانية، وأهل الإسلام صانوا أديانهم عن مقالات الفلاسفة.

إذن لبقي لها رواؤها السماوي، ولما التبس الوحي الأعلىٰ بتخرصات الأرض.

فالمحزن أنَّ علوم العقيدة ـ عندنا نحن المسلمين ـ شابتها أوهام الهنود والإغريق فعكَّرت صفوها، وبَذَرَت فيها بذور الفرقة والزيغ.

وإننا لنبذلُ الجهودَ الآن لتخليص العقيدة من مصطلحات الفلاسفة وتقاسيمهم لتعود إلى بساطتها الأولى في كتاب الله وسنة رسوله.

أما تأثر النصرانية بالفلسفات القديمة فأمرٌ معترف به.

لقد قامت «الأفلاطونية الحديثة» تمزج بين الفلسفة والدين مزجاً تميزت به مدرسة الإسكندرية، وعرف لرجالها كأفلوطين وفيلون وغيرهما.

وتأثر هذه الديانة بالرواقية الإغريقية لا ينكر.

بل إنَّ فلسفة التثليث تعتبر طارئةً على تعاليم العهد القديم وأنبيائه جميعاً.

وهي ـ في نظرنا ـ مقتبسة من فلسفة الهنود وقدماء المصريين.

إنَّ الكنيسةَ لم تحارب الفلسفة القديمة. . بل خاصَمَت العلمَ الحديث.

وقصة «غاليليو» التي ذكرها الدكتور تشهد لهذا.

فإنَّ القول بكروية الأرض بحث علمي، وإقراره لا يخدش تعاليم الإنجيل.

ومحاربته ـ باسم الله ـ موقف من الكنيسة القديمة غير مفهوم.

إنني أود أن أتهكم ـ مع الدكتور ـ بقوم يعيشون في هذا العصر مغمضي أعينهم وسط أشعة من المعرفة اكتشفت العجائب.

إنَّ القاصرين في آفاق العلم أقل الناس علماً بالإسلام، وأوهاهم صلة بالله، وأبعدهم عن مناهج الرشد التي اختطها الله في دينه.

ولكني لا أتهكم مع الدكتور بأقوام لا سهم لهم في الفلسفة، خلت بلادهم من بحوثها وصحائفها، لأنَّ لفظ «فلسفة» إذا ذكر يوحي بمعانٍ لا تتصل بالإيمان من قريب، وقد يستعاذ بالله منه ـ كما يقول الدكتور ـ .

والغريب أن الدكتور يذكر أن المسلمين امتحنوا قديماً ببعض ما امتحن به المسيحيون في عهد المأمون وأخلافه، لما دخلت الفلسفة الإغريقية إلى الدولة العربية الإسلامية.

وهذا غير صحيح، فالمأمون حابىٰ التفكير الفلسفي على حساب الإسلام.

وأغرى الخاصة والعامة أن يقتحموا بحثاً لا جدوى منه ألبتة، وهو أن القرآن مخلوق لا قديم.

فجاء المتوكل فأبطل هذا الهزل.

ترى لو اشتغل المسلمون قروناً أخرى بالفلسفة الإلهية أكان ذلك يجديهم شيئاً في دين أو دنيا؟؟ كلا.

إنَّ الفكر الأوربي لم يتحرر ولم يستطع السير إلى الأمام، إلا بعد أن رمىٰ في ازدراء آثارَ الفلسفة الإغريقية الأولى . .

بل إنَّ أنفسَ ما في الفلسفة، وهو منطق «أرسطو» لم ينجُ من قدح أساطين النهضة الحديثة.

فعدَّه «ستيورات ميل» أداةَ جدل عقيم، أو وسيلة لتنظيم معلومات موجودة.

أما الإتيان بجديد نافع فله منطق آخر، يقوم على دراسة كتاب الكون

المفتوح «أي الاتصال المباشر بالطبيعة والحياة».

ومن ثم فلسنا نسلِّم للدكتور قوله: إنَّ العلم الإغريقي والفلسفة الإغريقية هي التي بدأت العلم الحديث بأوروبا فالمدنية الحديثة.

* * *

ولنعد بعد هذا اللف الطويل إلى علاقة الإسلام بالمدنية الحديثة.

ولأصارح القارىء بأنَّ حديث الدكتور «أحمد زكي» عن هذه العلاقة جعلني أسائل نفسي:

هل أنا ذاهل أم واهم؟.

إنَّ هناك معركة واسعة تدور لمنع المسلمين من الأخذ بهذه المدنية.

هكذا يريد أن نفهم. !! وقد تتبعت أطوار هذه المعركة وأنباءها فلم أجدها إلا في مقاله.

واستمع إلى عباراته كاملة: «المسلمون يتقبلونها اليوم ـ يعني العلم والمدنية ـ عن طواعية، لولا محافظة من الفقهاء شديدة بالغة، تصور للناس أنَّ العلم والدين شيئان متعارضان!!. فينزل وقع ذلك ثقيلاً على شباب المسلمين.

ويتنازع الشباب علم ودين. فتكون الغلبة للعلم، والغرم للدين.

وأي دين هذا؟ إنه ليس الإسلام الذي جاء به محمد. إنه إسلام بناه فقهاء المسلمين على مرِّ القرون، اختلط فيه الحابل بالنابل. فما يدري أحد أيُّها الدين وأيُّها غير الدين».

أين هذه المعركة بين العلم والدين؟ وأين هي بين الفقهاء والمدنية؟

إنَّ الجاهلين بأحوال الأمة الإسلامية عندما يسمعون هذا الكلام يظنون أنَّ فقهاء الإسلام طبقة من الكهَّان يقفون صفاً مرصوصاً دون أن تنفتح أبواب البلاد للعلم الحديث، وأنهم يعوقون السلطة الزمنية عن الأخذ بالنصيب الواجب

من الحضارة الإنسانية الجديدة.

وهذه صورة لا صلة لها بالواقع، ولا ندري مأتاها إلى ذهن الكاتب!!.

إنَّ في المسلمين أميةً غالبة، وقصوراً في شؤون الحياة، وتخلفاً في ميادين الاقتصاد والإنشاء والتعمير، وعجزاً في الفنون العسكرية، وقلقاً في أحوالهم العامة.

وهم ـ وأنا أعني ما أقول ـ يسيؤون إلى دينهم بهذا الضعف أكثر مما يسيؤون إلى دنياهم.

وقد شَرَعوا الآن يتخففون من أثقال الجهل الذي أزرى بهم. ويعودون إلى الإدراك الحق لطبيعة دينهم وحياتهم على سواء.

والمسؤول عن هزيمتهم أولاً، ليسوا طائفة تسمى رجال الدين، لأنَّ هذه الطائفة وما تستتبع من مراسيم روحية ومدنية لم يعرفها الإسلام قط.

إنَّ الاستبدادَ السياسيَ، والجَوْر الاجتماعي، والتعصب الجنسي، كانت هي المزالق التي هوى فيها تاريخنا، وكانت ـ كذلك ـ المظاهر التي خرج فيها على طبيعة الإسلام.

* * *

ولقد كان الدكتور زكي أبوشادي أبصر بطبيعة الإسلام وأعرف بالثمار التي تُجنى من تعاليمه عندما تساءل: ما هو إذن موقف الإسلام من الحضارة؟ ثم أجاب: إنَّ موقف الإسلام من الحضارة هو الموقف المنتظر من الأب البار نحو ابنته، أجل، إنَّ الإسلام يعتبر الحضارة سليلته لأنَّ دستور التقدم الإنساني بالقرآن العظيم، وكل عامل يؤدي إلى رقي البشرية هو منه وإليه، وكل ما ناهض هذا التقدم غريب عنه ـ وكثيراً ما نقرأ عن التوفيق بين الحضارة والإسلام، وهذا التعبير في الواقع تعبير خاطىء، إذ لا خلاف مطلقاً بين الإسلام والحضارة، فالحضارة نتيجة من نتائج النظام الإسلامي والفلسفة الإسلامية العملية.

والحضارة الإسلامية ـ أي المترعرعة في كَنَف الإسلام ـ حضارة شاملة عامة، لأنَّ روح الإسلام عالمية، فهي لا تعرف التعصب إطلاقاً ـ اللهم إلا للخير العام.

وفي سبيل الخير العام تقتبس من مدنيات شتى وتتبناها وتشجعها وتصهر حسناتها جميعاً في بوتقة التسامي الإسلامي.

إنَّ الإسلامَ، الدين العالمي التقدمي، لم يتخلَّ ولن يتخلَّى عن أي فكر صالح أو عمل نافع كيفما كان، وأينما كان مصدره وعصره وأصحابه.

إذ يعد كل ذلك ثمرة تعاليمه ونتاج تبشيره.

وفي عصرنا الحاضر خاصة، إذ تحدثنا عن أية نهضة أو حضارة مفلحة محسنة تمثلنا فوراً الإسلام الكريم بتعاليمه النورانية التي شعَّت شرقاً وغرباً وأخذت يد الإنسانية في مدارج الحياة الشريفة. فإذا زرنا المختبرات والمصانع والمتاجر والحقول وتأملنا المخترعات ومظاهر المدنية الرفيعة فنحن في كنف الإسلام العملي، وبعبارة وجيزة: إنَّ الإسلام تمتد جذوره وفروعه إلى جميع نواحي الحياة الجديرة بأن تعز والكفيلة بسعادة الإنسانية. والمدرسة الإسلامية التي تمثل التفكير الإسلامي الحق لا تعرف شيئاً اسمه التوفيق بين العلم والدين، إذ أنها تعتبر العلم أداةً للدين أو مظهراً له، لأنَّ العلم يفصح عن عظمة الوجود وعن أزلية الله سبحانه وتعالى، ولأنَّ الدين سلوك أدبيٌّ نقيٌّ، والسلوك الذي يعارض العلم أو يناهضه لا يمكن أن يعتبر سلوكاً أدبياً.

إنَّ الصالح العام يتمشَّى مع العلم وتطبيقه، وما يعارض الصالح العام هادم للخلق القويم، هادم للسلوك الأدبي، وبالتالي هادم للدين».

* * *

ومع ذلك فإن أنصبتنا من التقدم العام لا تزال قليلة مخزية!

وقد تسأل: من الذي يحمل تَبِعةَ هذا التخلف؟.

إنهم الرجال الذين اتصلوا بالغرب ولم يحسنوا فهمه ولا النقل عنه.

إنَّهم ـ في نظري ـ المتهمون الأوائل في هذه القضية. . !!

إنَّ الحضارة الحديثة لباب وقشور، وعمل وترفيه، وجدٌّ ومجون.

فمن ينقذنا من أقوام لا يريدوننا إلا مقلِّدين للقشور والمجون والترفيه فحسب؟

لقد قرأنا أنَّ البرلمان الأمريكي ـ بعد تسعة شهور من البحث والإنتاج والمناقشة ـ ختم جلساته بحفلة سادها الصفير والرقص والغناء.

فهل التقاليد البرلمانية التي تعرض علينا ونطالب بها هي الصفير والرقص.

إنَّ الشرق الإسلامي في مطالع يقظة جديدة. وهو أحوج إلى العمل منه للعبث، بل إنه قد يكلف بتضحيات ومغارم ثقيلة، بإزاء طمع المستعمرين وإصرارهم.

ومن نكد الحظوظ أن يبتلىٰ بمن يصوِّر له المدنية الحديثة خروجاً على مقتضيات الإيمان والخلق. ولا يصوِّرها له على أنها ارتقاء إنساني في استغلال الكون، ومماشاة الفطرة المستقيمة بين جماهير الأحياء.

خاتمة

اقترن ظهور الإسلام بحركة إحياءٍ عامة، تنفست بها المشارق والمغارب كما يتنفس الصبح بعد ليل حالك طويل.

وفي هذه البكرة الصاحية انتفض البشر انتفاضة الانتعاش والنشاط، ودبّت في أوصالهم روح العمل لمستقبلٍ أفضل وحياةٍ أكرم.

لقد شَعرَ الناس ـ بعد ما استمعوا إلى القرآن ـ أنهم متخلفون مسافات طويلة عما يجب أن يبلغوه من رقيّ وكمال.

وشعروا أنَّ الآفاقَ التي ينقلهم الوحي الجديد إليها تتقاضاهم أن يشمِّروا عن سواعدهم، ليحرزوا ما فاتهم ويدركوا ما يطلب لهم.

وهذه اليقظةُ الشاملةُ قوامها انفلات العقل من الآصار التي أثقلته وأوهنته، واستقباله الدنيا بنظرة تحقُّ الحق وتبطلُ الباطل، وتنبذ الأوهام الأولى، وتنشيءُ أحكاماً جديدةً لكل ما تعالج أو تواجه من شؤون الحياة. .

إنَّ الأرض عندما طلَع عليها الإسلام لم تنسلخ من إهابها البالي العَفِن فحسب بل تغيَّرت حقيقتها تغيراً نقلها من طور إلى طَور.

فعرفت حريةَ الفكر، وأكَّدت حقها في كل ما يعلي قدر الإنسان ويبوئه في الوجود مكانته اللائقة، وسقطت ـ فجأة ـ دولة الأصنام في ربوع الجزيرة المخرفة ثم تساقطت تباعاً سلطات الكهانة الدينية والسياسية التي استندت بالقارتين المعمورتين في هذه الأعصار، آسيا، وأفريقية.

وتوالت الانفجارات في الوعي العام، مصحوبة بالتطلُّع إلى مزيد من العدل الاجتماعي والكرامة السياسية.

وكان الإسلام في هذه التطورات الرائعة باعث النهوض وحافز الهمم، وسر الطفرات الغريبة التي عمرت وجه الأرض بعد خراب، وأخصبته بعد مَحْل.

كان هذا الدين عقيدة تقدمية، ينظر الناس إليها نظرتهم إلى حضارة مقبلة بالمعرفة واليُمن، لا ينتسب إليها إلا من حازَ حظاً معيناً، من زكاة النفس، وذكاءِ العقل، وقَبول الترقي.

فمن التحق بها فقد سارَ مع القافلة المتجدِّدة المتطوِّرة مع الزمن.

ومن بقي مكانه فهو امرؤ جَمَد مع الماضي الذي أزرت به الخرافة، وحق عليه الهوان.

* * *

إنَّ حريةَ النظر في ملكوت السماء والأرض، وحق النقد لما يتردد من مذاهب وآراء، والنظر إلى الإنسان على أنه مستخلَف عن ربِّ العالمين في ربوع هذا الكون الضخم، واعتبار آفاقه محاريب، التأمل فيها إيمان، واستخراج سرها وخيرها عبادة..

إنَّ ذلك كله بعض ما تركه الإسلام، من آثار في سَير العمران البشري.

وفي ازدهار الحضارة ببلاد الإسلام أخذ على المسلمين أنهم أسرفوا في الاستمتاع بما أتاح لهم الإسلام من حريّات.

وأطلقوا العنان لأفكارهم، تفكر فيما وراء المادة، وكأنما فرغت من البحث فيما بين يديها وما خلفها!!!

وإذا كانت للجمود علل مهلكة، فإن للتهور عللاً لا تقل سوءاً عن الأولى.

لقد ظلَّ التفكير الإسلامي يتأرجح بين مختلف التيارات، وتناوشه شتى الأهواء والنزعات، حتى شرد عن سواء السبيل.

ثم قام ـ إلى جانب هذا الجماح ـ قومٌ آخرون يشدونه إلى الخلف، ويكثرون حوله السدود.

فإذا الحضارة الكبيرة يعروها من الاضطراب ما يوقف مدها، ويضلل سعيها.

ولسنا هنا بصدد تأريخ لتطور الفكر الإسلامي، أو رسم خط بياني يشرح صعوده وهبوطه، والتواءه أو استقامته. .

فذلك يحتاج إلى كتاب منفرد.

وكل ما نحبُّ الإشارة إليه: أنَّ المسلمين وصلوا ـ منذ بضعة قرون ـ إلى درك سحيق، إذ استفحلت العلل التي أصابت كيانهم.

وما زالت تلحُّ عليهم حتى رجعتهم عن الطليعة التي بلغوها قديماً عن جدارة، فتأخروا إلى الصف التالي، ثم تأخروا إلى صف وراءه.

ثم ظلوا يتقهقرون حتى بلغوا أوائل القرن الرابع عشر للهجرة. . منزلة ليس وراءها هوان.

كان العالم يرمق المسلمين الأوائل، كما يرمق السارون في الدجى مطالع الكواكب.

أما اليوم، فهو يرمقهم كما يرمق السَّابح في القمم، قطعاناً تتواكب في السفوح. .

ولئن كان الأسلاف الكبار قد تصدروا عن جدارة.

فإنَّ الأخلاف الصغار قد تراجعوا وذلوا عن جدارة كذلك!!

الأولون سادوا يوم كانوا ـ أفراداً وجماعات ـ نماذجَ عالية أو مقاربة لما ينشده الإسلام من فضائل، ولما دعا إليه الناس من سيرة ومعاملة.

والآخرون ضاعوا يوم اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وانتسبوا إلى نبيه كما ينتسب الابن العاق إلى أبوة فذّة، يحمل اسمها فخراً وادعاءً، ثم يعاشر الأنام، فلا ترى في فعله إلا أحوال السوقة والصعاليك. .

وحضارة الإسلام لا تغري أحداً بالانضواء إليها، لأنَّ لها كتاباً مصوناً وسنة ماجدة.

وإنما يسمع لها ويؤخذ عنها، إذا كان لها مجتمع حي يقوم بها ويعيش عليها. .

إنَّ سطور الحق في بطون الكتب لا يميزها الناس عن الأساطير.

ولكن الناس يعرفون الحق ويعجبون به، إذا رأوه منهاج أمة، وآمال ناشئة، وتقاليدَ جيل بأسره.

يفرح ويحزن، وينكسر وينتصر، وهو مرتبطٌ بها محسوبٌ عليها..

وأمامي الآن رسالة كتبها الإمام «محمد بن علي الشوكاني» الفقيه المحدّث، الذي ولد من مائة سنة تقريباً، يصف بها حال المسلمين في قطره «اليمن».

والوصف الذي سنقرؤه هو لفساد لم يبرز إلى الحياة دفعة واحدة، بل تمخضت عنه أحوال ظلت قرابة مائتي سنة أخرى.

أي أنَّ التدهور الذي أصاب أمتنا بدأ من أربعة قرون، إن لم يزد!.

وعندما كان الشوكاني يصف الجهالة الفاحشة التي رآها، كان الفرنسيون يهاجمون مصر، وينزلون جندهم بالإسكندرية فيراها الأهلون وكأنما يرون جنداً قذفت بهم جزيرة مسحورة من النوع الذي درجوا على قراءته في ألف ليلة وليلة.

أين كنا من الدنيا؟ وأين كانت الدنيا منا في هذه الحقبة العصيبة؟.

لقد كنا في غيبوبة تستحق الرثاء.

ولنسمع إلى الشوكاني يصف مسلمي بلاده، والأحوال النفسية والاجتماعية والسياسية التي لم يعرفوا غيرها قال[1] يصف الحاكم ـ القائم على سلطة التنفيذ:

«إنه لا عمل له إلا استخراج الأموال من أيدي الرعايا، من حلها ومن غير حلها، بالحق وبالباطل، مستعيناً على ذلك بالمشايخ الذين هم من العرفاء المنصوص عليهم من صاحب الشريعة أنهم في النار.

يتسلَّط كل واحد منهم علىٰ من تحت يده من المستضعفين، فيصنع بهم

---

(١) من رسالة «الدواء في دفع العدو الصائل» ـ بإيجاز وتصرف ـ .

كما أراد وكيف أحب.

وهو مفوَّض في أموالهم باسم ذلك الحاكم يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء.

ولم يسمع ـ على تطاول الأيام وتعاقب السنين ـ أن أحداً من هؤلاء الحكام أمر الرعايا بما أوجب الله من الفرائض التي لا فسحة فيها ولا مندوحة عنها، أو نهاهم عن شيء من المنكرات التي يرتكبونها.

بل جرت عادة كثير من الحكام والموظفين أن يأخذوا في مقابل ترك الصلاة شيئاً من السحت «يعني الرشوة»!..

وكذلك في المحرمات المجمع عليها كالزنا والسرقة وشرب الخمر!!..
إذا وقع أحد من الناس في شيء منها كانت عقوبته أن يدفع شيئاً من ماله لينجو من عواقبها.

فانظر أي فاقرة في الدين ولاية مثل هؤلاء الحكام؟ وأيُّ قاصمة لظهر الشريعة؟ وأي شرٍّ يصيب العالم؟ وأي بلاء صب على دين الله؟

وقد ينضم إلى هذه المخازي ـ التي تقع من الحكام ـ أن يرابوا على رؤوس الأشهاد رباً مجمعاً على تحريمه، وأن يصحبوا جماعات من المتعاملين بالربا. ويسلِّطوهم على الأمة لتحمل أوزارهم وتمدهم في غيهم. والربا هو الذنب الذي توعّد الله بحرب فاعله. وحربُ الله ليست قاصرة على نزول حجارة من السماء، بل قد تكون بغلبة من يهتك المحارم، ويسفك الدماء..

قال الشوكاني ـ يصف القاضي القائم على حق الفتوى والحكم بما أنزل الله ـ:

قال: «إنه رجل جاهل بالشرع إما جهلاً بسيطاً أو جهلاً مركباً.

أقصى ما يدريه ما يعرفه وكيلا الخصومة. وممارس حضور الجلسات.

من مسائل تدور على الدعوى والإجابة وطلب اليمين والبينة.

وليس له من العلم غير هذا. لا يفقه حقاً ولا باطلاً، ولا معقولاً ولا منقولاً ولا دليلاً ولا مدلولاً!!..

لا يعي شيئاً من أمور الشرع فضلاً عن أمور العقل!

غاية ما هنالك أنه اشتاق أن يُدعى قاضياً ويشتهر اسمه في الناس ويرتفع بين معارفه وأهله فعمد إلى الثياب الجميلة فلبسها، وجعل على رأسه عمامة كالبرج! وأطال ذيل كمه حتى صار كالخرج! وتظاهر بالسكينة والوقار!! واستكثر من قول نعم ويعني!! وجلل له سبحة طويلة يديرها في يده!!.

ثم جمع له من الحطام قدراً واسعاً، وذهب يدور به على الأبواب، ويتردد في السكك مستعيناً بالشفعاء المرتشين، ليشتروا له هذا المنصب الجديد».

قال: «وكيف يهتدي إلى فصل الخصومات بالحق. جاهل اشترى وظيفته كما يشترى المتاع من الأسواق؟

.. إنَّ ولاية مثل هذا المخذول خيانة لله ولرسوله ولكتابه، وللعلم وأهله، وللدين والدنيا.

.. إنه لا فرق بين من بعث مثله ليحكم بجهله وبين من بعث رجلاً من أهل الطاغوت ليحكم بهواه. ويحيد عما أنزل الله.

بل بعثُ هذا أعظم ذنباً وأشدُّ معصية. لأنَّه تلبيس على الشرع الشريف وخديعة لجمهور المؤمنين»!!

قال: «ذاك حال الحكام والقضاة، أما الرعية فأكثرهم لا يحسنون الصلاة ولا يعرفون ما تصلح بها، بل لا يوجد منهم من يتلو سورة الفاتحة تلاوة مجزئة إلا في أندر الأحوال، والإخلال بالصلاة والتساهل في أدائها صار دأبهم وديدنهم! أما من يحسنها ويواظب عليها فهو أقل القليل، بل هو الغراب الأبقع والكبريت الأحمر»!!

قال «وغالب الرعايا لا يصومون، وإنْ صاموا ففي النادر من الأوقات، ولا يكمل صوم رمضان منهم إلا القليل»!!

«وكم يعدُّ العادُّ من واجبات يخلون بها، وفرائض يضيعونها، ومنكرات يواقعونها.

وما أكثر ألفاظ الكفر والارتداد التي تجري على ألسنتهم، وما أكثر استغاثتهم بغير الله، من نبي أو ولي أو صحابي أو سائر الموتى».

قال: «وهذه حال بلاد تخضع لحكم الدولة، أما الأقطار الخارجة عن أوامر الدولة ونواهيها فإنَّ الأمر فيها أشدُّ وأفظع، وربما وصلوا إلى درك بعيد أقصى البعد عن تعاليم الإسلام الظاهرة، بل إنَّ كلمة الشهادة التي هي مفتاح الإسلام لا ينطق بها الناطق منهم إلا على عوض.

أما احتكامهم إلى من يقضي بينهم بغير ما أنزل الله فقد شاع دون حياء أو إنكار، أو تحرج.

وقد أجمعوا على قطع ميراث النساء، وتعاضدوا على فعله، وأغلبهم يستحل الدماء والأموال ولا يتورع عن شيء يقدر عليه منها.

ولا ريب أن هذا كفر بالله ورسوله، بل كفر بجميع الشرائع من لدن آدم إلى الآن».

قال: «إذا كانت هذه أمور المسلمين العامة والخاصة، فانظر بعقلك، هل مثل هذه الأمة تستحق عقاب الله وحلول نقمته، أم تستحق لطفه وتوفيقه ودفع الفتن الطائحة بالأموال والأنفس»، «إنَّ الله لا يظلم مثقال ذرة».

* * *

والشوكاني وأمثاله من علماء الإسلام يعنون بمسافة الخلف بين المسلمين ودينهم، وينعون على الأمة في هدايات الله التي سيقت إليها.

وقد أبرز لنا صورة مقبضة عن إهمال المسلمين لكتابهم، وعن تحولهم إلى قبائل من الهمل انفرط عقدها فليس يمسكها نظام من أدب أو وازع من قوة.

ونضيف نحن إلى ما كتبه الشوكاني، أنَّ تخلف المسلمين الاجتماعي والخلقي في هذه الأعصار لا يعدله إلا تخلفهم في شؤون الدنيا وآفاق الحياة.

فإنَّ ضعف أخذهم بتعاليم الإسلام أخطر أثراً مما يبدو لأول وهلة.

إنَّ الإسلام لم يكن قشرة رقيقة تكسو أفئدة الأولين، ويمكن الانسلاخ منها مع بقاء كل شيء على وضعه الأصيل، كلا، لقد كانت هذه

التعاليم جزءاً من يقظتهم العقلية وفضائلهم النفسية، بل لقد كانت الروح الكامن في كل نهضة والمدد الباعث على كل تقدم.

فلما ضعفت، تخاذل ما وراءها واستحال رفاتاً هامداً بعدما كان جسداً نابضاً.

أجل! إنَّ حضارة المسلمين في فنون الحياة وأنحاء العمران، والأنصباء الجزلة التي حصلوها من المعارف الكونية والنبوغ المادي، لم تجىء إلا عقب تشبعهم بالثقافة الإسلامية وتذوقهم لما فيها من حرية وانطلاق وسماحة وإشراق.

فلما فَسَدت هذه الثقافة في أيديهم، أو لما عجزوا عن التحليق إليها والإفادة منها باؤوا بالفشل في أحوالهم جميعاً.

لا فارق هنالك بين العبادات والعادات، بين الأدبيات والماديات، بين تخطيط المجتمع بالفضائل والتقاليد النبيلة، وبين تخطيط الأرض بروائع الهندسة والعمران. . .

إنَّ الأمةَ التي أهملت قول الله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

هي التي أهملت قول الله: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

والتي أهملت قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾[المؤمنون: ٦٨]. هي التي أهملت ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[الحج: ٤٦].

ولو أنَّ أمتنا أخذت بنصف هذه النصوص وأضاعت نصفها الآخر لانتهى هذا بها إلى أن تكون ممن قيل فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[البقرة: ٨٥].

إنَّ الحضارة الكاملة لا تتم إلا باستجابةٍ كاملةٍ لهذه التعاليم كلها.

ولقد كان الأسلاف الكبار طليعةً مرموقةً بالإجلال والإعزاز في دينهم ودنياهم معاً، وكانت نظافتهم البدنية والروحية ومدنيتهم التي تجاور فيها معاشهم ومعادهم مثلاً يحتذى أو نسقاً يحتفي به المؤمن والكافر. .

وتستطيع أن تدرك المدى بين تقدم «أوروبا» الآن في النواحي المدنية

وبين تأخرنا لتعرف البونَ بين ما وصلنا إليه قديماً من ارتقاء شامل وما كانت عليه حالة العالم بالنسبة إلينا يومئذ.

قال «يوسف كوندي»[1] سيد المؤرخين الأسبان مؤبناً خروج العرب من أسبانيا ومعلقاً على ما أصاب البلاد بعد رحيلهم.

«وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد، ذلك الشعب الباسل اليقظ، الذكي المستنير، الذي أحيت صناعته النشطة أرض الأندلس، هذه الأرض التي أسلمتها كبرياء «القوط» الخاملة إلى الجدب، فلما تسلمها العرب استدر عليها الرخاء وفاض، بعد ما احتفروا لها عديد القنوات.

ذلك الشعب الذي أحاطت شجاعته العظيمة ـ في السعود والشدائد معاً ـ عرش الخلفاء بسياج من البأس، والذي أقامت عبقريته ـ بالمران والتقدم والدرس ـ صرحاً خالداً طالما انبعث ضوءه ينير أوروبا ويلقي فيها بذور الشغف بالعلم والعرفان.

هذا الشعب الذي كان روحه الشهم يطبع أعماله كلها بطابع لا نظير له من العظمة والنبل، ويسبغ عليه في نظر الخلف لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ودهاناً من البطولة الساحرة.

ظهر العرب في إسبانيا فملؤوها بنشاطهم وبراعتهم، ثم خرجوا منها حاملين أموالهم وفنونهم، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم؟ لا نستطيع أن نجيب بشيء إلا أن حزناً خالداً يغمر هذه الأرض وكانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع!.

إنَّ هناك بعض الآثار المشوهة ما زالت تشرف على هذه البقاع الموحشة، ولكن صرخة الحقيقة تدوي من أعماق هذه الآثار، ومن صميم هذه الأطلال الدارسة، تلقي في الآذان والأفئدة أنَّ الشرف والمجد العربي المغلوب، والتدهور والبأساء للإسباني الظافر».

---

(١) عن كتاب «مدنية العرب في الجاهلية والإسلام».

وكتب «لاين بول»:

«لبثت أسبانيا في أيدي المسلمين ثمانية قرون، وضوء حضارتها يبهر أوروبا إذ أزهرت بقاعها الخصبة بجهود الفاتحين الموفقة، وأنشئت المدائن العظيمة في سهول الوادي الكبير، ثم اندثر هذا كله ولم يبقَ ثمة ما يذكر بهذا المجد، سوى الأسماء فقط.

إنَّ الآداب والعلوم والفنون تقدمت بها دون سائر أقطار أوروبا.

فما اكتملت ولا أثمرت علوم الرياضة والفلك والنبات والتاريخ والفلسفة والتشريع إلا في أسبانيا العربية.

وبسقوط غرناطة ذَوَت عظمة أسبانيا وشملتها ظلمة حالكة، عفت على صناعاتها وسحقت معاهدها العامة، وحل الدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار . . ».

هكذا كنا، فإلى أين انتهينا؟.

كان الإسلام شارةَ الإيمان الحق والعبادة المخبتة، وكان شارةَ الإصلاح الشامل للدنيا، والقدرة الواسعة على الانتفاع بطيبات الحياة وقوى الطبيعة.

واليوم؟ . . إنَّ المسلمين تذكر بلادهم، حيث كانوا، إذا ذكرت الأقطار المتخلِّفة، والجماهير الفقيرة إلى ما يرفع مستواها ويصون محياها!!

وإننا إذا كنا ـ في هذا الكتاب ـ نهاجم الظلام المقبل من الغرب ونحذِّر المسلمين عقبى الانطواء في ليله، فنحن نحذِّر المسلمين إلى جانب ذلك عقبى السير مع الجهالات التي مسخت تفكيرهم وشوَّهت شريعتهم وأصابت تاريخهم بالشلل.

بل ردتهم إلى نكسةٍ دونها ما أصاب الآخرين من علل وآلام . .

إنَّ بعض الدعاة الفاشلين يفرُّون من ظلام الغرب إلى موات الشرق.

ويريدون أن يأخذوا من عصور العوج والتخبط في تاريخنا مُثُلاً يقابلون بها تيار المدنية الغربية بما احتوته من طيب وخبيث.

وعندي أن الإسلام يؤذيه هؤلاء الدعاة، وتذبل زهرته اليانعة في أيديهم الخشنة، فضلاً عن أن تيار المدنية الحديثة لن تصده هذه العوائق الباطلة.

إنما يجدي في مواجهتها:

عقلٌ يغلب الهوى...

ويقين يهزم الإلحاد..

وإدراكٌ يضم إلى فقه الآخرة فقه الدنيا، بل يعلم أنَّ الآخرة لا تُنال إلا بوسائل صحيحة، هذه الوسائل الصحيحة لا يستجمعها جهول بالحياة والأحياء..

ملحق[1]
نَحْوَ وحْدَةٍ إسْلَامِيَّةٍ كَرِيمَةٍ

(١) هذا البحث لا صلة له بموضوع الكتاب، لكن رأينا إلحاقه به لما فيه من الفائدة. وقد ظهر في الطبعة السابقة للكتاب.

نحو وحدة إسلامية كريمة

لو أنَّ كل خلاف يقع بين الناس يشبه خلاف النحاة في إعراب كلمة، أو خلاف أهل الحساب في حل مسألة لكانت الخلافات طرافة تستحق المشاهدة، أو مسلاة تثير الإعجاب والتأمل.

ذلك أن اختلاف العقول في تقويم حقيقة، أو تقدير حكم ، لا خطر منه.

سواء انتهى بحل حاسم أو بقي معلقاً إلى قيام الساعة.

إنَّما يستفحل الخلاف وتتَّسع هوته إذا علق الهوى بأحد أطرافه، وترتَّب على رجحان إحدى الكفتين نفع أو ضرر.

هنا يحتدم الصراع، ويغتلي الشقاق، ويكون ظاهره الخصومة بين رأيين.

والحقيقة أنها الخصومة بين أَثَره وأَثَرة.

وغالباً ما يضيع الحق، أو يلوَّث في حمأة هذا الشقاق.

والخلاف بين أصحاب الأديان، أو بين أهل الدين الواحد، قد يأخذ هذه السبيل الجائرة فينتهي بالفرق المتنازعة كلها إلى شر مستطير. .

لقد نشَبَ خلاف كثير بين فقهائنا، بقي الآن دون أن ينشأ منه ما يريب أو يخيف، لأنَّ وجهات النظر ـ على تباينها ـ لم ينضم إليها ما يحوِّل هذا الخلاف إلى معارك رهيبة.

بل إن بعض هذه الخلافات مات من تلقاء نفسه، لأنَّ أحداً لا يرى فائدة من إحيائه. .

أما الخلاف بين الشيعة والسنة، وهم أجزاء متكاملة في جسم الأمة

الإسلامية الكبيرة. فإنه لا يزال باقياً. برغم أن البواعث على هذا الخلاف قد تلاشت أو حورها الزمن إلى وضع لا مكان معه لغلو أو شطط.

ونحن لا نقول: امحوا هذا الخلاف.

فإنَّ وجهات النظر المتفاوتة لا سبيل إلى جمعها على كلمة سواء.

بل نقول: باعدوا بين نوازع الهوى، وبين تفاوت العقول في إدراك الحقائق، واستبانة الصواب.

إنَّ الدين ـ نصاً وروحاً ـ أبعد ما يكون من شهوة التمزيق والتشفي.

وسياسة نفر الحكام ـ في إشباع مطامعهم الخاصة ـ هي التي توجِّه الجماهير إلى التحاقد وسفك الدماء، بدل أن تصلح ذات بينهم، وتصون مصالحهم، في دنياهم وأخراهم.

وأستطيع القول: إنَّ الخلاف بين الشيعة والسنة سياسي أكثر منه ديني.

وإنَّ السياسةَ التي لا ضمير لها، هي التي ضاعفت علته، وزادت خطورته، واستبقته إلى يوم الناس هذا دون مسوِّغ من عقل، أو باعث من تقوى.

وقد ذكر المؤرخون: أنَّ الشاه «إسماعيل الصفوي» نكَّل بجماهير غفيرة من أهل السنة، نكاية في سلاطين الترك، لا حمايةً لأهل البيت، وأنه أحبَّ دعمَ ملكه الخاص، لا إقامة دين ولا حراسة حقوق.

ونضيف إلى هذا الشاهد أنَّ من سلاطين الترك من طعن الإسلام وأهله، وأنَّ من ملوك النصرانية من خان تعاليمها وخان أهلها، لا لشيء إلا للجري وراء مغانم سياسية ومطامع هوجاء.

وذكر (الكواكبي) في كتابه «أم القرى» أنَّ سلاطين آل عثمان كانوا يضحون بالدين في سبيل إدراك كسب سياسي، يزيد من نفوذهم ويؤيد ملكهم، وهذا حق.

فقد كان السلطان «سليم الأول» يستطيع أن يسدي للمسلمين يداً جُلّى[1] وأن يبقي علَمَ الإسلام مرفوعاً على ربوع الأندلس إلى اليوم، لو أنه وجَّه نشاطه إلى إمداد بني الأحمر بالمال والرجال وأعان على إبقاء دولتهم تقاتل عدوها، وترد سيل الصليبية الطافح عن اجتياح حدودها.

لكن السلطان المولع بالفتح والتوسُّع، أغار على مصر وساق جيوشه لإسقاط حكومتها، وأشبع شهوته في جعلها إمارة ملحقة بملكه العريض.

ذلك كله في الوقت الذي يتمكن فيه الأسبان من سحق المقاومة الإسلامية في الأندلس، ثم يبدؤون عملهم الهائل في طرد وتنصير خمسة ملايين مسلم.

أين ذهبت عصبية الإسلام وأخوته؟

إنها ذابت في حريق الأثرة، ونزوات الحكام.

إنَّ السياسة لا دين لها ولا خلق في كثير من الأحيان.

ونحب أن نسائل كل ذي رأي من المسلمين: ما معنى أن تنقسم أمتنا لذكريات تاريخية، دفنت في الماضي البعيد؟

ما معنى أن نستصحب مآسي الأمس الذاهب في تفريج أزماتنا الخانقة؟

إنها ذكريات تخصُّ أصحابها، والأمر فيها لا يعدو قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤١].

لا أعرف أمة في عصرنا هذا، تجترُّ ذكرياتها المؤسفة لتعكر حاضرها ومستقبلها كما أعرفه في قومنا الذين لا يزالون منقسمين إلى شيعة وإلى سنيين!

علينا أن نسرع لإزالة الفجوة القائمة الآن بين الفريقين. وأن يتعرَّف كلٌّ

---

(١) عظيمة.

منّا الآخر في جوٍّ بعيد عن التوجُّس والتناكر وسوء الظن . .

إنَّ كثيراً من أهل العلم في الأزهر الشريف تكوَّنت لديهم صورة عن الشيعة نسجتها الإشاعات والفروض المدخولة .

وهذا منهج في التفكير لا يقرُّه الإسلام ، ولا تنصف به الحقيقة المجرَّدة .

وقد تكون لدى الشيعة الطريقة نفسها ، في تعرف إخوانهم من أهل السنة والحكم على مشاعرهم وآرائهم ، وهذا الفراغ الموحش لا يلد إلا الغلظة والمخاشنة .

لماذا لا يدرَّس في الأزهر «فقه الزيدية» مثلاً مع فقه المذاهب الأربعة؟ .

لماذا لا توضع أمام الطلاَّب في الصفوف العليا أو الدنيا صورة صادقة لتفكير «الإمامية» في الأصول والفروع والسنن المختلفة؟

لماذا لا تقاس مسافة الخلف حيناً بعد حين ، بين ما نرى وما يرى غيرنا؟

إنَّ الزمن يجري ويلد العجائب ، ونحن لا نزال في موقفنا من ثقافة قرون انتهت بما لها وما عليها . .

الحق أنَّ في مواريثنا العقلية ما يستدعي التأمُّل .

فنحن كبعض الأُسر التي يرث الأحفاد فيها تراثَ الأجداد ، فتُكلَّف الأجيال الجديدة أن تخاصم ـ دون وعي أو عدالة ـ من لم يسىء إليها قط .

لتكن الخطوة الأولى من جانب الأزهر .

وأنا موقن أنه إذا مدّ يده للشيعة فإنَّ أكثر عوامل الوقيعة سوف تذوب من تلقاء نفسها ، كما تذوب كتل الجليد تحت أشعة الشمس .

وإنَّما أطالب علماء الأزهر ـ وهم رؤساء أهل السنة وكهف الجماعة الكبرى ـ إحساناً للظن بهم ، لأنهم أمسُّ من أعرف ، وأدنى من أنادي .

وشرعة المعروف تجعل أولى الفريقين بالله أسرعهما لداعي الخير ،

وأرغبهما في إصلاح ذات البين.

* * *

إنَّ هناك عللاً تستوجب التلطُّف في العلاج، والاحتيال في سَوْق الدواء إلى المريض.

وقد يكون من حسن الدواء ألا نصارحه باسم الداء الذي يخامره.

فربما أودت الصراحة بحياته، فقتلناه من حيث أردنا نجاته..

وقد سمعت وأنا في نجد، من يرى المصريين مشركين لأنهم يعبدون السيدة زينب والإمام الحسين رضي الله عنهما!!..

وسمعت في مصر من يرى الفرس كفَّاراً لأنهم يلعنون الشيخين الجليلين: أبا بكر وعمر رضي الله عنهما!!..

ولو ذهبت أستقصي قالة السوء التي يتقاذف الناس بها لأعياني العد.

فهل هذه وسيلة معقولة أو مقبولة، لإنهاض أمةٍ ركعت أمام أعدائها وقُطِّعت أوصالها في المشارق والمغارب؟

لقد قلت لتلاميذ الإمام «محمدبن عبد الوهاب»: إنَّ جمع الناس على التوحيد لا يتمُّ بهذه القسوة.

ومن الممكن إرشاد الجهلة إلى تصحيح علاقاتهم بالصالحين المقبورين في أسلوب يُيسِّر انقيادهم للحق، ويقوِّي صلتهم بالله وحده، ويُحسنُ عملهم للإسلام الصحيح.

وفي الوقت نفسه يُبقي عواطف الأخوة والتناصر بين أهل مصر وأهل نجد جميعاً!!

وأمة الإسلام في حالتها العصيبة الراهنة، أفقر أمم الأرض إلى هذه العواطف الناضبة..

وكذلك الشأن مع مائة مليون يعتنقون مذهب الشيعة، إنني قد أُخطِّىء من يرى علياً أحق بالخلافة من أبي بكر، ولكنِّي لا أكفِّره، ولا أحب أن أهيجه ليزداد جِماحاً.

إنَّ الغلط في تقدير أحد الرجلين يدخل في حساب وزن المواهب والفضائل لعباد الله، ولا يدخل في أركان الإسلام.

وقد ظل المسلمون يختلفون في تمييز زعمائهم، وشرح حق كل منهم في الانفراد بالحكم.. إلى أن سقطوا جميعاً وأمسوا يحكمهم «الخواجات».

فهل الكلام في هذه الموضوعات إلا ضرب من الخيال؟

إنني أعيد النظر أحياناً في خلافاتنا القديمة فيخيَّل إليَّ أنَّ شَهوةَ الانقسام قد تسبق رغبة البحث والدراسة، وأنَّ رذائل الفراغ والترف العقلي، هي التي تخلق موضوع الحديث، وتشعِّب اتجاهه، مثل ما يفعل قعدة المجالس العاطلون في بعض الأندية السامرة.

اتفق علماؤنا على أنَّ إثابة المطيع وتعذيب العاصي واجبان شرعيان.

والوقوف عند هذا الحد مفهوم.

ولكنهم أبوا إلا أن يختلفوا: هل ذلك واجب عقلي أم جائز عقلي؟.

أهل السنة فرقة، والمعتزلة فرقة. لكل منهم مذهب؟

ما قيمة هذا الخلاف؟ وما نتيجته العملية في الدنيا والآخرة؟ لا شيء.

اختلف «الحسن البصري» و«واصل بن عطاء» في فاعل الكبيرة هل يُخلَّد في النار أم لا؟ لكل مذهب؟

ولم يكن على الحاكم الأموي يومئذٍ من حرجٍ أن يدع هذا الجدل يمتد وينشغل العامة بالخوض فيه!!

أما «عمر بن الخطاب» فقد ضَرَب «أبا هريرة» بدرته، لأنه حدث العامة بما رأى أمير المؤمنين أنه يعوقهم عن الإنتاج والعمل الدائب.

مع أنَّ حديث «أبا هريرة» كان أدنى إلى الرشد من جدل واصل مع أستاذه الحسن.

إنَّ الذين يختلقون أسبابَ الخلاف ثم يهيجون ريحها في صفوف هذه الأمة لا يدرون أي شرٍّ يصنعون، ولا إلى أي مدى يذهبون؟؟.

ولولا أنَّ الله قيَّضَ للمسلمين في العصر الأخير من كَرِهَ فرقتهم، ونظر إلى عللها فوجدها تافهة، لما انتهى هذا الخلاف دون فنائهم جميعاً وضياع دينهم.

حدث في المؤتمر الذي عقد في جامعة «برينستون» بأمريكا أن أثار أحد المتحدثين سؤالاً، كثيراً ما يثار في أوساط المستشرقين والمهتمين بالنواحي الإسلامية.

قال: «بأيِّ التعاليم يتقدَّم المسلمون إلى العالم، ليحدِّدوا الإسلام الذي يدعون إليه؟.

أبتعاليم الإسلام كما يفهمها السنيون، أم بالتعاليم التي يفهمها الشيعة من إمامية أو زيدية؟.

ثم إن كلاً من هؤلاء وأولئك مختلفون فيما بينهم.

وقد يفكر فريق منهم في مسألة ما تفكيراً تقدمياً مجدداً.

بينما يفكر آخرون تفكيراً قديماً متزمّتاً.

والخلاصة أنَّ الداعين إلى الإسلام يتركون المدعوين إليه في حيرة، لأنهم في حيرة»!!.

وقد كان من حسن الحظ أن وُجِدَ في هذا المؤتمر بعض العارفين بفكرة التقريب بين المسلمين، فأوضح أنَّ الطوائف الإسلامية (من سنية وشيعية، إمامية وزيدية) متفقون في الأصول التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها.

وهم ـ بعد ذلك ـ متفقون أيضاً في كثير من الفروع مختلفون في غيرها.

والخلاف في الفروع ما هو إلا كاختلاف الشُّرَّاح في القوانين، مع اتفاقهم على الأصول الرئيسية لها.

ولو أنَّ المسلمين دعوا إلى دين، كلهم فيه على كلمة سواء في الأصول والفروع لما كانوا بذلك مصورين للإسلام تصويراً صحيحاً، ولما وجدوا مستجيباً لدعوتهم.

فإنَّ الإسلام قسمان: أصول ثابتة لا يجوز الخروج عنها.

وفروعٌ جعلها الله ـ رحمة منه بعباده ـ موضع الاجتهاد والنظر.

فكما أنه لا يسوغ المسلمين أن يجتهدوا في الأولى، لا يسوغ لهم كذلك أن يحجِّروا ما وسَّعه الله في الأخرى.

وهذا تحديد جيد للإسلام.

* * *

ولعلمائنا في هذه الأيام آراء ومشاعر متناقضة بإزاء أمور لها حكم واحد.

كنت أمرُّ قريباً من ميدان المحطة فرأيت تمثال فرعون مصر «رمسيس الثاني» ينهمك النحَّاتون والنقَّاشون في إبراز معالمه وإرساء دعائمه.

وكان يرافقني مدرِّس بالأزهر، نظر إلى هذا العمل نظرة إنكار وألم.

فقلت له: إنني أوافقك على أنَّ إقامة الأصنام مخالفة لسنة الإسلام.

لكن بم نجيب إذا قيل: إنكم معشر الأزهريين رضيتم ضرب القباب على القبور، وبنيتم فوقها المساجد. وتلك أيضاً تخالف سنَّة الإسلام؟..

إنَّ النظائر المتشابهة تقتضي مواقف متشابهة.

لكن المدهش أن نسكت.. أو نحتج.. أو نتحد.. أو ننقسم، لبواعث مبهمة قلَّما تخضع لحسٍّ دقيق بما يرضي الله ويوائم هداه.

* * *

في المؤتمر الذي انعقد أخيراً بالإسكندرية ـ للتقريب بين المسلمين والنصارى ـ حاول أولو النُّهى والحلم من أبناء الدينين أن يضعوا أسساً أفضل للعلاقة بينهما، وأن يجعلوا المستقبل أدنىٰ للتفاهم والموادة بعد ماضٍ أثقلته الخصومة وسودته الإحن . .

ولسنا بإزاء سَرْد لما في هذا المؤتمر، ولا تعليق على البواعث التي أدَّت إلى عقده، أو النتائج المرتقبة من مواصلته. فلهذا مكان آخر.

لكني أذكر أنَّ إيثارَ السلام العادل الشريف بين الديانتين وأتباعهما سيطر على جُلِّ الأعضاء أو عليهم كلهم فيما رأيت[1] . .

وأن هذا الإيثار تجاوب مع مشاعري الخاصة، فأنا شغوف بحياة الصفاء والحب، وودت لو أنَّ البشر قاطبة وسعتهم أكناف السماحة والرحمة، وأوسعتهم حدود القسط والحق، فإن فاتهم الفضل لم يفتهم العدل. .

غير أنَّ دنيانا المشحونة بالأهواء الخفية والجلية تتأبىٰ على هذه الضوابط، مرنة كانت أو دقيقة.

وأشدُّ ما يكون الإنسان تشبُّثاً بهواه عندما يكمن هذا الهوىٰ في أطواء مطلب صحيح، أو عندما يختفي وراء غايةٍ سليمة.

عندئذٍ يصرخ الإنسان بالحق وفي جؤاره مآرب أخرى. . !!

وآية التجرُّد لله أن تتمحص الطريق من كل شائبة، وأن تخلص الغاية عن كل دسٍّ، وأن يكدح المجاهد لا لشيء إلا لتكون كلمة الله هي العليا.

وأما حساب نفسه ورغائبه فأمرٌ مذهول عنه. .

ولست أزعم أنَّ تاريخ المسلمين الطويل ـ في عرض دعوتهم ـ لزم هذه الصبغة النبيلة، ولا سياستهم اتبعت دائماً هذا الصراط المستقيم.

---

(١) في كتابنا «كفاح دين» تفصيل لما وقع في هذا المؤتمر.

خصوصاً أيام الأتراك.

كذلك لا أزعم أنَّ النصارى خلال عصورهم الغابرة أو الحاضرة تركوا الطرق معبدة لمعارضيهم.

لقد ردوا أيديهم في أفواههم، وأزعجوا الناس حتى لا تسمع منهم ولا تؤمن بهم. فلما عجزوا لجؤوا إلى ترويج الإفك وتنقيله من بلد إلى بلد.

. . . أكثر المفتريات ـ التي تسود الآن أوروبا وأمريكا ـ ضد الإسلام ونبيه وتعاليمه من صنع هؤلاء المتعصبين.

فإذا وجدنا عند بعض الناس سآمة من بقاء تلك المظالم ورغبة في تبادل الفهم والعون على سياسة من الاحترام المتبادل. فذلك ما كنا نبغي.

ولا جَرَمَ أن نرُدَّ التحيَّة بأحسن منها. .

ولأذكر بعض ما جاء في الكلمة التي ألقيتها نيابةً عن وزير الأوقاف تمهيداً لهذا المسلك الكريم وسعياً في إنجاحه:

«إنَّ هناك أصولاً مشتركة بين رسالات الله ـ حبذا لو تواصىٰ الناس باتباعها ـ وتعاون أهل الأديان على إحيائها. .

* منها الإيمان بالله وحده. والإقرار بعظمته وعلمه وقدرته. .

* ومنها الإيمان بالبعث والجزاء ـ والإحساس بأنَّ وراء هذه الدنيا داراً أخرى يثاب فيه الأبرار ويهان الفجار.

* ومنها الإيمان بالفضائل النفسية والاجتماعية. وضرورة التكمل والتنائي عن الدنايا. فإنَّ أبواب السماء لا تفتَّح لمتكبر كذاب.

* ومنها الإيمان بحقوق الإنسان. فلا يضام شخص ما في دمه أو عرضه أو ماله. وتعرف لهذه الحقوق قداستها فتقرر في الدساتير والقوانين والعلاقات الدولية.

* ومنها تقرير الأخوة العامة بين أبناء آدم. فلا يستضعف أحد للونه أو جنسه.

* تلك أهداف يكلِّفنا الإسلام بالسعي إليها..

فلو تعاونا مع غيرنا لبلوغها لكان ذلك أحب إلينا وأخصر لمتاعبنا»!!

ولقد انفضَّ المؤتمر على أن يستأنف جلساته في المستقبل.

وإنا لنتمنى أن تواتيه الحظوظ الطيبة فيفلح في الاقتراب من هذه الأهداف!!.

* * *

وفي طريق العودة ألحَّ عليَّ خاطر محرج، لم أجد بداً من الإصاخة إليه والتمشي معه.

قال لي: إنكم وضعتم المنهج للتقريب بين المسلمين والنصارى، ولم تجدوا عسراً في وضعه!!

فهل لا يزال التقريب بين المسلمين والمسلمين عسراً؟

والحق أن المسلم يحسُّ باستحياء وهو يرى أهله الذين تجري في عروقهم دماء عقيدة واحدة قد مزقتهم الليالي الكوالح.

فإذا هم متناكرون مستوحشون، لا إيلاف بينهم ولا إيناس...

وتبحث عن علة محترمة لهذه الفرقة السحيقة فلا تجد.

اللهم إلا ما يرثه الأولاد أحياناً عن آبائهم من أمراض خبيثة، يحملون آلامها ولا يعلمون مأتاها.

وقد تنازع آباؤنا ـ عفا الله عنهم ـ وطال هذا التنازع على أمور بعضها تافه وبعضها هام، بعضها في شؤون الدين وبعضها في شؤون الدنيا.

وبدأ هذا النزاع، كما يبدأ أي داء، هيناً لا يُخشى خطره ولا تُدرى مغبته.

واليوم يكتب أمام المسلم في لبنان أنه «سني» أو «شيعي» بوصف أن السنية طائفة تغاير الشيعة، وأنَّ الصلة بين الفريقين كالصلة بين أحدهما وبين المارون أو الدروز!! . .

وبهذا الاعتبار عُدَّ النصارى في لبنان أكبر الطوائف، وجعل منهم رئيس الدولة، مع أنَّ المسلمين أكبر عدداً وأربى نسبة.

ولكن المسلمين ـ كما أسلفنا ـ طائفتان متناكرتان، تفصل بينهما المسافة نفسها التي تفصل بين أتباع دين ودين آخر!!

هل رأيت أوغل في الحمق من هذا المسلك؟

وعلامَ هذه الفروق بين قوم يؤمنون جميعاً بالكتاب الكريم ويحترمون جميعاً سنة رسوله؟.

وهَبْ أنظارهم تفاوتت في تقديم شخص أو تأخيره.

أو هَبْ آراءهم اضطربت في تصحيح حديث ورد، أو إبقاء حكم نُسخ.

أيكون ذلك مثارَ قطيعة باتة، وبينونة كبرى، وجفاء يفلق الجسم الكبير شطرين؟؟.

إنَّ الخلاف عندما يكون نظرياً بحتاً لا ينشأ عنه ضرر مهما اتَّسعت شقته.

فإذا انضم إلى وجهة النظر مزاج حاد، أو هوى خفي، أو نفع متوقع، أخذ الخلاف طريقاً ليس من طبيعته كبحث، بل من طبيعة ما انضاف إليه من شهوة أو جهالة. ومن هنا يجيء الخطر. . !!

روي أن مصلياً ممن يذهبون إلى تسكين الأصابع في أثناء التشهد مال على زميل له كان يحرك أصبعه فكسرها!!

أتظن طبيعة البحث الفقهي هي التي أزَّت على ارتكاب هذه الجريمة؟

ما أشكُّ أنَّ هذا الجاني مصابٌ في عقله أو في خلقه.

أو أنَّ هناك شخصية فاجرة حملته على ارتكاب ما ارتكب.

ولو تجرَّد كل ذي رأي من الإضافات النفسية والدنيوية التي تنضم إلى الخلاف العلمي لأصبح الخلاف مسلاة لا مأساة، ومطرحاً لتفاوت الأفهام لا مسرحاً لتهارش الأهواء..

* * *

وعندي أنَّ جُلَّ ضروب الخلاف التي شعَّبت أمتنا ترجع إلى ضعف الخلق وحب الدنيا أكثر مما ترجع إلى قوة العقل وحب الله.

فسوء الظن بالآخرين، وتشهِّي الغلب عليهم، وتضخيم الهفوات التي تقع منم، وتوليد آراء رديئة لم يقولوا بها من الآراء التي يذهبون إليها، وتمني بقائهم على الخطأ، والغفلة عما يعقبه الانقسام الطفيف من مضاعفات جسيمة يجب تلافيها، أو معرفة ذلك والذهاب مع العناد إلى نهاية الشوط.. هذه جميعاً رذائل إذا تفَشَّت في جماعة فلن تقوم لها رسالة، ولن ينجح لها قصد، ولن يتماسك لها كيان..

اتُّهِم الشافعي أو غيره بحب آل البيت ونسب متهموه إليه ـ بناءً على ذلك ـ أن ينكر إمامة الشيخين بعد رسول الله. لم هذا التوليد؟ والتظنن؟ فكانت إجابة الرجل على ذلك أن قال:

يا راكبا بالمحصّب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض!
إنْ كان رفضاً حبُّ آل محمَّد ... فليشهد الثقلان أني رافضي!

وذكر أهل السنة فهمهم لمعنى الاستواء على العرش، فكان تعليق الزمخشري على ذلك قوله:

لجماعة سموا هواهم سنة ... وجماعة حُمُر لعمري موكفة

هل الشتم على هذا النحو من شُعَب الإيمان؟ أو من دلائل الصلاح؟

ربما كان التراشق بالتهم على عهد القوة الإسلامية خفيف الأثر.

وقد سمعنا أن مستر «تشرشل» أخرج لسانه يوماً ـ وهو زعيم المعارضة لرئيس الحكومة ـ كما يفعل التلميذ الشقي مع صاحبه!.

ولهذا المجون موضعه العابث بين قوم انتصروا في حربين، ومشوا بأقدامهم على جثث خصومهم، فهم يتضاحكون أو يتلامزون بعدما دانت الدنيا لهم!

وقد انفرد المسلمون بالسطوة في العالم أجمع دهراً طويلاً، ربما كان تلامزهم فيه ضرباً من العبث الذي وقع له نظير من «تشرشل» الاستعماري الداهية.

أما اليوم بعدما سقطنا بقضنا وقضيضنا في الرغام، وانسابت الذئاب بين صفوفنا تفترس وتغتال فما هو موضع التلامز والتدابر؟

وقديماً تناحر الشيعة والسنة على الحكم، لمن يكون؟

وها هو ذا قد صار في يد «الخواجة»، ولم يخلص لفريق منهما..!!

وتعصبوا تعصُّباً دامياً لبعض الأحكام الفقهية.

فها هي ذي الأحكام قد صارت بغير ما أنزل الله في الأصول وفي الفروع جميعاً..!! فهلاَّ وعينا شؤمَ الخلاف بعد هذه النتائج المخزية؟.

إنَّ الكُتَّاب الذين لا يكترثون لجمع كلمة المسلمين، أو الذين يرسلون مقالاتهم على عواهنها تثير الحفائظ، وتحرِّك السخائم. يرتكبون في حق دينهم جرماً هائلاً.

وإنَّ تجرّع خطأ ـ صغر أو كبر ـ اتّقاء خطيئةٍ ثقيلة أصبح لا مفر منه!.

والخيْبة لقوم لا يفيدون من تاريخهم عبرة.

والخيبةُ الأشد لمن يدرسون تاريخهم لينقلوا منه الأحجار كي يعوقوا بها مستقبل أمتهم.

* * *

قال الدكتور زكي مبارك:

«وإذا كان في الأحاديث النبوية ما ينذر بأنَّ اللسان قد يهوي بصاحبه في النار سبعين خريفاً فنحن نؤكِّد أنَّ القلم قد يهوي بصاحبه في النار سبعمائة ألف خريف.

والقلم في هذا الزمان أخطر الآفات، وعلى حَمَلة الأقلام أكبر الإثم في خلق الضغائن والحقود بين الأفراد والجماعات والشعوب، وهم المسؤولون أمام الله وأمام التاريخ عن تكدير السلام وسَوق الناس إلى المجازر البشرية.

وكُتَّاب السياسة لا تروج أسواقهم إلا إن عرفوا بالقدرة والبراعة في تصوير مقاتل الحكومات والأحزاب، والجريدة التي تؤثر العقل على الهوى يتلقاها الناس بفتور وعدم اكتراث، لأنَّ في بني آدم حيوانيةً مقهورة تطلب الغذاء من الأقاويل والأراجيف، ولذلك يصفقون لمن يجترح المآثم باسم الغيرة على عمار الكون، مع أنهم يعرفون أنَّ بيته خراب. . !!!

وسيأتي يوم تعتدل فيه الموازين الذوقية والأدبية والاجتماعية والسياسية، فيعرف من لم يكن يعرف أنَّ الظالم السياسي كان يتلوَّن بألوان الشهوات والأهواء.

وأن من أقطاب السياسة الدولية من يضرب الأمم بعضها ببعض في خطبة أو مقالة وهو معقول بعقال الشراب».

قد تقول: إنَّ من الجور نسبة كل خلاف إلى سوء النية وضعف الخلق.

فكثير من المختلفين يبغي من مذهبه إصابة الحق ومثوبة الله، وهو يحب ويبغض على ضوء ما يتكشف له وحده من خطأ وصواب.

ونقول: إنَّ طبيعة الاختلاف وطبيعة السلوك الذي يعقبه هي التي تحكم على المختلفين، وتبني قربهم أو بعدهم من حقيقة الإسلام.

إنَّ الله عز وجل شرع أركان الدين. ووكل لأنبيائه أن يشرحوها ويأخذوا الناس بها.

ونهاهم أن يختلفوا عليها حتى لايطمس الخلاف معالمها ويصرف الأمم عن أتباعها.

فوصاهم بهاتين الكلمتين ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] أي أنَّ التجمُّع على الحق يعدل الاهتداء إليه. وكلاهما كهف الدعوة وضمان نجاحها في الحياة.

فإنَّ أعداءها لا يَدَّعون ما لديهم ويدخلون فيها إلا بصعوبة وتكلف.

ولذلك قال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فإذا كَبُر على المشركين قَبول الدعوة فإنَّ تلك الدعوة لن تجد طريقها من نفوسهم وصفوفهم إلا إذا صانت الوحدة أطرافها وركزت قواها وسناها. !

ومن هنا قال الله عز وجل للمسلمين: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٥]

واستئصالاً لجراثيم الفرقة حارب الإسلام مظاهرَ الشذوذ، وشدَّد النكير على أصحابها وبلغ منها حداً يثير الدهشة..

فهذا مُصَلٍّ ذهب إلى المسجد قياماً بحق الله، ووقف في الصف ليركع ويسجد ابتغاء مرضاته.

لكنه مذهولٌ عما حوله محصور في حدود أفكاره ومشاعره الخاصة، فهو يتحرَّك من تلقاء نفسه غير مرتبط بالنداء الذي يضبط نظام الجماعة.

هذا المصلي الخارج على صورة التجمع لا يشفع له أنه في عبادة ولا يُقبل في شذوذه عذر! وبمَ يوصف عمله؟ إنَّ انفلاته من قَيْد الجماعة يشير إلى بقايا حيوانية فيه، ورفضه الانقياد في الركوع والرفع منه، وإيثاره متابعة هواه الخاص، يدلان على نفس تستمرىء الفوضى وتستسيغ الشَّغَب، فهي في

المسجد أو في المجتمع العام محذورة النزوات.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «الذي يخفض ويرفع قبل الإمام إنما ناصيته بيد شيطان».

نعم هي بيد شيطان، وإن كان صاحبها يصفُّ قدميه في عبادة.

فإنَّ قيمة الطاعة ليست في صورة الجسد الحاني.

وإنما هي قبل كل شيء في حقيقة القلب المنيب، وفي النفس المتوجهة إلى الله ترجو رضاه وتخشى غضبه.

وما أقلَّ المصلين الذين يتعلمون من صلاتهم الحفاظ على كرامة رسالتهم وجماعتهم، والإبقاء على كيان دينهم وأمتهم.

فلا تستغربن أن يذهبَ رسول الله ﷺ في تعنيف الشاذين ومثيري الفوضى إلى حدِّ قوله: «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوِّل الله رأسه رأس كلب».

وفي رواية أخرى «أما يخشى أحدٌ إذا رفع رأسه من ركوع أو سجود قبل الإمام أن يجعل رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار»!!

إنَّ هذه الحملة النبوية ليست على غلطة رجل في موقفه، بل هي على بلادة رجل في تصرفه بلادة يبست في نفسه حتى إنَّ روح الجماعة لم تستطع إذابتها.

وهذا التحجر الخلقي في بعض الأفراد مصيبة اجتماعية لاتهادن ولا يعترف بها مصلح.

وذاك سرُّ الترهيب الوارد في السنة..

إنَّ المحافظة على روح الجماعة وصورتها قربة عظيمة،

وفي سبيلها لا حَرَج من التضحية ببعض التعاليم!

ولينظر المسلمون إلى ما روي في الصحيح أنَّ فريضة القيام في الصلاة

تسقط عن المأموم إذا صلّى الإمامُ قاعداً، قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتمَّ به، فلا تختلفوا عليه! فإذا كبّر فكبروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى قاعداً صلوا قعوداً أجمعون»[١].

فمنعاً للاختلاف أسقط ركن القيام عن المقتدين، وهم أصحاء قادرون على الإتيان به.

ذلك أن مَحوَ شاراتِ الفرقة أدنى إلى مرضاة الله من رعاية أوامر أخرى. كذلك هدي رسول الله..!!

وإذا كنا سداً للذريعة نقبل الضرر الخفيف اتقاءَ ضررٍ أشد، فإن المحافظة على وحدة الأمة فريضة عليا تُطوى في سبيل تأمينها أمور كثيرة.

ولأضرب أمثلة تحدِّد المراد..

إن اختلافَ العقول في فهم نص ما، أو تصحيح أثرٍ ما لا حرج فيه، ولا قيد عليه، ما دام في حدود القواعد العلمية المحترمة. على أنَّ هذا الخلاف يجب أن يُطوى طَيّاً في الحياة العلمية، فلا يتجاوز قاعات البحث وفصول الدراسة.

فإذا اضطربت أقوال الأئمة: أهناك قنوت في صلاة الفجر أم لا، وما مكانه إن صحَّ وجوده؟؟ فليختلفوا في ذلك ما شاؤوا وليقتنع كل بما يرى.

لكن عند الذهاب إلى المسجد وإقام الصلاة لا يجوز أن تظهر فيه إلا صورة واحدة يُقبل الجميع عليها وينسون آراءهم بإزائها مهما كانت في نظرهم صحيحة.

فإن صحتها لن تبلغ مبلغَ ركن القيام الذي أهدر حتى تسودَ روح الجماعة وصورتها في بيوت الله.

---

(١) كذلك يرى بعض العلماء، وأغلب الفقهاء يرى أنَّ ركن القيام باقٍ على المقتدين الأصحاء.

وليس المهم أن يسود الرأي الراجح قدر ما يهمنا التقاء الجمهور عند رأي ما.

فكما أنَّ حكم القاضي يرفع الخلاف فكذلك فعل الإمام يجب أن يرفعه. ولا ينبغي الشَّغَب عليه من أي معارض.

وطالبُ الثواب إنْ كان مجتهداً أو مقلِّداً يجب أن يعلم بأن ثواب الله على تجميع الشمل، وصيانة الأمة أربى عنده وأرجى من التعصب لمذهب ما.

وقد روي أنَّ ابن مسعود نقد إتمام عثمان للصلاة أيام منى وذكر أن ذلك مخالف لسنة رسول الله والشيخين بعده. فقد كانوا يقصرون صلاتهم، ويتابعهم الحجيج في ذلك.

واحتجَّ عثمان بأنَّ الموسم يحضره جماهير الأعراب الذين يحتاجون إلى معرفة دينهم، فلو قَصَر بهم لظنوا الصلاة كذلك أبداً.

ورفض ابن مسعود هذه الحجة.

ومع ذلك فقد أتمَّ الصلاةَ وراء عثمان كراهيةً للخلاف..!!

وضاق أبو قتادة من مسلك خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة وزوجته، فانسحب من الجيش عائداً إلى المدينة ليشكو قائده إلى الخليفة الأول أبي بكر.

فأمره أبو بكر أن يلحق بالجيش، وأن ينتظم مع سائر الجند تحت إمرة خالد!.

فإذا رابَه أمرٌ أبلغ عنه وهو في نطاق المعسكر المتماسك.

وتلك هي سياسة الجيوش في الأمم قاطبة..

وحكوا أنَّ الشافعي لما ذهب إلى العراق لم يقْنُت في الفجر- على خلاف ما يرى - بل قنت في الوتر، احتراماً لرأي أبي حنيفة.

وهذا هو أدب الإسلام، يعرفه حق المعرفة إمامٌ جليل نبيل كالشافعي..

فهل عَرَف التلامذة والمقلِّدون هذا؟.

كلا، لقد قسموا الأمة الواحدة أمماً شتى. وأمسى المؤلِّف في كثير من العلوم يقول عن نفسه: فلان المالكي مذهباً، الأشعري عقيدة، الخلوتي طريقة، الشامي نسبة.

وذهب الحَمَق بأصحابه إلى أن يقيموا في المسجد الواحد في الوقت الواحد عدة جماعات تمثل المذاهب الأربعة.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب:

«. . وقد اتخذ هذا اللون من الاعتزاز المذهبي طريقه المرسوم له من إقامة الحواجز بين جماعات المسلمين. فامتد إلى المساجد وجعل منها صوراً مقابلة لهذه الفرقة. . فكان بعض المساجد مقصوراً على جماعة مذهب معيّن. يدرس فيه فقه هذا المذهب، ويقصده المنتمون إليه، كما كان بعضها الآخر مقسماً إلى أقسام أربعة تسعُ المذاهب جميعاً، فهذا ركن الشافعية، وذاك ركن الحنفية، وهكذا، وفي كل ركن فقهاء المذهب، وأتباعه يتدارسون ويؤدون الصلاة على الوجه الذي قرره مذهبهم دون أن تعطفهم عاطفة الإسلام على الانضواء إلى الجماعات الأخرى حتى في أوقات الصلاة.

هذه صورة لا نشهدها اليوم كثيراً في مساجدنا، ولكنها لاتزال قائمة في بعض الأقطار الإسلامية الأخرى، لا يزال في مصر للأسف مساجد وزوايا مقصورة على بعض أصحاب المذاهب والطرق.

وأظن أنَّ هذا التفرق بعيدٌ غاية البعد عن الإسلام وروح الإسلام، وأنَّ الصميم من رسالة هذا الدين إنما هو التجميع والتأليف. . وربط الناس برباط واحد وإقامتهم على طريق مستقيم.

. . ثم إن هناك صوراً واضحة لا تزال تشير إلى أنَّ الخلاف واقع بين المسلمين، صوراً مادية يراها رأي العين المسلم وغير المسلم، فيدرك لأول نظرة أن المسلمين شيع وطوائف، وأنهم على حالهم تلك لايمثلون روح

الإسلام، فإنَّ من شأن الدين أن يخلق بين أتباعه جواً خالصاً من الوفاق والوحدة في الظاهر والباطن جميعاً.

انظر إلى المسلمين وهم يقفون بين يدي الله في الصلاة.. ماذا ترى؟ لا يحتاج الأمر إلى معاودة النظر أو إعمال الفكر لتقع على الخلل والاضطراب في هذه الجماعة القائمة بين يدي الله.. فهذا يقف في الجماعة مرسلاً يديه إلى جانبه إرسالاً.. لأنه مالكي، ولأنَّ مذهب مالك يقول بهذا الوضع في الصلاة، وثانٍ يضع يديه ممسكاً بهما تحت سرته لأنه حنفي ولأنَّ مذهب أبي حنيفة يأخذ بهذه الصورة، وثالثٌ يضع يديه ممسكاً بهما إلى صدره لأنه شافعي.. وهكذا..

وقد يقول قائل: وما المنكر من أمر هذه الأوضاع التي يتخذها المصلون من إرسال الأيدي أو إمساكها؟ وقد ثَبَت أنَّ الرسول ﷺ كان يرسل يديه في الصلاة، كما يمسكها فوق الصدر أو تحت السُّرة أو على الجانب الأيسر من الصَّدر مما يلي القلب.. فهذه كلها صُورٌ نقلت بالإسناد الصحيح عن رسول الله، وأن أئمة المذاهب قد أخذوا بما ثبت لديهم من صحيح السنة. فما المنكر أن يأخذ بها المسلمون؟ ونقول:

إنَّ المسلمين الذين كانوا يصلون خلف الرسول الكريم، كانوا يأخذون الوضعَ الذي يكون عليه نبيهم وإمامهم، دون أن يخرج عليه خارج ولو بوضع كان الرسول ﷺ قد فعله من قبله، وإنَّ هذه كانت سبيل المسلمين في جميع الأمصار إلى أن ظهرت المذاهب وتمايزت بأنصارها وأتباعها..

إنَّ أصحاب المذاهب قد استبدَّ بهم الخلاف فأغراهم بالمخالفة التي لا تجرُّ نفعاً، ولا تثمر إلا فرقةً وانقساماً. وإن كان لهذا الخلاف مستَنَد من الحق، ودليل من الواقع.. وماذا لو قال صاحب كل مذهب بهذه الصور جميعاً وكلها حق؟ بل ماذا لو أجمع أصحاب المذاهب على صورة واحدة وهي الحق لا شك

فيه؟ إذن لاستقام المسلمون على صورة واحدة في الصلاة، ولخلت صفوفهم من هذا الاضطراب، ولأخذتهم العين مأخذ الجلال والروعة في هذا المقام الرائع المشهود، ولكنه التعصب للمذهب الذي يبدأ أول أمره اجتهاداً في تحري الحق، وكشف معالم الطريق، ثم لا يلبث ـ بفعل المنافسة وحب الغلب ـ أن ينقلب إلى عداوة تملأ العين كراهية وازدراء لكل عمل أو رأي يجيء من الخصم المنافس.

هذه صورة من صور الخلاف المذهبي لا ثمرة منه إلا هذه الفرقة بين المسلمين في أكرم موقف بين يدي الله.

لقد كانت طريقنا إلى ديننا سهلة قريبة، فَجَرَّنا الخلاف المذهبي والتعصب الطائفي إلى هذه المزالق التي لا يؤمن فيها العثار، ولا تُرجى معها السلامة.. فصرنا إلى هذه الفرقة المشتتة التي تمشّت في حياتنا المادية والمعنوية حتى يكاد المسلم ينكر أخاه أو يتنكر له.. وتلك حال جديرة بالرثاء أو البكاء:

كنا أناساً على دين، فغيَّرنا طول الجدال، وخلط الجد باللعب»

ولا شك أنَّ الأستاذ الخطيب يحترم الاجتهاد وإنما يقصد بهذا الخلاف.

«خلاف الأتباع المتعصبين للأئمة الذين ظنوا التزام مذهب بعينه من المذاهب الأربعة ديناً لا يجوز للمسلم أن يخالفه، وأدرجوا ذلك في حكم العقائد!

ورتبوا عليه مسائل فقهية بحثوا فيها حكم من قلَّد غير الأربعة، ومن قلَّد غير إمامه حتى من الأربعة. ومن لفّق في العبادة أو المعاملة بين مذاهب عدة ومن أفتى بغير الراجح أو المعوّل عليه أو المفتى به. أو بتعبير أدق، بغير ما وصف في الكتب بأنه كذلك، إلى غير هذا من المسائل التي ما أثارها إلا العصبية المذهبية، تلك العصبية التي قامت بنصيبها في تفريق الأمة الإسلامية.

وبات المسلمون من ذلك كله في ضعف، قاسوا منه أهوالاً شداداً، وأدرك

المخلصون من أبناء هذه الأمة أن لا نجاةَ لها مما وقعت فيه إلا إذا عادت إلى ما كانت عليه في عهدها الأول، حين كان الشمل مجتمعاً، والعلم صافياً، والدين واضحاً، والمرجع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ التي صحَّت روايتها واستقامت دلالتها. ينزل على حكمها المختلفون، ويصطلح عليها المتخاصمون».

* * *

إنَّ «شيطان» الفرقة يعمل للأهداف نفسها التي يعمل لها«شيطان» الخمر والميسر، هذه الأهداف التي ذكرها الله عز وجل في قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[المائدة: ٩١].

فإن تمزق الأمة أشلاء متناثرة يميت الشعور العام فيها، ويمنع تيار الإحساس الواحد من أن يأخذ دورته في شتى أجزائها.

ذاك لو أنَّ الجسم بانت عنه بعض أعضائه، فكيف إذا تربّص بعضها بالبعض الآخر وتمنى له المهالك؟

إنَّ الفرقةَ وبالٌ جسيم، وعندما يقع بأس الأمة بينها وتفشو الخصومات في كيانها، فهي أمة تنتحر قبل أن ينال منها عدوها. .

ومهما قيل في أسباب الفرقة وبواعثها فإنَّ ذكر العصبية ـ للرأي أو للطائفة كثيراً ما يسبق ذكر الله، بل كثيراً ما ينتهي بالذهول عنه.

وقد سَقَطت الدولة الإسلامية كلها أيام التتار لهول الانقسام الذي أحفظ الشيعة على السنة، واستُبيحت به دماء الفريقين، ثم استسهل بعده أن يحكم المسلمين جميعاً قوم وثنيون!!

هل هذا اللدد المر بين رجال يؤمنون جميعاً بكتاب واحد ونبيٍّ واحد يمكن أن يوصف بأنَّ مبعثه الإخلاص للإسلام، والنصح لأمته، وابتغاء مثوبة الله؟.

إنَّ الغشاوة على عقل السكران تجعله ينطح الهواء يمنةً ويسرة، وتجعله يهرف بما لا يعرف. ثم لا يزال الخَدَر يسري في أوصاله حتى يرتمي على الثرى. . !!

وللعصبيةِ المذهبية والطائفية ضراوةٌ أنكى من ضراوة الخمر. .

إلا أنَّ هذه تغطي العقل. أما تلك فتغطي الضمير، ثم تسخر العقل والبدن لإرضاء الأثرة، ومسايرة الحقد والغلب، وطلب الانتصار بأية وسيلة. .

ولعل قول رسول الله: « إنَّ البغضاء هي الحالقة» أي: التي تحلق الإيمان والفضيلة والأخوة. لعله يشير إلى هذه النتائج القاتمة. .

والاختلاف في الرأي طبيعة بشرية لا يمكن مصادرتها.

ولكي تبرد الحرارة التي قد تصحب هذا الخلاف، خصوصاً في شؤون الدين، يجب أن توفر هذه العناصر.

(١) سعة المعرفة، وغزارة المادة العلمية، والاطلاع على أكبر قدر من حقائق الحياة ومذاهب الفلاسفة والعلماء.

فإنَّ العقل الضيِّق أسوأ شيء في تصور الأمور والحكم عليها.

أما العقل الرحب فإنَّ منادح النظر تنفسح أمامه، ويستطيع أن يبين الحقائق غير مبالغ فيها ولا منقوص منها.

ويستطيع أن يقارن بينها وبين سواها مما وعته الخبرة والتجربة، فلا يكون ضحية خبرة محدودة وتجربة قليلة. .

لقد رأينا أسرع الناس إلى تكفير الآخرين وغمط حقهم أقلهم سهماً في فقه الدين والدنيا.

وما أكثر ما ينشأ ضيق العَطَن عن قصور الإدراك، وسوء الحكم عن سوء الفهم!!

أما مع رفعة المستوى الثقافي للجماعة فإنَّ اختلاف وجهات النظر قلما

يخدش وحدتها. إذ أنَّ إنصافَ المعارضين، وتقدير ما عليهم، وما لهم، يحسم شروراً كبيرة..!!

والناظر في أحوال المسلمين الآن يلحظ على عجل ضآلة حظوظهم من المعرفة المحترمة..

فمبلغ علمهم بالدنيا يقذفِ بهم إلى مؤخرة الركب العالمي.

ومبلغ علمهم بالإسلام يقطع بأنهم ليسوا أهلاً لرسالته مهما ادعوا وزعموا.

إنَّ الأجيال الحاضرة ربطت تفكيرها بطائفة من الكتب التي خلفها عصر الانحلال البائد.

فالبحث الفقهي يستمد مسائله ـ إلى يوم الناس هذا ـ من كتب أُلِّفت من خمسة قرون.

ومن البديهي أن تنهزم الشريعة أمام القوانين الوضعية بعد أن لازمها هذا الجمود المزْري.

وسائر المعارف الإسلامية كأنما كُتِبَ عليها أن تتبع الأدنى في كل نسق.

فتراثُ الأئمة الفحول يُطوى ويختفي على حين تنشر في كل مكان آثار المؤلفين من الدرجة الثالثة فمن تحتهم..!

وتصور الأدب العربي لا يعرف إلا من مؤلفات عبد الله باشا فكري أو البهاء زهير مثلاً! ويُقصي عنه إقصاءَ المعري وأبو تمام والمتنبي وأضرابهم.

إن ذلك يعطيك صورةً للثقافة الإسلامية بعد أن يحذف منها «ابن القيم» و«ابن تيمية» و «ابن الجوزي» و«ابن حزم».

ومع عكوف الخَلَف على ما وقع في أيديهم من معارف قليلة الغناء، فقد انقسموا طوائف متدابرة، لكل طائفة نوع معَّين من العلم يروج فيها لا تكترث بغيره.

وهي لا تدري ما عند غيرها، بل ربما حسبته جهلاً وضلالاً.

فكيف يُرجى مع هذا الانحدار العلمي أن تأتلف أمةٌ وأن تتوحد قواها؟

إنَّ هذه الأغذية لا تسمن ولا تغني من جوع، والاعتماد عليها وحدها لن يثمر إلا العلل التي تصيب كل إنسان تنقص جسمه« الفيتامينات» والمواد الحيوية الأخرى.

ثم إنَّ المسلمين يجب أن يعرف بعضهم بعضاً، وأن يتعرَّف كل شعب ما لدى الآخر من ضروب العلم المختلفة، وبغير ذلك لن يكونوا أمة واحدة، أو يحسنوا استيعابَ الرسالة التي عرفوا بها وكلفهم الله بإبلاغها.

قال الأستاذ الشيخ «محمد تقي القمي»:

«.. لو أنَّ التعارف بين المسلمين تمَّ على أساس توحيد الثقافة، بما في ذلك تيسير التبادل الثقافي، وتأليف كتب عن كل طائفة لإعطاء صورة صحيحة عنها، تعليم اللغات الإسلامية في الجامعات، ترجمة الآثار والرجال، لعرف المسلمون أنفسهم، وعلموا قوتهم ومقدرتهم، وأنهم مسلمون قبل كل شيء، مسلمون في كتابتهم وتآليفهم، مسلمون في قصصهم وأشعارهم.

.. لا بد أن يلتقي المسلمون بعضهم بالبعض الآخر، وهل ينكر أحد أنَّ خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة ـ الثقافة الصالحة لأن تكون ثقافة إسلامية ـ البعيدة عن كل تعصب أعمى؟ ونريدها ثقافةً تحت ظل الدين.. ثقافة يجتمع المسلمون في ظلها«بالحافظ الشيرازي» المتوفي في القرن الثامن و« حافظ إبراهيم المصري»، المتوفى في القرن الحاضر، و« محمد إقبال المسلم الهندي» المتوفى أخيراً، مع اختلاف لغاتهم وتفاوت درجاتهم.

وإذا كان هذا شأن الآداب لدى المسلمين. فأسهل منه شأن الفقه وعلوم الدين وتراث العلماء كلهم من أي مذهب من المذاهب الإسلامية، فقد استمدوا علومهم من الكتاب والسنة، ومن اللغة العربية التي هي لغة الدين، وبما أن المصدر واحد واللغة واحدة، فإنَّ أقل تبادل ثقافي، يكفي لأن تحترم كل طائفة ما عند الأخرى، ولأن يقمع كثيراً من الخلاف الذي نحن في غنى عنه».

(٢) إخلاص النية لله، وإيثار المذخور عنده على العاجل من لذات هذه الحياة والرغبة في نفع الناس بالإسلام دون تطاول به، والنظر في أخطاء الناس على أنهم بشر وأننا بشر مثلهم لا أرباب لهم، نفرح لتائبهم ونأسى لناكبهم، ونقبل من محسنهم ونغضُّ عن مسيئهم، تلك خصال لو استجمعها المسلم لأرضى ربه وحفظ دينه وصان أمته.

إنَّ القلب المدخول يجري إلى أسباب الفرقة كما يجري الماء إلى منحدره.

وما دامت قبلته شهوته فهو لا يبالي أن تفسد الأرض وتظلم السماء.

والحق أنَّ التطاحن على الدنيا ـ خصوصاً مغانم الحكم وجاهه وبسطته ـ كان العلّة الأولى في تقطع الحبال وهوان المقدسات وابتذال الكرائم. .

والغريبُ أن ديناً من الأديان لم يحفل بمثل الوصايا التي وكّدها نبي الإسلام في النهي عن طلب الإمارة، وذم الحريصين عليها، وتخويف الحكام من أمانة السلطة التي حملوها وترهيبهم من الغرور بها.

ومع ذلك فإنَّ هذه الأمة لم تؤتَ من قبل أعدائها قدر ما أُتيت من تنازع الرجال على الرياسة، ثم من تنازع الرؤساء على توسيع مناطق نفوذهم. !

وإقحام الدين في هذه الشهوات ليس إلا وسيلة لاستغلاله وسَوْق الجماهير المؤمنة كي تعبِّد الطريق أمامَ الطامعين والشطّار والدهاة.

لو جرى الخلاف نظرياً محضاً لتمحيص حقيقة أو استبانة حكم، ولم يرتبط بثمرته أي نفع دنيوي. لاكتفى المتناظرون بطرحه على بساط البحث وتركوه يتمخض عن أية نتيجة دون توجس ولا تعصب.

إنَّ ارتباط وجهات النظر بأغراض معينة سر كثير من المعضلات التي يعجز المصلحون عن حلها، لأنَّ حلها لن يكون إلا بالتجرد والإخبات لرب العالمين.

قال الأستاذ « أحمد أمين »: « . . وانظر إلى النزاع الحاد. والدماء المسفوكة بين السنية والشيعة طول العهد الأموي والعباسي، وبعد ذلك، وما جرى بسببه

من دماء. تجد سببه أنَّ أهل السنة من أمويين وعباسيين وغيرهم يرون الحق في خلافتهم. ويرى الشيعة أن لاحق لهؤلاء في الخلافة، وإنما الحق لأهل البيت. وكل يعمل على أن يصل إلى حقه بقوة السلاح. فالنزاع إذن على من يتولى الحكم. وهذه سياسة.. لا دين، وأحياناً يقوم بالدعوة الدينية رجال يدعون إلى مذاهب هدَّامة، ويتسترون باسم الدين، وتخشى الحكومة إنْ سادت تعاليمهم أن تنهار قوتها، فتضطر إلى محاربتهم، وشكل الحرب شكل ديني، وحقيقته حقيقة سياسية، وكثير ممن خرجوا على الدولة العباسية كانت حقيقة أمرهم الرغبة في إعادة الحكم إلى الفرس ككثير ممن قتلوا تحت ستار الزندقة في عهد المهدي العباسي، أو بتهمة المانوية، وقد يستثنى من ذلك الاضطهاد الذي حَدَث من المأمون والواثق لمن لم يقولوا بخلق القرآن، فقد كانت هذه نظرة دينية خاطئة من المأمون، إذ ظن أن من لم يقل بالاعتزال وبخلق القرآن قد أفسد دينه، فهو يريد إفسادَ العقيدة قسْراً وقهراً كما فعل المسلمون الأولون بإزاء الوثنيين، وهذا خطأ في التفكير نتج عنه أضرار جسيمة للمسلمين.

ومن العداء السياسي ما كان بين الدولة العثمانية والدولة الإيرانية فالعداء بينهما عداء سياسي اتخذ شكلاً دينياً. يريد العثمانيون الأولون أن يمدوا سلطانهم على الفرس، ويأبى الفرس إلا أن يحتفظوا باسقلالاهم فيؤول ذلك إلى البغض الذي بلغ مداه في عهد السلطان سليم الأول حتى كان من اضطهاده للشيعة في مملكته أن قتل وسجن ما يقرب من أربعين ألفاً. ولكن من الخطأ تحميل الدين جرائر السياسة بدليل أنَّ أكثر هذه الخصومات السياسية حدثت بين أمم إسلامية مختلفة تعتنق عقيدةً واحدة سنية أو شيعية، وإنما كان الخلاف بينهما على السلطان وسعة الحكم ونحو ذلك».

حبُّ الاستعلاء في الدنيا والاستطالة على الناس، كان إذن مصدر هذه الفتن المتلاحقة.

وهو الذي جعل بلاد الإسلام مسرحاً لحرب أهلية طويلة المدى.

تهدأ ـ يوم تهدأ ـ بعد أن تترك في النفوس آثاراً غائرة من الأحقاد والثارات.

وطبيعة البشر، مؤمنين أو ملحدين، أن يلبسوا مآربهم الخاصة ثياباً مشروعة.

وقد رأيت سيرة المستعمرين في عصرنا هذا، وكيف يجعلون للظلم قانوناً وللنهب مسوِّغات تخيِّلُ للعيون أن الباطل حق.

وقد اتخذت خلافاتنا القديمة هذا السبيل، وربما بدأت ولها أسس قوية من الصواب، أو وجهات نظر يقصد بها الحق وحده، بَيْد أنها تطورت على مرِّ العصور تطوراً كان يقلِّل ما فيها من خير ويضعف ما فيها من شر، حتى انتهت إلينا ـ نحن أبناء هذا القرن ـ وهي شرٌ محض، فليس يستمسك بها من له بقية من عقل أو إيمان.

(٣) ولا بد من الاعتبار بأحداث التاريخ والاعتراف بتطور الحياة، وانتقال الأمم كلها إلى أحوال تغاير ما كانت عليه منذ أربعة عشر قرناً.

وهذا يفرض علينا أن نعيد النظر في رسالتنا الكبرى، لا لتغيير شيء من أصولها فمعاذَ الله أن يجريَ على خواطرنا هذا الإفك، إنما لنغيِّر من أسلوبنا في تطبيق بعض التعاليم، على ضوء ماوَعَينا من تجارب وما جدَّ في الحياة من أحداث كبار.

إننا ـ في مدى أربعة عشر قرنا ـ أصبنا كثيراً من الأرباح وكثيراً من الخسائر.

وجدير بنا أن نتعرف سرَّ ربحنا وخسارتنا، ومقدارَ ما بقي لنا أو علينا!!

وهل أحسنَّا أو أسأنا في عَرْض الدعوة التي ناطتها الأقدار بنا؟

وما صلتنا بالعالم وما صلة العالم بنا؟

إنني أميل إلى تحميل المسلمين أوزار انسحابهم من الأندلس، وانكسارهم في شرق أوروبا، ثم افتضاح أحوالهم النفسية والاجتماعية والسياسية في مهزلة فلسطين من سبع سنين، أمام عصابات اليهود[١].

---

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٥٥.

وأميل إلى اتهام نظم الحكم والاقتصاد والتعليم عندنا، فهي مسؤولة عن المصير الكابي الذي انتهينا إليه.

وهي نظم إذا قورنت بهدي الله ورسوله بدا بينها وبينه أمد قصي..

ولقد ارتقى العالم في بقاع شتى، ووصل في نظمه العامة إلى ثمرات أطيب مما لدينا وأشهى، لأنَّ ما لدينا لم يكن نتاج تدين صحيح.

فلا عجب إذا سبقنا في مضمار الإجادة والكمال من يفقهون الحياة ويتذوقون طعومها..

وحقٌّ على المتخلفين في حياتهم أن يتعلموا ممن تقدموا وفاقوا، أيا كان لونهم، وإقحام الدين في الحيلولة دون هذه الإفادة حمق كبير.

* * *

إنَّ الدساتير التي صانت الحريات العامة وضبطت صورها الجزئية ومنعت الجبابرة من الاستبداد بالأمم يجب أن نستفيد منها في بلادنا، إذاكان غيرنا قد أحسنَ إحكامَها.

والإسلام لم يمنع «عمر بن الخطاب» أن يمصِّر الأمصار، ويدوِّن الدواوين، ويقتبس النافع الطيب من نظم الفرس والرومان وهو يبني الدولة الإسلامية الحديثة.

والذين يفكرون في حياة إسلامية فيرجعون إلى الماضي السحيق ويذهلون عن تحرك الفلك أربعة عشر قرناً هم قوم يسيؤون إلى أنفسهم، وإلى إسلامهم، وإلى بلادهم وإلى الحياة كلها.

لماذا لا ندرس الروابط بين دول «الكومنولث» البريطاني ونحن بصدد بناء أمتنا من جديد؟ أو ندرس الروابط بين شعوب الاتحاد السوفيتي، أو الولايات المتحدة الأمريكية مثلا؟.

ذلك أن الأمة الإسلامية تتكون من شعوب عدة، وقد نرى جعل « الخلافة»

رابطة مرنة أولى من جعلها نظاماً مركزياً.

ومن الضروري الاعتراف بما للأجناس والأقطار المختلفة من خصائص يجب أن تبقى لها..

إنَّ الإفادةَ من سير الزمن شيمةُ أولي الألباب.

وهؤلاء هم الذين يخاطبهم الحق جلَّ وعلا، وينيط ببصائرهم حراسة الإيمان في الأرض.

وما دمنا بصدد تجميع الأمة الإسلامية، وإذابة فرقتها في كيان واحد متماسك، فلنلفت النظر إلى أن هذه الفرق التي تعرف أسماؤها من كتبنا القديمة قد تغيرت هي الأخرى، وطرأ على أتباعها ما يستدعي التأمل. ومراجعة الأفكار والأحكام التي عُرفوا بها، ونقتبس هذه الفقرات من مقال للشيخ«عبد العزيز عيسى» يوضح تلك الفروق قال:

«.. ثم إننا نجد الطائفة الواحدة تتنوع إلى طوائف، وتفترق إلى فرق، فأهل السنة مثلاً أشاعرة وماتريدية، وعلماؤهم في كل فرقة من هاتين قد يختلفون فيما بينهم، وقد يشذّ بعضهم عن رأي الآخرين في مسألة ما، وقد يعتنق في قضية من القضايا رأياً يماثل الذين يخالفون هذا المذهب. وقل مثل ذلك عن الشيعة، فإنَّ لفظ «الشيعة» قد حُمِّل على مرور الزمان واختلاف المواطن والسياسات دلالات مختلفة ينطوي تحتها الإمامية والزيدية، كما ينطوي تحتها القرامطة والباطنية والإسماعيلية وغيرها مما تَكَلَّفَتْ بذكره كتب الفرق. فإذا أخذنا أي موضوع من الموضوعات الكلامية، بالفكرة العامة عن الشيعيين أو السنيين، ولم نحدد أي فرقة من فرق هؤلاء وأولئك نريد، فإننا نقع في الخطأ ونسند إلى فريق مقالات الفريق الآخر، ولعلنا نأتي إلى بعض الفرق التي انقرضت وذهب أربابها فنحكم بها على الفرق الحية الحاضرة وهي لا تشارك الميتة إلا في الاسم العام، بينما تخالفها في كثير من الأصول والتفاصيل، وقد نأخذ بقول عالم من علمائها شطَّ فيه أو انحرف أو ضل السبيل

فنحكم به على الطائفة كلها ونقول: إذا كان فيهم من يقول كذا كذا فإنهم ولا شك قوم ضالون، دون أن نحقق: هل القائل يمثل فكرة القوم أجمعين أو لا يمثلها. وهل قُبِل قوله، واعتنق رأيه عند طائفته أو رد عليه؟

ثم إننا نجد الطوائف تنقسم إلى خاصةٍ مفكرة، وعامة مقلِّدة أو متعصبة، وقد يرى الخاصة من أرباب مذهب آراء معقولة ربما يوافق عليها الخاصة من أرباب المذاهب الأخرى ولا يخالفون فيها، بينما نرى العامة من أهل هذا المذهب نفسه يؤمنون بفكرة معينة، ولا يقبلون فيها نقاشاً ولا جدالاً، ويتوارثها أبناؤهم وأحفادهم لا يحيدون عنها، وليس من الإنصاف أن نقول: إنَّ أمثال هؤلاء العامة أرباب مذاهب بالمعنى العلمي، وإنما هم قومٌ حادوا عن الطريق في ناحيةٍ ما، وهم بحاجة إلى من يبصِّرهم بالصواب. ويهديهم إلى الصراط المستقيم».

* * *

بسعة المعرفة، وصدق الإخلاص، وحسن الإفادة من الماضي، نقدر على وصل ما انقطع من حبالنا وأمجادنا.

ونستأنف المسيرَ نحو الغاية النبيلة التي هدانا الله لها.

ومعنا كتابٌ حفظته العناية العليا وحبته الخلود.

وسنةٌ تَوافر لها من ضمانات التوثيق ما لم يُعهد في تاريخ بشر.

وما دمنا نؤمن بمحمدٍ وكتابه فما يجوز أن نتعادى على شيء بعده.

فكل شيء بعد هذا اليقين قليل.

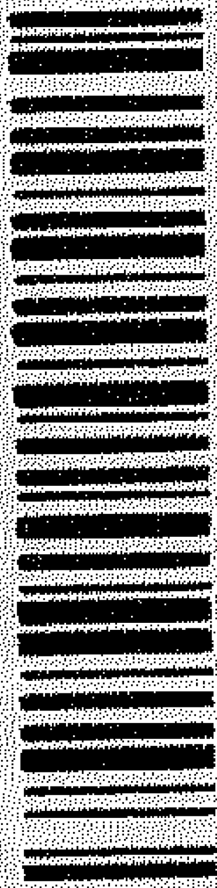
وقد نختلف، بل سوف نختلف حتماً في أمورٍ شتى، لكن هذا الخلاف المفترض لا يفصل بين أخوين.

ولا يعكِّر مستقبل أمة ذاقت من غصص الفرقة الأمرَّين..

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة



تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
٦ / ١١٣
[illegible]
٢ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

